207

أنيس منصور

ليلة في.. بطن الحوت!

Wed.
21/3/2012
Riyadh



ليلة في بطن الحوت!

انحسرت الدنيا من حولي وفي داخلي عندما وجدتني في غرفة صغيرة بيضاء وعلى سرير ضيق وجاءت الممرضة بابتسامة رقيقة وسألت إن كنت أريد شيئاً فقلت: أريد الذي لا يستطيعه أحد. قالت: ماذا؟ قلت: أن تخففي الألم.

حينها تذكرت النبي يونس وهو في بطن الحوت. وبدا موجعاً كان يونس في ظلمات بطن الحوت وأنا الآن أرفع سماعة التليفون وأحاول أن أقوم بإعدام الوجود حتى لا يبقى سواي وحتى أبقى وحدي مع نفسي لكي أفعل ماذا؟.. لا شيء إلا لكي يعمق عندي الشعور بالألم فما الذي يستطيعه أحد؟

عندها انفتح الباب ودخل الطبيب وسألني: ماذا تريد؟ فقلت بسرعة: أريد الذي لا يستطيعه أحد أن أراك ولا تراني!

عبارة فظيعة لا تقال وحمدت الله أنني لم أقل..

فلا انفتح باب ولا دخل طبيب ... وإنما تخيلت ذلك فليسامحني حتى لو قلت!





أنيس منصور

ليلة في بطن الحوت !



شخصيات تعترض على مؤلفيها!

أشادت المجلات الأدبية بالكاتب جون ماكسويل كوتزي من جنوب إفريقيا والحاصل على جائزة نوبل في الأدب منذ سنتين، وسبب الإشادة أنه يستحق ذلك، وأنه في إحدى رواياته ظهر له أثناء الكتابة أحد أبطاله يناقشه في الصورة التي رسمها له وأنه فرض عليه حياة لا يحسها، وأن المؤلف بهذا الشكل رجل مستبد وأنه طاغية، ودار حوار بين المؤلف وأبطاله الذين تمردوا عليه، وانتهت الرواية كما يريدها الأبطال لا كما أرادها المؤلف!

ولا أرى أن هذه الحيلة جديدة، فقد لجأ إليها الفيلسوف الوجودي الإسباني أونا مونو منذ خمسين عامًا في روايته (الطعم الحزين للحيَاة)، فأحد أبطال روايته ناقشه في هذا الاستبداد والإطاحة بكل من يرفع رأسه من الأبطال، ودار حوار بين أونامونو وأحد أبطاله الذي رفض أن يموت لأنه صغير ولأنه لم يحقق ما كان يحلم به، وأن موته المبكر غير منطقي إلا إذا مات المؤلف معه، واعترض المؤلف على موته المفاجئ، وكان رد بطل الرواية كيف تريد الموت لي ولا تريده لنفسك، إنك طاغية ومع ذلك لن تستطيع أن تدفع الموت عن نفسك!

وأنا وجدت نفسي في هذا الموقف، فقد كتبت مسلسلاً بعنوان (عريس فاطمة) منذ أربعين عامًا، وكتبت من هذا المسلسل التعيس عشر حلقات، ولم أستطع أن أكمله، وتركته عشر سنوات، ثم عدت إليه، وجعلت أحد الأبطال يحاسبني على الصعوبة التي واجهها البطل في حياته، وأن هذه الصعوبة من صنع المؤلف، وأنه كان من الممكن أن يغير شخصيته ومساره في الحياة، ولكن المؤلف - أنا- لم يفعل وعليه هو وحده أن يحل هذه المشكلة، وأكملت المسلسل الذي ظهر في التليفزيون بصورة أخرى، فقد كان من الصعب على المشاهد أن يتابع هذه الحيل الفكرية والفنية المعقدة!

وهي لحظات من النادر أن يواجهها المؤلف؛ لأنه يفرض الحياة والظروف والعقد والحلول على أبطاله من دون أن يراجعه أحد في ذلك، فقدرة المؤلف مطلقة. وقدرة الأبطال محدودة، والذي يحددها المؤلف الذي يعرف ماضيها وحاضرها ومستقبلها!

يقول الفيلسوف أونامونو: لو خرجت كل الشخصيات من الروايات والمسرحيات لمراجعة مؤلفيها ما بقي كاتب واحد على قيد الحياة، فكثير من الأبطال يكرهون تسلط المؤلفين وطغيانهم!

لا تكن فلاحًا ولا عاملاً مصريًّا!

وضعت يدي على فمي حتى لا أستمر في الضحك في الساعات الصغيرة من الليل! فقد كنت أقرأ ترجمة بعض أوراق البردي الموجودة في المتحف البريطاني المعروفة باسم بردية داووف، وهي تحكي عن الفلاح المصري الغلبان المسكين الذي يئن بالشكوى. فعندما يجيء مندوب الملك يسأل عن المحصول يبكي الفلاح ويقول: الديدان أكلت الثلث وفرس البحر الثلث والعصافير ما تبقى بعد ذلك.. وهي نفس الأعذار التي أسمعها على مدار السنة من الفلاح الذي يعمل في حديقة صغيرة لنا. في يوم قال لي وهو يقسم على ذلك: إن العصافير سحبت أوراق الصحف التي نلف بها عناقيد العنب فأوقعتها على الأرض وراحت تقفز فوقها تقرؤها وبعد ذلك تفرغت لأكل العنب.

وفي بردية داووف أن أبًا أخذ ابنه إلى المدينة ليدخله المدرسة وقد حدثه عن كل المهن وعيوبها جميعًا. فالفلاح: يعمل ليلاً ونهارًا وقد انكفأ على الأرض حتى انكسر ظهره وعنقه. والنجار: يدق الأخشاب حتى توجعه ذراعاه.. الفخراني والنساج: يعملان في البيت ويدفعان رشوة حتى يسمح لهما الحراس برؤية الشمس. والراعي: ينتقل

بالحيوانات إلى المستنقعات وهو بطبعه شرس طويل شعر الرأس واللحية وصياد ماهر للطيور والأسماك. والحداد: يجلس أمام النار والدخان والهواء أيضًا. حتى تصبح يداه مثل جلد التمساح. والحلاق: يظل طول اليوم يجري بحثًا عن الزبائن فإذا عمل انكسر ظهره وعنقه. والإسكافي: في غاية التعاسة يسأل الناس إحسانًا. والغسال ينتقل بالأقمشة إلى شاطئ النيل تهدده التماسيح.

ليس هذا فقط يقول له الأب: إن هؤلاء جميعًا معرضون في أي وقت ليجيء رئيسهم ويضربهم بالسياط أو يحملهم بالقوة للعمل في المقابر والمعابد ولا ترحمهم السياط، إن العامل والفلاح المصري هما أتعس الناس في ذلك الوقت ولكن أبو التاريخ هيرودوت رأى صورة أخرى يقول إنه لا يوجد في الدنيا كلها فلاح يعمل القليل ليحصل على الكثير مثل الفلاح المصري.. فمياه النيل تغمر له الأرض من دون مجهود منه. ثم يلقي الفلاح بالبذور ويطلق عليها الخنازير تدوس البذور إلى داخل التربة، فإذا كبر القمح أو الأرز أطلق عليها الخنازير فتحطمها ويجيء هو يجمع المحصول، هذه هي الصورة الخارجية أما الصورة الحقيقية فهي التي جاءت في بردية داووف.

وقد أراد الأب أن ينصح ابنه بألا يكون عاملاً أو فلاحًا وإنما أن يكون كاتبًا. فالكاتب هو أرقى وأسمى وأنبل الناس وأكثرهم احترامًا عندهم. وعند الملك والكهنة.

وأظن أن الكاتب الآن يختلف كثيرًا عن أجداده. وإن كان أجدادنا من الحكام لا يختلفون كثيرًا عن حكامنا اليوم: فأكثرهم فراعنة!

ومات الشاعر على صدرها!

أول مرة قرأت عن الشاعر الألماني رينر ماريا ريلكه (1875 – 1926) كانت في مجلة «الثقافة» وكنت طالبًا في قسم الفلسفة بآداب القاهرة. ولم يكن مقالاً وإنما ترجمة لمجموعة من النصائح بعنوان «رسائل إلى مالته بريجه» أما المترجم فهو د. محمد عبد الهادي أبو ريدة أستاذ الفلسفة الإسلامية. واتجهت بعد ذلك إلى البحث عن الذي كتبه الشاعر الألماني. وقرأت «كتاب الساعة».. ثم قصائده وقد ترجمت عشرين منها. بعض زملائي قد ترجموها شعرًا.

وفي يوم كنت مع الشاعر عبد الرحمن صدقي، الذي كان مديرًا للأوبرا، نتفرج على الكتب القديمة على سور حديقة الأزبكية بالقاهرة. عندما مددت يدي وانتحيت جانبًا بكتاب عليه صورة فتاة جميلة. والكتاب بالفرنسية وعنوانه «رسائل ريلكه إلى الحسناء المصرية نعمت علوي» مفأجاة. كدت أقرأ الكتاب واقفًا ويبدو أنني أطلت الوقوف والتفت حولي فلم أجد عبد الرحمن صدقي. إذن لابد أنني استغرقت في القراءة تمامًا ولم يشأ أن يوقظني وشكرته في نفسي والتفت حولي أبحث عن مكان أكمل هذا الكتاب. ووجدت المكان، ولاحظت أنني أتصبب عرقًا. فخلعت الجاكتة وفككت زراير القميص. وأدهشني ذلك.

واكتشفت أنني ذهبت إلى مطعم للكباب والكفتة. وكنت قريبًا من الفرن. وأنا لا أحب الكباب ولا الكفتة ولا اللحم، وأنني أخاف من الزكام وأنني جلست دون أن أدري قريبًا من الفرن. وأكملت الكتاب. ولما نظر إليَّ الجرسون مندهشًا قلت له: ممكن سندوتش فول؟

فهز رأسه مشيرًا إلى محل الفول المجاور. وضحك قائلاً: مع السلامة يا سعادة البيه! ومددت يدي أشكره وهز رأسه. وعرفت أن السبب هو أنني شغلت تربيزة كاملة وأن الزبائن لما رأوني قد نشرت أوراقي على المائدة ظنوني تلميذًا وعذروني وتركوني!

ونشرت أول مقال عن الشاعر ريلكه سنة 1953 في مجلة «آخر ساعة» عنوانه «وعلى صدرها مات ريلكه». ومع المقال صورة نعمت علوي الحسناء المصرية التركية.

ثم عدت إلى خطابات نعمت علوي إلى الشاعر وخطاباته إليها. وتلقيت تهديدًا بالقتل من مجهول يبدو أنه من أقاربها. وكتبت مقالاً أرجو أن أعرفه لكي أعتذر له.. والحقيقة أنني أريد أن أعرف منه عنها أكثر!

وفي الأسبوع الماضي نشرت إحدى الصحف العربية مقالاً عن غراميات الشاعر الألماني وقالت إن عشيقته سيدة تركية اسمها «نامت الصدر» والاسم تحريف لعنوان مقالي الذي كتبته منذ أكثر من خمسين عامًا وعنوانه «نعمت التي مات على صدرها»؟!

وريلكه هو ثالث ثلاثة عشقوا الكاتبة العلمانية سالومي (لو اندرياس سالومي) والآخران هما الفيلسوف الألماني نيتشه وعالم النفس النمساوي فرويد!

مدرستان في النهضة والتنوير

في وقت واحد قررت مصر من ناحية، واليابان من ناحية أخرى، أنه من الضروري أن يتعلم الشعب؛ لأنه قد تأخر كثيرًا.

ففي مصر قرر محمد علي باشا إيفاد الطلبة النابهين إلى فرنسا ليتعلموا، ثم قرر إنشاء مدرسة لهم في باريس ليعيشوا في جو فرنسي علمي منضبط تمامًا، وكان يتلقى تقارير دقيقة عن سلوكيات المبعوثين، وكان يقرأ الخطابات التي يبعثون بها إلى عائلاتهم، وكان يتولى حل مشاكلهم حتى يطمئنوا ويتفرغوا للعلم.

أما في اليابان فقد فكروا وقرروا بسرعة، قرروا أن يأتوا بمن يعلمهم. بمن يعلم المئات، والمئات يعلمون الألوف، فأتوا بالإنجليز ليعلموهم بناء السكك الحديدية وبالفرنسيين ليعلموهم الدستور والقانون وبالإيطاليين ليعلموهم الرسم والموسيقى وبالألمان ليعلموهم صناعة الدواء، وبالأمريكان ليعلموهم بناء المدارس والمعاهد. وأقفل اليابانيون على أنفسهم الأبواب والنوافذ فكانت النهضة اليابانية مفاجأة كبرى للعالم؛ لأن أحدًا لم يشعر بالخبراء ذهابًا وإيابًا إلى اليابان، ولم يشعر أحد بأن مئات الطلبة قد تحولوا إلى مدرسين يعلمون عشرات الألوف، عشرين ثلاثين أربعين عامًا!

وكان محمد علي باشا الكبير رأس الأسرة العلوية التي حكمت مصر أُمِّيًا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه مستنير يؤمن بالعلم والتطور، وأن العلم كالدواء يجب أن يفرضه بالقوة على المريض، والجاهل مريض. ولذلك كان محمد علي صارمًا مع طلبة البعثات، وأكثر من ذلك يطلب إلى كل طالب متخصص أن يترجم كتابًا في تخصصه، وكان يضع طلبة البعثات في القلعة ويحبسهم ستة أشهر بعدها يقدم كل واحد الكتاب الذي ترجمه إلى التركية أو إلى العربية، وكان يطلب تقارير منتظمة عن حياة هؤلاء الشبان العاكفين على ترجمة المراجع الأساسية في تخصصاتهم المختلفة. فإذا مرض أو تكاسل أو انشغل أحدهم بأمه أو أبيه كان يتولى تهدئتهم، ولكن لا أحد يخرج من القلعة ولا أحد يتصل بهم لأي سبب!

وقد حدث أن توفي أب لأحد الطلبة وكانت المدة المقررة توشك على الانتهاء، فأجل الدفن والجنازة حتى يسلم الطالب الكتاب الذي أمر بترجمته!

ولذلك كان محمد علي باشا حاكمًا فريدًا بين حكام مصر ورواد نهضتها العلمية والاجتماعية، فمن غير انضباط وروح جادة وإرادة قوية ورعاية رسمية لا تتقدم الأمم.

كبار وأخطاؤهم كبيرة أيضًا!

أخطاء الصغير صغيرة، وأخطاء الكبير كبيرة.

ولذلك لا ينسى التاريخ سقطات العظماء مهما كانت إنجازاتهم تاريخية، مثلا العالم الكيميائي الأمريكي لينوس باولنج الحائز على جائزة نوبل مرتين، مرة في الكيمياء ومرة في السلام، لم ينس له العلماء ما قاله عن طول العمر، فقد قال إن فيتامين «ج» يطيل العمر! فنشرت الصحف هذا الرأي في كل مكان وتولت شركات الأدوية هذا التصريح بالدعاية لكل أشكال وألوان فيتامين «ج» بل إن بعض شركات الأدوية طلبت منه أن يظهر على الشاشة وفي يده نوع من الفيتامينات التي أنتجت حديثًا، فظهر ورفض أن يتقاضى أجرًا على ذلك.

وفجأة ظهر كتاب بعنوان (الكفرة) أو (الملاحدة)، ومن بين هؤلاء الكفرة لينوس باولنج، لماذا؟ لأنه قال إن الفيتامينات تطيل العمر، بدون أن يقدم تفسيرًا علميًا لذلك، فكأنه كفر بالعقل وبالعلم، وأنه بذلك قد انحرف، وهذه سقطة لرجل عظيم لا يمكن تجاهلها، فرغم كل ما قدم من اكتشافات في عالم الخلايا، لكنه أخطأ، سقط، فأخطاء الكبار كبائر!

وأرسطو، أستاذنا العظيم، قدم لنا المنطق وعلوم الحياة والطبيعة والفلك ونظريات الكون والفساد، ولكنه أخطأ، قال إن عدد الأسنان عند المرأة أكثر من عدد الأسنان عند الرجل، عبارة جاءت في سياق طويل عريض، ولم يقدم دليلاً على صحة ما قال لأنه ليس صحيحًا. وقال أرسطو أيضًا إن في البحر تيارين من المياه الساخنة والباردة ونزل إلى البحر ليتأكد من ذلك ولأنه لا يعرف السباحة فمات غرقًا، كأننا لا نتصور أن عظيمًا يخطئ مع أنه من الطبيعي أن يخطئ الإنسان لأنه إنسان وليس إلهًا!

وأكتشف غلطة لأستاذنا العقاد، فقد كتب مرة يقول: إن جسم المرأة قد أعد تمامًا لاستقبال وضيافة طفل تسعة أشهر بدون إزعاج وبدون أن يتأثر بالعالم الخارجي، ولذلك –وهذا كلام العقاد– إذا نظرت إلى امرأة نائمة فإنك تلاحظ أن صدرها لا يعلو ولا يهبط عند التنفس لماذا؟ لأن أي حركة ربما توقظ الجنين في بطنها! وليس صحيحًا ما قاله الأستاذ وأغلب الظن أنه هو شخصيًّا لم ير ذلك، ولم أجرؤ أن أقول للأستاذ العقاد هذه الملاحظة!

وتوقفت عند اللوحات التاريخية لآدم وحواء. وأطلت النظر وبعثت بخطاب إلى دائرة المعارف البريطانية أقول فيه إنني لاحظت أن لوحة آدم وحواء فيها غلطة علمية وهي أن لكل منهما (سرة)، والسرة لا تكون إلا لمن ولدته أمه وآدم وحواء ليست لهما أم!

وانتظرت ردًّا أو شكرًا أو إشادة بهذه الملحوظة وما زلت منتظرًا من خمسين عامًا!

الخيول والطفلة المعجزة!

كل طفل في عيني والديه: عبقري.

ولكن هناك أطفالاً عباقرة فعلاً، والتاريخ مليء بهؤلاء الصغار مثل الموسيقار موتسارت والفيلسوف ميلر، ويقال: أبو العلاء المعري وأبو تمام، وفي الصحف البريطانية هذا الأسبوع ظهر طفل صغير اسمه إدوارد (6 سنوات) قد اشترك في معرض دولي للرسم بالألوان المائية، وهذه هي المرة الأولى التي يشترك فيها طفل بأربع لوحات، قد بيعت كلها، وهو الفنان الوحيد الذي باع كل لوحاته من بين 275 لوحة، الطفل رسم كلبًا وقطًّا وعددًا من الأغنام ثم صورة لجد، والجد فنان والأب فنان، ويقال إن هذه الأسرة اشتغلت بالفن في القرون الثلاثة الماضية، فأبوه وهو في التاسعة من عمره قد رسم لوحات للملكة الأم.

أما الطفل إدوارد فلوحاته فنية بسيطة، والذي لا يعرف من هو، فإنه يشعر بأنه أحد الرسامين الواقعيين أصحاب الخطوط البسيطة والتعبيرات المكثفة. أما خلفيات هذه اللوحات فهي مضيئة وجريئة أيضًا!

عندما كنا في مدينة البندقية وقفنا، كل فناني مصر: صلاح طاهر وحسين بيكار والأخوان أدهم وانلي وسيف وانلي وكمال الملاخ وجمال كامل وحسن فؤاد وعبد الغني أبو العينين وأبو صالح الألفي نقيب الفنانين، وقفنا حول طفلة (6 سنوات)، أمها عاملة هاتف جلست ترسم في الشمس ونظرنا وتأملنا وتوقفنا وطال وقوفنا.

ولكن نحن رأينا وعرفنا وطلبنا منها لوحة لكل منا وعليها التوقيع والتاريخ وأرغمناها على أن تتقاضى أجرًا عن هذه اللوحة، وهي ترسم حصانًا، وتسأل: واقفًا أو يجري، أو يجر عربة، أو يصعد جبلاً أو واقعًا على الأرض، وحده أو مع خيول أخرى، هاربًا من الذئب. ولا أزال أحتفظ بلوحاتها وإمضائها «وانجللينا أغسطس 1951».

أما براعتها وسرعتها في تصوير حركة الحصان فهي في رأي الفنانين الكبار صعبة جدًّا، وأن الذي تعمله هذه الطفلة بهذه السرعة والسهولة يعجز عنه الكبار، وقد أمسكوا أوراقًا وأقلامًا وحاولوا تقليدها فلم يستطيعوا. أما الذي أضحكنا وأوقعنا من الضحك فهو أنها جمعت كل ما رسمه الفنانون مع التوقيع والتاريخ وأخرجت من جيبها مبلغًا تافها جدًّا وقالت: اقتسموه فيما بينكم!

ليس لهم تصريح بالدفن!

قرأت مقالاً لأديب أردني هو حسن جلعاد عن الكاتب الأردني العائد إلى وطنه جثة في نعش سنة 1989، إنه «غالب هلسَا»، وكيف أنهم أوقفوا النعش يتأكدون من الاسم والميلاد ولم يحزن أحد على أنه الأديب الشيوعي الذي خرج حيًّا وعاد ميتًا، فلم يستطع أن يعيش في بلده فلا أقل من أن يموت تحت ثراها، ووصفه الأستاذ جلعاد وصفًا دقيقًا وقال إنه يمثل (الفزع الوجودي).

وهذا التعبير بالفرنسية يسمونه (جران جنيول)، وهي صفة أطلقت على الفلسفة الوجودية كلها، لأنها في حالة فزع من الحياة وأعبائها. وأهم أعبائها حرية الاختيار بين أشياء كثيرة، ثم حمل المسئولية عن كل ذلك!

وتذكرت ما حدث لأديبنا توفيق الحكيم، هو أيضًا، مات توفيق الحكيم فسرنا في جنازته وحملناه في طائرة عسكرية إلى الإسكندرية ورافقناه: د. أحمد هيكل وزير الثقافة في ذلك الوقت وأنا ونزلنا في الإسكندرية واتجهنا إلى المقابر، ولم يكن هناك إلا محافظ الإسكندرية وعدد من الموظفين، خمسة، ستة، عشرة، وكان استقبالا فاترًا، كأن توفيق الحكيم قد أزعجهم، وهو وحده يتحمل هذا الغلط.

أما (الترابي) أو حارس المقابر فرفض دفن توفيق الحكيم، فليس معنا تصريح بالدفن، يموت الفنان وتعيش أفكاره، فالشخص يموت والشخصية لا تموت، وحاولنا ولكنه رفض، وتدخل المحافظ، وانشقت الأرض لتوفيق الحكيم!

وأذكر أنه جرى على أيام الخديو إسماعيل أن عثر عالم الآثار الفرنسي مرييت على مومياء الملك «مري – أن – رع» وطلب من العمال نقل المومياء إلى المتحف في القاهرة، والمومياء وجدوها بالقرب من الجيزة. وكان لا بد من نقلها إلى محطة السكك الحديدية، فلم يجدوا إلا حمارًا وضعوها عليه، وتدلت السيقان من ناحية والذراعان من الناحية الأخرى، ولفوها في أقمشة مهلهلة ولما رآها ناظر المحطة سأل: وما هذه؟ فقالوا: مومياء، ولم يكن قد سمع هذه الكلمة، وسمح لها بمكان في القطار، ونزلت المومياء من القطار مرة أخرى ورآها رجال الجمارك: ما هذه فقالوا: إنها فسيخ، ألا تلاحظ رائحتها الكريهة ودفعوا عن ذلك مبلغًا صغيرًا.

الفسيخ هو السمك المجفف الذي وضع في الملح طويلاً، وأذكر أنه في مؤتمر الأدباء في بلودان بسورية حملنا معنا إلى أصدقائنا فسيخًا وثمار المانجو، وفي الصباح كنت أتمشى فوجدت المانجو والفسيخ قد وضعت بمنتهى العناية إلى جوار الحائط، السبب: إنهم يكرهون رائحة الفسيخ ولا يحبون رائحة وطعم المانجو، وفي شم النسيم في مصر تعلق رائحة الفسيخ بكل الشوارع والحدائق وهي فرصة سنوية لكي يطفش من القاهرة أو من مصر كلها أبناء سورية ولبنان والأجانب.

غلطة الكبار الذين ماتوا أنهم كبار انتهت أعمارهم ولكن لن يموتوا بينما غيرهم يموتون مهما طالت أعمارهم!

أعمق حزن وأتعس ألم في أجمل عينين!

أروع تجربة صحافية مخابراتية تكنولوجية هي التي قام بها مصور في مجلة «ناشيونال جيوغرافيك» فقد قدم تقريرًا بديعًا عن أفغانستان واختار وجهًا فاتنًا. أروع ما في الوجه عينان خضراوان فيهما كل معاني الأسى والحزن والهم والغم والإصرار والتحدي.

وتحدث الناس عن هاتين العينين، وقرر الصحافي أن يعود إلى صاحبة العينين بعد عشر سنوات، وذهب يبحث عنها، وقالوا له هاجرت إلى مكان آخر، وسافر إلى المكان الآخر ورأى عيونًا كثيرة، صورها، وتقدمت مئات الفتيات يعلنَّ للكاميرا أنهن صاحبات العينين الساحرتين، وتجمعت لدى الصحافي ألوف العيون، بعضها شبيه بالعينين اللتين جعلهما غلافًا فاتنًا، ولكنه لا يعرف كيف يتأكد من ذلك.

كان لا بد أن يلجأ إلى المخابرات المركزية فقد حللوا كل العيون، ولكن لم يجدوا العين المطابقة، وأخيرًا، صوروا العين وحللوها بأجهزة حديثة جدًا، وتأكدوا أنها هي.

ولم نكن نعرف هذا العلم الجديد الذي تمارسه المخابرات الأمريكية من سنوات، إنه علم بيوميتركس، أي المقياس الحيوي لبصمة العين، وبصمة الأصابع، وبصمة الصوت.

ويقال إن أول دولة عربية تعتمد على بصمة العين هي دبي، فلا يدخلها أحد إلا صورت عيناه، وبصمات العين كبصمات الأصابع وبصمات الصوت لا تتطابق، ربما تغيرت بصمات الأصابع بتقدم السن، أو باستخدام الجوانتات أو إذا حاول صاحبها أن يخفيها بأن يضع مادة كاوية فلا يهتدي إليه البوليس.

وإذا كانت بعض البنوك تطلب من عملائها أن يوقعوا من جديد، فلأن التوقيع من الممكن أن يتغير مع السن وضعف الأصابع في الضغط على القلم وسرعة الكتابة أيضًا، فكذلك يجب أن يغير العملاء من بصمات أصواتهم أيضًا.

أما بصمة العين وصورة الحدقة واتساع العين، فإنها لا تتغير بهذه الدرجة، وقد نشر الصحافي الأمريكي في مجلة «ناشيونال جيوغرافيك» أن الأجهزة الموجودة في المخابرات استطاعت أن تعرف العينين اللتين يبحث عن صاحبتهما من بين خمسين ألف صورة، ولأن هذه الأجهزة دقيقة جدًّا، فقد استطاعت أن تميز الفوارق الدقيقة التي لا تدركها العين ولا الكاميرات العادية مهما كانت شديدة الحساسية.

ولما ذهب المصور إلى صاحبة العينين حاولت أن تنكر وحاول زوجها تهريبها خوفًا من الفضيحة وخوفًا من الجماعات المتطرفة في أفغانستان، ولكن لما علم الزوج أن هناك مكافأة مالية ضخمة لها ولأسرتها اعترف، واعترفت وأعيد تصوير أجمل ألم وأعمق حزن وأتعس لاجئة من بلدها إلى بلدها!

جاءوا ولا نعرف من أين!

باحث بريطاني محترم يستأنف الحكم في قضية الأطباق الطائرة في كتاب عنوانه «لقاءات غير طبيعية مع أساتذة البشرية القدامى». الموضوع ليس جديدًا، ولكن الباحث الكبير عاد فقرأ ألوانًا من السجلات والصور في الأربعين عامًا الماضية، وأعاد دراسة الاعترافات من النساء والرجال، والنساء روين كيف أن هذه الكائنات قد اختطفتهن إلى الطبق الطائر أو الكرة الطائرة، فكان الاغتصاب الجنسي، والرجال قالوا إن نساء في الأطباق الطائرة قد اعتدين عليهم، وأخذوا الحيوانات المنوية ووضعوها في آنية من الزجاج، وكيف أنهم رأوا آنية زجاجية بها أجنة، والأجنة في سوائل شفافة، وبعد ذلك ألقوا بهم خارج الطبق الطائر الذي اختفى.

أما رأي بعض علماء النفس فهي أنها هلوسات، يضاف إليها القصص القديمة لبعض الناس عن الجن والعفاريت، وهي حكايات ملأت الكتب في العصور الوسطى. وقد روى عدد من العلماء أنهم عرفوا أن هذه الكائنات الغريبة قد حقنت عددًا من الرجال في العمود الفقري، وأن هؤلاء العلماء يرون أن هذه الكائنات الغريبة إن لم تكن تعيش بيننا، فإن أولادها وأحفادها هم النابغون من العلماء

والمفكرين. فهذه الكائنات هي التي ساعدت الإنسان على حل الكثير من مشاكله العلمية والحيوية، وأن هذه الكائنات الشفافة تحتاج إلى جسم الإنسان لكي نراها، والإنسان في حاجة إلى قوة هذه الكائنات وعقلها لكي يكون قادرًا على التطوير والإبداع.

ويقول المؤلف في كتابه الذي صدر منذ أيام بعنوان «كائنات غريبة لم تعد كذلك» إن الكتاب المقدس فيه حكايات كثيرة وإشارات إلى هذه الكائنات، وأشهر ما في الكتاب المقدس ما رواه النبي حزقيال الذي رأى بعينه في مكان مدينة بغداد سفينة فضاء لها عجلات وضوضاء وأضواء قد نزل منها أناس لهم ملابس لامعة شفافة ووصف هذه السفينة صعودًا وهبوطًا بما يؤكد لنا أنها مثل سفن الفضاء الحالية.

كما جاء في «سفر التكوين – الإصحاح السادس» من العهد القديم ما معناه: أن أبناء الله قد أعجبتهم نساؤنا فاتخذوها زوجات لهم. فكان من نسلهم الجبابرة. أما أبناء الله هؤلاء، فهم هؤلاء الذين جاءوا من بعيد، واتخذوا من النساء زوجات لهم، واتخذوا من الرجال أزواجًا لهن، فكان لهم البنات والبنون. ويقول الشاعر الكبير بييتس إن هذه الكائنات شعارها: أعطني جسمك وخذ عقلي، ويقول العالم الكبير فرنسيس لريك الذي اكتشف الخلايا الوراثية، إن هذه الخلايا عمرها على الأرض أكثر من ألف مليون سنة، وإن هذه الخلايا قد جاءت إلينا ونفذت في أجسامنا من حضارة قديمة، أي من كائنات أخرى غيرنا.

يعني أننا لا نستطيع أن ننكر وجود هذه الكائنات، ولكن لا نستطيع أن نفهم لماذا هذه الرحلات الطويلة من أجل محطات قصيرة.

ولكن نومي: شيء عجب!

أنام هانئًا، ليس هذا رأيي ولا حتى أملي، إنه عنوان كتاب للدكتور عبد السلام نور الشريف. الكتاب دراسة ضافية للنوم وفوائده الجسمية والنفسية والعقلية. ومن لا يعرف النوم لا يعرف متعة من أعظم ما أعطانا الله، وفي الكتاب حكايات عن أشهر الذين عرفوا النوم الطويل والنوم العميق في التاريخ شرقًا وغربًا، وقصص الذين ينامون واقفين كالخيول والذين ينامون جالسين والذين ينامون فوق صهوة الخيول مثل نابليون.

والذين يتباهون بأنهم إذا وضعوا رءوسهم على المخدة وضع النوم تاج الصحة والعافية على أدمغتهم. وكان الفيلسوف الألماني «كنت» يقول شيئًا كهذا، ويقول إنه لم يغير عاداته في المشي والكتابة والنوم، فقد حسبها جدًّا: يأكل ما زنته كذا ويمشي ما طوله كذا وينام في ساعة محددة ويصحو في ساعة محددة ولم يحدث في كل حياته أن وقع اختلال في ساعات النوم واليقظة، وهي حالة نادرة كما أنه فيلسوف نادر أيضًا!

وهذا الكتاب أراه مساحة من العذاب لواحد مثلي، فلا أعرف شيئًا من كل هذه الأصناف من النوم والسعادة في النوم، ولو حاولت، وقد حاولت فلم أفلح.

هناك نظرية في الكتاب تقول: إن النوم على الجانب الأيسر له مـزايـاه. والـنـوم عـلـى الجانب الأيمن أيضًـا، والـنـوم في المجال المغناطيسي في اتجاه القطب الشمالي والجنوبي، والنوم بالقرب من موتور له مجال مغناطيسي كالثلاجة مثلاً، أو حتى أمام التليفزيون، وهناك النوم على الظهر والنوم على البطن، وكلها لها مزايا.

وقد ذكر الكتاب حكايات تاريخية للذين ينامون بهذه الصور، والمعنى أنه ما دامت لديك القدرة على النوم فلا يهم على أي جانب ولا كم عدد الساعات ليلاً أو نهارًا أو ليلاً ونهارًا.

وهذا الكتاب قد رفضني قارئًا من أول لحظة، فهو يفرض أن القارئ ينام طويلاً وعميقًا، وهذا ما لا أستطيع وما لم أستطع طول حياتي، ولكني مضيت في القراءة لكي أعرف، والذي عرفته لا يساعدني على إضافة دقيقة واحدة إلى حصتي من النوم، فحالتي عجب، فكل هذه الصور المختلفة من النوم التي توزعت بين الناس أستطيع أن أجمعها كلها في ليلة واحدة، على الجانب وعلى الظهر وعلى الصدر وبطول السرير وبعرضه واضعًا رأسي في القطب الشمالي والساقين في القطب الجنوبي وليس من الضروري أن يمر خط الاستواء أو مدار الجدي أو مدار السرطان في أي مكان من جسمي، وأحيانًا يخيل لي أنني أتحرك مثل البوصلة، أهتز وأدور بين كل خطوط الطول والعرض، أو أنني أستعرض كل أنواع النوم عند كل مخلوقات الله، وأحمد الله أنني أمارسها كل ليلة وأعتبر ذلك نومًا.

والله تمضي أيام وليال وأتساءل: هل حدث أنني نمت، لا أعرف، ولكن ضوء الشمس يؤكد لي أن النهار قد طلع وأن الليل انتهى، وكل ملليمتر في جسمي يقول لي: يا شيخ قم بلا نوم بلا قرف!

الأمير بدر يعرف أكثر؟

كتب كثيرة صدرت عن حياة الموسيقار محمد عبد الوهاب، فقد كانت له صلات عديدة ربما بكل الفنانين، فهو لا يكاد يعرف أن موهبة صاعدة حتى يستدعيها ويقول لها: سمعيني الحاجات الحلوة بتاعتك.

وجاء إليه كثيرون، ومع كل واحد حكاية ورواية، وعبد الوهاب ابن نكتة يضحك وينقل النكت، وصوته العادي جميل، وقدرته على الحكاية والإثارة والتشوق معروفة لنا جميعًا، وفي كل الكتب التي صدرت تجارب شخصية للمؤلفين، وكل واحد يتوهم في لحظة أن علاقته بعبد الوهاب فريدة، والحقيقة أن هذه قدرة عبد الوهاب في إقناع من يتحدث إليه بخصوصية هذه العلاقة، ولذلك كانت الكتب التي صدرت عنه لها مذاق عاطفي شخصي!

وهناك كثيرون ليست صناعتهم الكتابة، ولذلك يحتفظون بحكايات ونوادر مع عبد الوهاب.

وأكثر هؤلاء الأصدقاء الذين لم يسألهم المؤلفون والمؤرخون عن هذه العلاقة الشخصية – الأمير بدر بن عبد العزيز، إنه صديق للعائلة،

ويعرف من أسرار عبد الوهاب الكثير جدًا، أسرار تقال للصديق رفيع المستوى، وفي استطاعة الأمير بدر أن يحكي عن عبد الوهاب ليلة من أولها لآخرها. ويسمع منه حكايات لا تعرفها ولا تخطر لك على بال في حياته الخاصة، أكله وشربه ونومه ويقظته ومخاوفه ونوادره وفنه ورأيه في الفنانين، فقد قال له عبد الوهاب ما لم يقله لأحد، وأكثر من ذلك أن لدى الأمير بدر بن عبد العزيز تسجيلات نادرة لمحمد عبد الوهاب، مثلاً أغنية «من غير ليه» آخر روائع محمد عبد الوهاب لها تسجيل عند الأمير بصوت عبد الوهاب وبصوت عبد الحليم حافظ، فمحمد عبد الوهاب كان قد أعدَّ هذه الأغنية لعبد الحليم ثم غناها هو، والغريب أن الأغنية كانت بصوت عبد الوهاب وبلا موسيقى، فأضاف الموسيقى إلى الصوت فكانت هذه التحفة الفنية.

وأذكر أن محمد عبد الوهاب دعاني لأستمع إلى الأغنية قبل إذاعتها وقال لي: إنها ليست أغنية واحدة، وإنما عدة أغنيات، وقدمت لي زوجته السيدة نهلة القدسي الحلويات المصرية كالكعك والغريبة والبسكوت، وقلت لها: المثل يقول: بعد العيد يتْفَت الكعك، والعيد هو هذه الأغنية، وهي ألذ وأجمل وأروع من الكعك!

فإن كان في نيتك أن تضيف جديدًا لم يعرفه أحد عن عبقرية محمد عبد الوهاب، فعليك أن تدق باب الأمير بدر بن عبد العزيز.

اهرش ما استطعت وأنا أيضًا!

إذا كان من عادتك أن تهرش في أي مكان من وجهك أو رأسك أو ذراعيك فاجعل هذه عادة منظمة، مثلاً إذا كنت تكتب أو تقرأ ولسبب ليس واضحًا كان لابد أن تهرش في وجهك أو جبهتك أو تمسح كفيك بعضهما في بعض، فلا تتردد لحظة واحدة في أن تجعل هذه طقوسك اليومية، لماذا؟

أنت دون أن تدري تطبق تعاليم الشياتزو اليابانية، فهي رياضة يومية تساعد على تخفيف التوتر وتقوية الأعصاب أو إطلاق الدم في قنواته الصحية، فالشياتزو وهو اللمس المدروس، هو اللمس الصحي. فاللمس على طريقة الشياتزو مثل الوخز بالإبر عند الصينيين، والهدف واحد: وهو تحريك الدورة الدموية وتنشيطها. والفرق بين الذي تعمله أنت وأنا وما يفعله أطباء الطب الطبيعي في اليابان والصين أن لديهم خريطة للجسم الإنساني، وأن هناك نقاطًا للوثوب، فإذا أردت أن تبذل مجهودًا في الاتجاه الصحيح، فعليك باقتناء خريطة لهذه المراكز التي من الممكن أن تلمسها بأصابعك كل يوم لتشيع الحيوية في جسمك.

أذكر أنني رأيت في طائرة متجهة إلى اليابان، وكنَّا عند أطراف أحد الأعاصير، والطائرة تنشال وتنهبد وأكثر الركاب شجاعة هو

الذي ينظر من النافذة ليرى الرعب الأبيض والأسود، وكلنا مستسلمون تمامًا لهذا الرعب، ووجدت ورائي واحدًا يعلو ويهبط، ويعلو ويهبط، وأدهشني ذلك فنظرت ورائي وإذا بأحد الركاب يقوم بتدليك راكب آخر، في ظهره وعنقه.

وعندما ذهبت إلى سيول عاصمة كوريا الجنوبية لمشاهدة بروفات الدورة الأولمبية، كان لابد أن أقابل وزير الخارجية وذهبت قبل الموعد بعشر دقائق، وقالت لي السكرتيرة: سيادتك جئت مبكرًا كالطيور المبكرة، والوزير يستأذنك بضع دقائق، وطلبت شايًا أخضر، ويبدو أنه لم يكن في النية شيء من ذلك، وبعد دقيقة جاءت السكرتيرة تقول لي: سيادة الوزير في انتظارك، تفضل دخلت فلم أجد الوزير جالسًا إلى مكتبه، ولكن لاحظت أن رجلاً مهذبًا قد استأنف التدليك في العنق والكتفين والظهر والجنبين، وكان الوزير قد خلع البنطلون، وانكفأ هذا الطبيب المعالج بتدليك بطن الساق والقدمين والكتفين والركبتين.

وبعد نهاية الدقائق العشر نهض الوزير وقد ارتدى البنطلون والكرافتة وسوَّى شعره، وجلس إلى مكتبه وقد انحنى لتحيتي، وكأن الوزير لم يفعل شيئًا غريبًا، ولذلك لا اعتذر ولا شرح ماذا كان يفعل به الطبيب، وعرفت أنهم في آسيا كلها يمارسون الطب البديل، الوخز بالإبر، أو النقر بالأصابع على الأصابع أو اللمس المنظم (الشياتزو)، أي فوائد الهرش التلقائي الذي نمارسه نحن له أعظم فائدة مما نتصور.

فاهرش وأنت تقرأ.. وأنا أهرش وأنا أكتب!

سهل أن نقول إنها كائنات أخرى!

لاحظت أن الأضواء في شوارع مدينة لننجراد (سانت بطرسبورج) قد خفتت حتى تلاشت، وسألت، قالوا لي إن هذه المصابيح لها خاصية أن تضيء وحدها في الظلام وأن تنطفئ مع شروق الشمس أو ظهور الشمس وراء السحاب، أدهشني ذلك، وعندما عدت إلى مصر عرفت أن عندنا مصابيح من هذا النوع، وأن هذه المصابيح موجودة في بيوتنا أيضًا، على كل حال هي من اختراعات القرن العشرين.

ومنذ أيام وقعت عيني على سطور في كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) للمؤرخ المصري محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، وهو يتحدث عن أحد الملوك الذين حكموا مصر قبل طوفان نوح عليه السلام لسنوات قليلة، يقول: «ومن أعماله العجيبة أنه عمل منارة وعلى رأسها قبة من نحاس أصفر فكانت إذا دخل الليل أضاءت تلك القبة على أهل المدينة حتى تصير مثل النهار يمشي الناس في ضوئها إلى حوائجهم ولا يحتاجون إلى سراج، فإذا طلع النهار وأشرقت الشمس خمد ضوءها فلا تفسدها كثرة الأمطار ولا اختلاف الرياح، وعاش هذا الملك طويلاً وتزوج ثلاثمائة امرأة ولم يولد له ولد». قد تجد هذا الخبر خرافيًا تافهًا، ولكن مثل هذه الأخبار في كل الكتب القديمة

هي التي جعلت عددًا كبيرًا من العلماء يرى أن هذه الاختراعات لا يمكن أن تكون من إبداع الإنسان وإنما لكائنات غريبة هبطت إلى الأرض لأسباب لا نعرفها واختفت لأسباب أيضًا لا نعرفها.

فهيرودوت هو الذي حدثنا عن الأطباق الطائرة في سماء مدينة منف الفرعونية، رأى كرات من النار تظهر وتدور وتختفي.

وفي الهند وجدوا أعوادًا من الذهب الخالص وأثبت التحليل أن هذه الأعواد لا يمكن أن تكون هكذا ناعمة إلا إذا صهرت في درجة حرارة بالألوف، فكيف؟

وفي متحف (طوب كابي) في إسطنبول خريطة قديمة للقطب الجنوبي، الخريطة من الجو، وبدراسة الهيئة التي كان عليها القطب الجنوبي يحدد العلماء عمر هذه الخريطة بثلاثين ألف سنة، كيف؟

وعلى حدود ليبيا والجزائر توجد منطقة تسيلي وفي كهوفها رسومات لحيوانات تطير في الهواء وأناس على رءوسهم خوذات كالتي يضعها رواد الفضاء وأمامهم تابلوهات كأنها لطائرة أو لسفينة فضاء، وبتحليل هذه الرسومات وجدوا أن عمرها لا يقل عن عشرين ألف سنة، كيف؟

مثل هذه الأحداث والاختراعات هي التي فتحت باب الاحتمال والخيال على مصراعيه، وأسهل إجابة أن نقول: إنها كائنات أخرى عاقلة!

عار علينا ألا يجد العقاد طعامًا!

أوقع وأوجع وأوقح ما قرأت في عام 2005، أما أوقح فهو الذي نشرته صحيفة صنداي تايمز البريطانية، فقد نشرت سطورًا جاءت في كتاب صدر أخيرًا للكاتب البلغاري الألماني البريطاني إلياس كانتي (1905 – 1994) الحائز على جائزة نوبل في الأدب، يحكي عن علاقته الجنسية بالكاتبة البريطانية العظيمة إيريس مردوخ!

قال إنه قابلها في محطة السكك الحديدية في لندن، وكانت منكوشة الشعر ومبهدلة المظهر الخارجي، حدثها، اقتادها إلى بيته وفوجئ بأنها تجردت من ملابسها دون أن يدعوها إلى ذلك. طبعًا لم يكن هناك أي داع لإهانة وتجريح كاتبة كبيرة التقت به.

وقد وصفت الصحف البريطانية هذا الموقف اللاأخلاقي، بأنه أقذر وأوقح ما كتبه كاتب عن كاتبة!

وكان في استطاعته أن يشير إلى اسمها بالحروف الأولى، ولكنه أشار إليها بالاسم كاملاً، مع أنها لا هي جميلة ولا هي سيدة مثيرة، وإنما هو أراد فقط أن يفضح هذه السيدة العظيمة الاحترام!

أما أوجع ما كتب أديب وشاعر عظيم ومفكر فهو ما جاء في مذكرات المحامي المصري لطفي جمعة، فقد نشر كثيرًا من الرسائل

التي تلقاها وكان أقساها على النفس إيلامًا رسالة الأستاذ الكبير عباس العقاد إلى صديقه لطفي جمعة.

يقول الأستاذ العقاد إنه لا يجد طعام يومه، وإنه قد طلب من كثيرين أن يعينوه على الزمان، ولكنهم تهربوا ولم يفعلوا شيئًا، وهو يرجو صديقه لطفي جمعة ألا يكون مثلهم، وألا يبطئ في مساعدته، فإنه لا يعرف كيف ينهي يومه وليله!

ولو شاء العقاد لكان عنده مال كثير، ولكنه لم يشأ، فعندما مرض الأستاذ العقاد، طلب منه الأخوان مصطفى أمين وعلي أمين صاحبا (أخبار اليوم) أن يكتبا رسالة تصبح تاريخية يطلبان فيها من العقاد أن يكتب بانتظام لأخبار اليوم وللأخبار، وأن هذا شرف لنا جميعًا، وأن يتقاضى مرتبًا لسنة مقدمًا أو لستة أشهر أو لشهر واحد – كما يريد!

ووافق العقاد على الكتابة. ولكنه رفض أن يتقاضى أي أجر مقدمًا!

ولما زاره إبراهيم باشا عبد الهادي، ترك مبلغًا من المال تحت الغطاء عند قدمي العقاد، فلما مدَّ العقاد رجليه تساقطت المئات، فنادى سكرتيره ابن أخيه عامر العقاد أن يلحق بالباشا ويرد إليه هذا المبلغ الكبير، وكان الأستاذ عضوًا في المجلس الأعلى للثقافة والمجمع اللغوي، وكان يحضر الجلسات الرسمية أما الجلسات الإضافية التي يتقاضى عنها أجرًا، فلا يحضرها على خلاف طه حسين والحكيم والمازني! وبعد وفاة العقاد وجدنا في أوراقه أسماء عشر عائلات يساعدها العقاد، الذي لا يملك قوت يومه، فكيف لا يكون فقيرًا ما دام كريمًا على نفسه وعلى الناس؟!

يا مليارات الأرض موتوا بغازنا!

الكرة الأرضية في هذا العام كانت أكثر حرارة، أرضها وجوُّها ومياه المحيط أيضًا، وذوبان الجليد في القطبين الجنوبي والشمالي، والذوبان يرفع الحرارة ويطلق غازات جديدة، ويرفع مستوى المياه في المحيط. وفي العشرين عامًا القادمة أو الخمسين سوف تكون مياه البحار خطرًا على الأراضي المنخفضة في كوكب الأرض، مثل السويد والنرويج وبنجلاديش ودلتا نهر النيل وألوف الجزر الصغيرة، وسوف تؤدي إلى هبوب الأعاصير، وسوف يغرق بيتنا الذي هو أول بيت مطل على البحر الأبيض في شمال إفريقيا!

والذي حدث ليس مفاجأة، فمن نتيجة انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون من كل المصانع والأفران والغابات المحترقة تشكل ستار كثيف يحبس حرارة الأرض فوقنا، ولما التقت الدول في مدينة كيوتو اليابانية لتتفق على إنقاص الغازات المنبعثة، رفضت أمريكا أن توقع على هذه الاتفاقية الخاصة بتقليل الغاز ولتوقيع عقوبات على المخالفين. وفي بريطانيا أعلن العلماء أن الاحتباس الحراري أخطر على البشرية من أسلحة الدمار الشامل الذي تحاربه أمريكا، تحاربه من هنا وتحرص عليه من ناحية أخرى.

والسؤال: ما الذي يمكن عمله بهذه الغازات المنبعثة من المصانع والورش والغابات؟ هناك حلول. هذه الحلول لم نتأكد من سلامتها علميًّا، ففي الصرف الصحي- أي تصريف مخلفات الإنسان المنزلية في البحر، أو في البر أو تدويرها كيماويًّا وجعلها صالحة لري الحدائق وتسميد الأشجار - مع الأسف كل المدن المطلة على البحر الأبيض تصرف مخلفاتها في البحر، حتى أصبح البحر المتوسط أقذر بحيرة مغلقة في كوكب الأرض، فالماء ملوث والأسماك أيضًا.

أما بالنسبة للغازات، فهناك حلول مشابهة وذلك بأن نضخ الغازات في المحيطات، وتكون هذه الغازات سببًا في حمضية البحار والمحيطات وقد تقضي على الحياة الحيوانية والنباتية، أو تخزين هذه الغازات في مناجم الفحم المهجورة أو في الكهوف البعيدة، وتقوم كندا الآن بتجربة تخزين الغازات السامة في الكهوف الجليدية وتحت صحاريها القطبية، ولا أحد يعرف متى تنجح هذه التجارب، ما دامت أمريكا التي خنقت الدنيا بغازاتها تحرص على رواج سلعتها وخراب الدنيا، ولا يزال الرؤساء الأمريكان واحدًا وراء واحد متمسكين بكلمة «لا» لكل مطالب الشعوب التي تشرب السم وتذوق المر بسبب ما تبثه أمريكا في جو الأرض.

وأمريكا تعرف أن الطوفان المائي تسونامي والأعاصير كاترينا وأخواتها كلها بسبب واحد: ارتفاع حرارة الأرض والجو والماء بسبب الظاهرة القاتلة: الاحتباس الحراري الذي يهدد المليارات الستة من سكان العالم!

قابلني بعد 9 سنوات!

بعد تسع سنوات قررت أمريكا أنها سوف تبني قرية فوق القمر، ومن هذه القرية قررت أن تنطلق إلى الكواكب الأخرى.

وأكبر رحلاتها طموحًا هي إلى كوكب بلوتو أبعد الكواكب في المجموعة الشمسية، وبلوتو يبعد عن الشمس خمسة آلاف وثمانمائة مليون كيلومتر، وهو بطيء الحركة يدور حول نفسه مرة كل ستة أيام. أما دورته حول الشمس فمرة كل 248 عامًا، ودرجة حرارته 233 درجة مئوية تحت الصفر. وهذا الكوكب جليدي، ولذلك يسمونه القزم الجليدي. وسفينة الفضاء تحتاج إلى 9 سنوات لكي تبلغه وتدور حوله.

ونحن نعرف أن الكواكب، إما حجرية وإما غازية، الحجرية هي: الأرض وعطارد والمريخ، والغازية هي المشتري وزحل ونبتون وأورانوس. ولكن بلوتو هو الوحيد الحجري والغازي معًا.

وفي العام الماضي اكتشف العلماء قمرين صغيرين يدوران حول بلوتو، أما القمر الذي اكتشفه العلماء من 75 عامًا فهو شارون.

وهناك خلافات بين العلماء؛ هل بلوتو كوكب، أو أنه من النيازك لأنه صغير بين الكواكب في الحجم، وهو غريب فهو يدور عكس عقارب الساعة، أي عكس كل الكواكب الأخرى؟

ومن المعروف أن هناك حزامًا كثيفًا من النيازك يدور حول الشمس ويخترق معه مجالات بعض الكواكب الأخرى، هذا الحزام اسمه «حزام لويبر» وهذا الحزام يضم ألوف الأحجار الضخمة بعضها يصل قطره إلى مئات الكيلو مترات، ومن هذا الحزام الدوار حول الشمس، ومن ملايين السنين تتساقط النيازك على الأرض وعلى الكواكب الأخرى، ومن هذا الحزام انتقلت إلينا الحياة في صورها البدائية لأن هذا الحزام يحتوي على مخلفات نشأة الكون من حوالي 14 ألف مليون سنة، وهذه الأحجار هي الآثار التاريخية التي تحدثنا عن كيف كان الكون عند نشأته، أو بعد نشأته ببضع ثوان، إنها مثل حجر رشيد الذي سوف يفك لنا طلاسم الكون، كيف يصير، وكيف يمضي من حيث لا نعرف إلى حيث لا نعرف؟

موعدنا بعد تسع سنوات!

هات لك رئيس جمهورية غيري!

أتعجب كثيرًا للذين إذا أكلوا أو شربوا لم تتسخ ملابسهم ولا أيديهم، وأتعجب من الذين يضعون الفوطة على صدورهم، حتى لا تسقط فتافيت الطعام ونثار الشراب على ملابسهم، فأنا لا أستطيع أن أحمي نفسي من الطعام والشراب، وكل ملابسي تتسخ بعد وجبة واحدة، وأندهش كيف أنني لا أستطيع ذلك ولا انتهت دهشتي للناس ولا تعجبي لحالي، وقد حاولت ولا أعرف رغم ذلك يحدث لي ما يحدث.

وفي يوم دعوت العالم المصري د. فاروق الباز للغداء واشترطت عليه، وكان الشرط أن يجعل الطعام والشراب يسقط على ملابسه، مثلي تمامًا. فزوجتي ترى أنني الوحيد أو واحد من عدد قليل من الناس تتلوث أيديهم وملابسهم بعد كل وجبة، ووافق فاروق الباز وأوصيته وشرحت له الطريقة، وكان يستمع بعناية شديدة، كأن الذي سوف يفعله أصعب من مهمته في هيئة الفضاء الأمريكية، حين يحدد للرواد مواقع الهبوط على القمر والعودة إلى الأرض.

وجاء فاروق الباز وقدمت له الطعام وأعدت الكلام عليه، وهزَّ رأسه موافقًا لسهولة المهمة، وانشغلت عنه بالضيوف الآخرين وأنا على يقين من أنه سوف يضرب مثلاً في سقوط الطعام على ملابسه،

وهكذا لا أكون أنا وحدي في هذه الدنيا، الذي لم يفلح في أن ينجو سالمًا نظيفًا بعد كل وجبة.

وفوجئت بأن فاروق أكل وشرب وحمد الله واتجه إلى المطبخ، كما يفعل في بيته في أمريكا، وغسل الأطباق والشوك والسكاكين، ووضعها بمنتهى العناية في مكانها بمنتهى الدقة! وردًّا على تساؤلي قال: يا أخي لا أستطيع.

ورغم حرصي على الغداء والعشاء مع الرئيس السادات لأنه شخصية مسلية وممتعة ويحكي الحكايات والقضايا السياسية ويشرح ويقرر، فإنني أتضايق كثيرًا لما يفعله الرئيس، فعلى الرغم من اندماجه في الكلام وحماسه، فإنه يسحب مقعده إلى الوراء وينحني على الأرض يجمع الفتات التي تساقطت مني ويجمعها ويلقي بها في سلة المهملات من دون أن يتوقف عن الكلام، وأشعر بالحرج الشديد وأنا أيضًا أقول وأعلق على ما يقول، وفجأة ينسحب الرئيس بمقعده إلى الوراء وينحني على الأرض يجمع الفتافيت أو يمسح الأرض بورقة، إنه اعتاد على أن يكون منظمًا جدًّا وعلى النظافة.

وفي إحدى المرات، أنا زودتها ونظر السادات إلى الأرض وقال: الله جرى إيه يا أنيس.. لا.. لا.. هات لك رئيس جمهورية غيري! هاها!

ثم يقول: وأنت صغير مش قالوا لك لازمك تغسل إيديك قبل الأكل وبعده!

– أيوه يا ريس.

– طيب واحنا نضربك بالعصا قبل الأكل وبعده.. هاها!

ليس كل ما يلمع ذهبًا!

بعض المؤرخين رأى أن الفراعنة سفهاء في استخدام الذهب في التابوت والنعش والمقبرة، وأنهم بذلك يبددون أموال الشعب على نزواتهم، والعبارة ظالمة فالموت ليس عبثًا والتحنيط والدفن والجنازة ومراكب الشمس في طريقها إلى العالم الآخر ليس عبثًا، وإنما كل هذا إعداد من أجل الحياة الأخرى، أي ليس إلا طقوسًا جادَّة مقدسة عظيمة الاحترام.

ويوم رأت الدنيا مقبرة الملك الشاب توت عنخ آمون، باهرة مضيئة بالذهب وبالفن الجميل وكيف برع الفنانون في بناء المقبرة ومحتوياتها بالألوف، ربما لم تكن للملك الشاب قيمة تاريخية أو دور تاريخي، وإنما اكتسب هذا الشاب شهرة عالمية بسبب المقبرة الكاملة الأوصاف وما احتوت عليه من الفنون الفرعونية وكيف أنها رغم ثلاثة آلاف سنة، جديدة مثيرة ومحيرة أيضًا.

وفي السنوات الماضية اكتشف العالم الأثري الدكتور زاهي حواس مقابر لمومياوات ذهبية، وكان العلماء الألمان يرفعون معابد وتماثيل «أبو سمبل» إلى سطح الأرض، وكانت قبل ذلك تطل على النيل، قبل بناء السد العالي، فلما أقمنا السد العالي ارتفعت المياه،

وخوفًا على تماثيل الملك رمسيس، جاء الألمان ونقلوا المعبد والتماثيل قطعة قطعة إلى أعلى، وقد أفلح الألمان في تحقيق هذه المعجزة المعمارية ولا نملك إلا الإعجاب بهذا الإنجاز العلمي الجبار!

ثم اكتشف الألمان أن الفراعنة لم يستخدموا الذهب في معظم مخلفاتهم.. لا الذهب الأصفر المخلوط بالنحاس ولا الأبيض المخلوط بالزنك، ففي مقبرة توت عنخ آمون توجد لوحة من الذهب الرقيق جدًّا، أي الذي طرقوه حتى صار رقيقًا جدًّا، وعلى هذه اللوحة أو على هذه الورقة الذهبية رسموا تمثال الإلهة سركت أروع لوحة من ذهب في كل العصور، أما الذي استخدمه الفراعنة في تلوين الآثار الخشبية فهو الحلبة الخضراء وذلك بأن جعلوها تغلي في الماء ثم تتحول إلى عجينة ذهبية خضراء. هذه (الحلبة) هي المصدر الرئيسي للألوان الذهبية في المخلفات الفرعونية، وحبات الحلبة المغلية أو العجينة الصفراء الجميلة لها لون ثابت تمامًا لا تستطيع أن تزيله من القماش أو من الخشب، وأحيانًا يخلطون الذهب بعجينة الحلبة!

ولكن الفراعنة لم يقولوا لنا كيف استطاعوا أن يخلطوا الذهب بالمعادن الأخرى ليكون أشكالاً وألوانًا، وليس هذا هو السر الوحيد الذي احتفظوا به، فالذي لا نعرفه عنهم لا يزال كثيرًا!

نعم رأيت أشباحًا كثيرة!

هذا مجرد اجتهاد..

هل هناك أشباح؟ أنا شخصيًا أقول هناك.

سؤال: هل رأيت؟ الجواب: نعم.

فما هذه الأشباح؟ أنا لا أعرف.. لكن كما أن هناك ميكروبات وجراثيم وبكتيريا لا نراها بالعين المجردة، فهناك كائنات أخرى: ملائكة.. شياطين وعفاريت.. وأشباح.

أما الملائكة فلم نرها، وإذا كان الأنبياء عليهم السلام قد رأوها، فهذه حالة خاصة، ولكن الكتب السماوية كلها تتحدث عنها. إذن هي موجودة.

أما الأشباح، فالذين رأوها كان ذلك ليلاً، لم يرها أحد نهارًا، إذن هي لها علاقة بالليل وشيء من الخوف، والذين لا يعترفون بوجودها ولا يخافون إن وجدوها فلن يروها. فكأنها لا تظهر إلا للذين يخافونها. أو بعبارة أخرى: يراها من يخافها. والمثل الشعبي يقول: اللي يخاف من العفريت يطلع له. وهذا صحيح.. لماذا؟ أنا أقول لك. وهذا اجتهاد أقنعني إلى أن يثبت العكس، فأنا لا أتمسك به إلا مؤقتًا.

أقول بعبارة أوضح: عندما نخاف.. أو نغضب أو عندما ننفعل فإن مادة الأدرينالين التي تفرزها الغدة فوق الكلية تجعلنا أكثر حيوية وأكثر نشاطًا، وتشيع فينا القوة والإحساس المرهف.. والذي لا يستطيع أن يجري نراه يقفز بسبب الخوف. أو تتفجر فيه الحيوية فجأة، فيكون أقدر على الرؤية وعلى الاستماع.. فيرى ما لا يراه بعينه في ظروفه العادية، ويسمع ما لا تستطيع أذنه أن تدركه قبل الأدرينالين.. وربما رؤية الأشباح بسبب الخوف.. وربما تكون هذه الأشباح قد ظهرت بصور أخرى لغيري من الناس..

لي صديق مهندس إلكتروني له أب قسيس يفهم ويمارس السحر – هو الذي يقول – وعنده أدلة كثيرة على ذلك، قال إنه رأى هذه الأشباح على شكل أرانب وقطط وطيور. وأنا لا أستبعد ذلك!

وفي العام الماضي بعث لي الفنان المصري الكبير حسين فهمي ممثلة بريطانية قائلاً: إنها تريد أن تجلس إليك، تسمع منها وتسمع منك.

وجاءت الفنانة البريطانية وحكت قصصًا كثيرة عن أشباح تعيش معها في بيتها، وفي كل ليلة تسمع أصواتهم يأكلون ويشربون وتسمع همهمة وغمغمة. وتقول إنها اعتادت على ذلك.. فكيف؟ وهي لم تعد تخاف من هذه الأشباح فقالت لي: بل اعتدت على الخوف، فاعتدت أيضًا على سماع ورؤية ما لا يقدر غيري على أن يراه!

وكل هذا ظن.. وبعض الظن إثم!

عندما لا أجد ما أكتبه!

لم أجد شيئًا أكتبه؛ فقد وصلنا متأخرين إلى مدينة طشقند. الأرض مغطاة بالجليد. والناس لهم وجوه لا تستطيع أن تقرأ ما عليها.. أو لا شيء منها أو عليها يمكن قراءته. فلهم نظرات محايدة.. ونظراتهم تتخطاك إلى ما وراءك.. أو شيء آخر إلا أنت، فهم لا يريدونك أو ليسوا في حاجة إليك.. أو أنك سائح مثل كثيرين. أو أنت روسي وهم لا يحبون الروس. الفندق بارد.. وتوجد بعض التدفئة لها رائحة. ليست رائحة الفحم أو الخشب. وإنما رائحة كريهة. ولا أحد تستطيع أن تسأله أو إذا سألته أن تتوقع منه إجابة. وفجأة ظهر شاب، في يده ورقة، وسألني فقلت له: نعم أنا.. وأضحكنا كلامه فهو لا يعرف إلا الأفعال في اللغة الإنجليزية. مثلا يريد أن يقول: هيا نخرج نتفرج على المدينة والمتاحف والمساجد فيقولها هكذا: خروج، متاحف، عودة، أكل، نوم، عودة، أوبرا. ولكن كنت أفهم ما يريد. وكنت أتكلم مثله لكي يفهمني، ومضت أيام ونحن نقول كلامًا غريبًا مفهومًا.

وقال لي: مسلم؟ وسألني: أنت تصلي؟ فقلت: نعم..

– كم مرة في اليوم؟

– خمس مرات.

– كل يوم؟

– نعم..

– إذن أنت لا تعمل؟! قلت: إن الصلاة لا تستغرق وقتًا طويلاً.

وفجأة وجدت في الفندق لافتة مكتوبًا عليها: عيادة طبية. دخلت ووجدت الطبيبة، قلت لها: بطني من هنا. ومغص. ووخز من هنا وصداع وتمزق. وأعلى العمود الفقري.. وطلبت مني الطبيبة الروسية أن أجلس ونظرت لي تتفحصني. سألتني: وإيه كمان؟ قلت: أليس هذا يكفي؟

ودون أن يبدو عليها أي اندهاش أو قلق، وإنما وجهها أبيض كالثلج وعيناها زرقاوان لامعتان. مدت يدها إلى داخل درج وأخرجت ورقة وفتحتها وأعطتني قرصًا أبيض. وقالت: سوف تكون أحسن غدًا..

شكرًا. غريبة! لا طلبت مني أن أخرج لساني وأقول آه.. ولا قاست الضغط وضربات القلب ولا طلبت مني أن آكل أو أشرب أو أمتنع عن الطعام، حتى أراها في اليوم التالي. وفي اليوم التالي ذهبت إليها وقلت: اليوم أنا أحسن. وسألتها عن هذا القرص السحري.. فقالت هو مادة نشوية.. يعني ليس دواء؟! لا.. لأنه لم يكن عندك مرض.. أليس كذلك؟ قلت:.. سألت: ولكن لماذا؟ قلت: ليس عندي موضوع أكتبه. والآن.. سوف أكتب. شكرًا!

إلا الهوان على الناس!

ليس أقسى على النفس من أن تشعر بالهوان.. أي أن تهون على نفسك وعلى الناس. أي بأن تكون شيئًا ضئيلاً.. تصغر حتى تصبح لا شيء!

وعندما خرج الرسول، عليه الصلاة والسلام، من الطائف، كان دعاؤه: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس.

والشاعر يقول:

عرضنا أنفسًا عزَّت علينا عليكم فاستخفَّ بها الهوان

ولو أنا منعناها لعزَّت ولكن كل معروض مهان!

وعندما كانت أم كلثوم تجمع التبرعات من الذهب والفضة والماس، للمساعدة في المجهود الحربي، طلبت مني عبارة أو كلمة لكي تجعلها شعارًا لمجهودها.. أو لتضعها على خطابات تبعث بها إلى المواطنين. وجاءتها اقتراحات كثيرة، فأعجبها اقتراحي. فقد اخترت لها بعض بيت من الشعر تغنيه هي ليلاً ونهارًا. الشعار هو «نفنى ولا نهون»، وهو جزء من نصف بيت: نفنى ولا نهون إنا فدائيون!

نختار الموت ولا نختار أن نهون على الناس.. لا وزن ولا قيمة ولا أمل لنا أو فينا.. فالموت أفضل وأرحم من الهوان! قالت لي أم كلثوم: إنها ذهبت مع والدها إلى قصر أحد الباشوات. والباشا يتكلم ويقول ويحكم على المطربين وعلى الشعراء. وكان في حكمه قاسيًا. ولكن الكلام يدور بين والدها والباشا، ولا أحد ينظر إليها أو يتوقع أن تفتح فمها، مع أن اللقاء بهدف دعوة أم كلثوم التي تفتح فمها بالغناء الجميل.

وشعرت أم كلثوم بالحرج. ولكن في مثل سنها وموقعها الصغير في بداية حياتها، يجعل من الصعب عليها أن تقول أي شيء.. فهي دون ذلك كثيرًا. والنظرات تتخطاها ذهابًا وإيابًا، كأنها ليست موجودة.. كأنها شبح.. وحاولت أن تقول، فلم تستطع.

ونهضت أم كلثوم غاضبة وكانت لها حقيبة صغيرة، فسحبتها ووقفت تلتفت إلى الباشا ووالدها بأنها سوف تخرج. والتفت الباشا وسأل والدها: إلى أين يا ثومة؟ فقالت أم كلثوم بسرعة.. أبحث عن سلة مهملات. لماذا؟ لكي أضع فيها رأسي وأقول رأيي..

وضحك الباشا وأبوها. وكان ذلك أول رد فعلي ورد اعتبار، واعتراف بأنها موجودة!

تحت الميكروسكوب ماذا ترى؟!

أما أفكارنا فهي متشابهة في السياسة والحياة والدين.. ولكن أجسامنا مختلفة، فالجسد شخصي والفكر عام.. والجلد مختلف من شخص إلى شخص، ولكننا تحت الجلد سواء. وتحت الجلد كل الوظائف العضوية.. وأفكارنا وهمومنا.

وتقول: إنه لا يعيش تحت جلدي إلا أنا. أنا فقط، ولكن في دماغي كل تجارب الحياة والناس والماضي والمستقبل والحضارات الإنسانية وبعض وجهات نظري..

والعبارة صحيحة، ولكنها ليست دقيقة. فليس صحيحًا أنك وحدك تعيش في جلدك.. تحته. وإنما هناك ألوف ملايين الكائنات الصغيرة تعيش فوق الجلد وتحته.. والجلد هو أكبر أعضاء الجسم الإنساني وأكثرها تجددًا. فعلى الجسم الإنساني يعيش ألف مليون من البكتيريا.. وهذه البكتيريا أشكال وألوان وأحجام وعائلات.. وهناك بكتيريا فوق الجلد وبكتريا حول الفتحات والمخارج وفي الأمعاء تساعد على تجديد الدم وتساعد على الصحة وعلى المرض.. والجزيئات التي تسقط من الجسم الإنساني لا أول لها ولا آخر.. بل إن ألوف الملايين

من البكتيريا وغيرها من الكائنات المجهرية هي جزء من تلوث الهواء. الهواء يلوثه ستة آلاف مليون إنسان.. ولكننا لا نشعر بذلك!

كنت في زيارة أحد أقاربي في هويستون ودعاني للفرجة على الأجهزة الطبية الحديثة.. وطلب مني أن أضع إصبعي تحت الميكروسكوب الإلكتروني وأن أنظر إلى الشاشة على الحائط.. أما الذي رأيته فلا أعرف كيف أصفه لك.. ولكن لنفرض أنك اخترت أكبر ميدان في بلدك.. والميدان فيه كل السكان والسيارات والعربات والطائرات والصواريخ والدبابات كلها في وقت واحد وكلها تتحرك في كل الاتجاهات وتتضارب وبعضها يتلاشى.. ولو فرضنا أن لكل منها صوتًا صارخًا. كل ذلك يتحرك ويصرخ في لحظة واحدة وفي مساحة لا تزيد على متر مربع، هذه المساحة الصغيرة جزء من أحد أصابعك.. أما هذه الحشود فهي البكتيريا!

ثم اقترح صديقي أن يجرح إصبعي وأن يضعه تحت الميكروسكوب الإلكتروني.. أما الذي رأيته فلا عين رأت ولا أذن سمعت.. ما هذا الذي في الدم؟ ما هذه الجيوش؟ ما هذه المعارك؟ أين الحياة والموت في هذا الذي رأيت؟! إن الذي يجري حول بقعة دم، لا شبيه له في كل المعارك الحربية في كل العصور.. سبحان الله!

فلاح يعيش في أغاني عبد الوهاب؟!

عبد الوهاب يغني ويقول: محلاها عيشة الفلاح.. نايم مرتاح.. إلى آخر الأغنية. هذا هو الزمن الجميل. أما الآن فلا أعرف أين يوجد هذا الفلاح.. فلا أتعس ولا ألعن من حياة الفلاح ولا أشقى من الريف المصري.. زمان كنا نهرب من المدينة إلى الريف.. أما الآن فالهرب إلى الريف (كالمستجير من الرمضاء بالنار).. عبد الوهاب يقول: الشمس طلعت، نامت وصحيت.. وانا اللي طول الليل سهران.

والشاعر محمود حسن إسماعيل يقول:

مات النهار وهذي الشمس جازعة

عليـه حمراء في دامـي الجـلابيـب

اختفى هذا الريف الذي كان يغني له ويتغنى به محمد عبد الوهاب. فلا الفلاح مرتاح ولا نحن، والأرض لم تعد خضراء و(الخيمة الزرقاء) التي يرددها عبد الوهاب، يقصد السماء الزرقاء لم نعد نرى السماء ولا اللون الأزرق.. وإنما السحب السوداء والتراب والهباب.. وحاجز الصوت، أي ضوضاء الميكروفونات طول الليل والنهار.. طبل هنا وبكاء هناك ونصائح ومواعظ لا أول لها ولا آخر ولا معنى.. ولا أحد يجرؤ على أن يقول: «بمْ» لهذه التلوثات من الصوت والصدى والهباب والتراب والسحاب.

أذكر أن الرئيس السادات استدعاني ليلا، وكان الرئيس وحده، ولكن في الطريق إلى استراحة الرئيس في القناطر الخيرية كنت أخوض في كورس فظيع من نقيق الضفادع وشواظ من نار الميكروفونات. وقلت للرئيس: إنت عايش هنا ازَّاي يا ريس؟ قال مستنكرًا: جرى لك إيه.. إنت ناسي إنيٍّ فلاح!

يعني لا فائدة من الكلام، ولا أمل في أن يصدر أي تحذير أو تنبيه الناس إن يرحموا من في الأرض فلن يرحمهم من في السماء.

وتمضي الليالى ولا شيء يهدأ ولا شيء يسكت ولا أمل.. وأطارد الشمس من غروبها إلى شروقها بعيون أكثر احمرارًا من الغسق والشفق.. ولم أعد أضع يدي على رأسي أتلمس ألمًا أو صداعًا.. فالدنيا كلها هي الألم وهي الصداع وهي اليأس من أي حل أو مخرج أو نية عند أحد. والذي لا يعجبه الريف فليذهب إلى المدينة والذي لا تعجبه المدينة فليذهب إلى المقابر وشيء غريب. في كل مرة أزور قبر أمي لأقرأ لها الفاتحة. أجد الهواء الصافي والهدوء الأبدي.. وأحسد الموتى على ما هم فيه، ولكن أحسد (الحانوطي) الذي يعيش حيًّا سعيدًا بين الأموات.. لا عنده ألم ولا دمعة في عين.. فقد اعتاد كالأطباء على أوجاع الناس.

ولم يتنبه الموسيقار محمد عبد الوهاب ومؤلفو أغانيه إلى أن هناك رجلاً سعيدًا آخر غير الفلاح هو الحانوطي..

والأطباء يقولون إن كل الأطعمة مثل كل الأدوية ضارة.. إذن كلنا نعمل في مهمة واحدة.. أن يدفن بعضنا البعض!

وراء الناجحين حب فاشل!

رفضوا حاضرهم؛ لأنهم لا يعرفون مستقبلهم، ولو عرفوا ما رفضوا، فالشاب تشرشل أحب فتاة من النبلاء، بعث إليها بعشرات الخطابات، فلم ترد. بعث إليها من يقول إنه يريدها زوجة، فاعتذرت، وأخيرًا عرض أحفاد هذه النبيلة رسائل تشرشل إليها في مزاد علني، فاشترى أحفاد تشرشل هذه الرسائل الغرامية العنيفة.

الضابط عبد الناصر تقدم لفتاة فاعتذر أهلها، وكذلك الضابط معمر القذافي.

والشيخ سعد زغلول، الذي صار زعيم مصر بعد ذلك. كان طالبًا في الأزهر، وكان مثل غيره من الطلبة، يجلسون على الرصيف يتطلعون إلى الفتيات. ولكنه كان عف اللسان (عفيف القلب)، كما يقول الباحث الكبير د. زكي مبارك.. فلك النظرة الأولى وعليك الثانية.

وفي يوم نظر من النافذة فوجد جارته جميلة، فاكتفى بالنظرة الأولى. وتحرك القلب والتهب، والحديث الشريف يقول «من أحب فعف فكتم مات شهيدًا». وتقدم الشيخ سعد زغلول يطلب يد الحسناء، فاعتذر أبوها دون حاجة إلى إبداء الأسباب. فأين الشيخ سعد من أبيها الغني، صاحب الحسب والنسب. ولم يطق سعد زغلول صبرًا فترك حي الأزهر، وعمل محاميًا، وخلع الجبة والقفطان والعمامة وصار

الأفوكاتو سعد زغلول أفندي، وتقدم لبنت مصطفى باشا فهمي رئيس الوزراء. ووافق الباشا وكانت زوجته هي (صفية زغلول) أم المصريين، وصعد زغلول في السياسة، وأقيمت له الحفلات والاحتفالات. وتشاء الصدفة أن الرجل الذي رفض الشيخ سعد زغلول زوجًا لبنته يقيم لسعد زغلول باشا حفلاً بمناسبة عودته من أوروبا.

وقال الذين عرفوا غرام سعد باشا إن الرجل كان مهمومًا، وكان يتمنى أن يرى المحبوبة وحدها أو مع زوجها، وكان يتلفت يمينًا وشمالاً، ولم يكن سعيدًا تمامًا بحفاوة الأب الذي نسي أنه رفضه، ولكن الباشا لم ينس، ويقول الذين شاهدوه في تلك الليلة إن دمعتين نزلتا من هنا ومن هناك من عيني الباشا سعد حزنًا على الشيخ سعد..

يقول أستاذنا توفيق الحكيم إن د. طه حسين لم ينس حبه الأول! ويقول الشاعر كامل الشناوي إن توفيق الحكيم لم ينس حبه الأول. وأقول أنا إن كامل الشناوي لم ينس حبه الأول والحقيقي لإحدى المدرسات التي كان يبعث معنا إليها خطابات وورودًا..

وكان لأستاذنا الفيلسوف د. عبد الرحمن بدوي حب وحيد، وكان حريصًا على كتمانه، ولكنه في آخر أيامه وضع هذا الحب عن قلبه، وقال رغم تعدد الغراميات في حياته هنا وفي باريس إلا أن هذا هو الحب الأول والأخير.

وقال الصحفي الكبير مصطفى أمين إن سعد باشا زغلول قد وضع لافتة في مكتبه عندما كان محاميًا، وعلى هذه اللافتة بيت شعر غريب، ولكن معناه في أعماق سعد زغلول يقول بيت الشعر:

وإذا دعيت إلى تناسي عهدكم ألفيتُ أحشائي بذاك حشاها

إذن هو أيضًا لم ينس!

آخر أمنيات الثلاثة الكبار!

وأستاذنا عباس العقاد على فراش الموت قال لنا: كنت أتمنى أن أشرح القرآن الكريم شرحًا عصريًّا، وأبدأ بسورة الرحمن..

وسارعت إلى وزير الإعلام في ذلك الوقت د. عبد القادر حاتم، ولكن أستاذنا العقاد كان قد تخطَّى عتبة العافية، ولم يعد قادرًا على جهد الشرح وعذاب الاجتهاد وفن التفسير..

وعندما ذهبت مع الفنان الكبير صلاح طاهر لزيارة أستاذنا توفيق الحكيم قال لنا بروحه المرحة وسخريته البديعة.. إنه كان يحلم بأن يسجل الحوار الذي دار بين آدم وحواء عندما هبطا إلى الأرض.. وأن يجمع بينهما وبين اثنين من أحفادهما المعاصرين، أما موضوع الحوار بينهم جميعًا فهو: هل هناك فائدة من الحروب؟ وعلى أي شيء تحارب الناس؟

وطه حسين قال لنا، ونحن عشرة من الأدباء حوله إنه تخيل يومًا أنه سوف يجمع بين هوميروس وأبي العلاء المعري، وكلاهما أعمى، وأن يلتقي بالشاعر المتنبي ويلحق بهم امرؤ القيس وفي يده الشاعر الإيطالى دانتي.

وكنت أحلم أن أكتب عن ثلاثتنا الكبار عباس العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم، وذلك بعد أن جمعت ثلاثتهم على الهاتف، وأجريت حوارًا غريبًا بينهم مع أنهم يتكلمون على ثلاثة خطوط هاتفية، وقد نشرت ذلك في أحد كتبي. كنت أسأل العقاد عن رأيه في طه حسين فيقول.. وأسأل طه حسين عن رأي العقاد فيه، ويقول طه حسين: وأنقل هذا إلى العقاد فكان يرد ويصد ويقول.. ثم.. رأيهما في توفيق الحكيم، ورأي الحكيم فيهما معًا.

وكان هذا الحديث الفريد مثيرًا للفكر وداعيًا لنتعمق في هذه الدراسة لثلاثة من عظمائنا، لم يضيقوا بهذا الحوار الغريب.. أو بهذه الخناقة الفاتحة للشهية. ومما قاله الأستاذ العقاد هو أنه يتمنى لو اتسع العمر وسمحت الصحة ليؤلف كتابًا عن (فلسفة الجمال) أو علم الجمال. وقد أشار العقاد إلى ذلك عندما قال: إن الجمال هو الحرية، فالجسم الجميل هو الذي تتدفق فيه الحياة بحرية.. فلا تحتبس عند النهدين أو الردفين أو الساقين وإنما تنساب الحياة برشاقة، أي بحرية.. والصوت الجميل هو الصوت الحر.. أي الذي ينطلق بسهولة فلا يحتبس في الحنجرة ولا يتحشرج، وإنما تجد المطرب يغني بلا مجهود ومن دون أن يبذل جهدًا عنيفًا في الأداء.. مثل أم كلثوم وفيروز وفايزة أحمد.

ولما علم توفيق الحكيم بهذه الآمال، اقترح أن تقوم الحكومة بالقبض عليهم هم الثلاثة وتعذبهم؛ عقابًا لهم على جريمة الفكر والنظر إلى المستقبل وجرجرة الناس وراءهم إلى لا شيء.. هاها!

من فضلك أين أبي؟

رسالة عاجلة من استوكهولم، صاحبة الرسالة فتاة سويدية في العشرينيات من عمرها، لها قضية إنسانية مؤلمة، عرفت من أمها أنها قابلت طالبًا مصريًّا في فيينا عاصمة النمسا، وكان ما كان مما لست أذكره، وحملت الأم وراحت تبحث عن صديقها المصري الذي اسمه (....) فلم تجد أحدًا يدلها عليه، سألت سفارتنا في فيينا، وسألت سفارتنا في استوكهولم، وسألت سفارتهم في فيينا.

المشكلة أن البنت لها ملامح مصرية، سمراء وشعرها أسود وملامحها ليست سويدية، أي شقراء الشعر واللون، زرقاء العينين، والناس يسألونها ولا تعرف ماذا تقول، فقررت أن تبحث عن والدها، وفي رسالتها الطويلة معها صورتها، تقول: أنا لا أريد منه شيئًا، لا مالاً ولا حتى الاعتراف بي، فقط أن أراه، ولو مرة واحدة، أمي طبيبة، وجدي من أكبر أطباء السويد، ونحن أغنياء، ولكن إحساسي بأن لي أبًا لا أعرفه يجردني من أجَلِّ ثروة ومن كل قيمة إنسانية، أرجوك.. إنني اتجهت إليك لأن المصريين هنا يؤكدون لي أنك تستطيع فأرجوك.

وكتبت وقلت: يا أولاد الحلال، هل من يدلني على المهندس (....)؟ واتصل بي زملاء له في الدراسة، وقالوا: نعم نعرفه، وقد رأينا معه

هذه السيدة، نعم هذا حدث، ونشرت أنا أسماء زملاء الدراسة. وبعثت للفتاة السويدية أقول لها: إنني وجدت الخيط الهادي إلى والدك، انتظريني، كانت سعادتها غامرة، واتصل بي والدها، الذي أنكر هذه الأبوة، واعترف بأن الأم عندما أخبرته أنها حامل أنكر واستنكر، وقال: لا بد من تحليل الدم. ورأت الأم في ذلك إهانة لها فمزقت صوره وخطاباته، ولكن ابنتها استأنفت الحكم.

أما الذي أزعجه جدًّا مما حدث، فهي زوجة المهندس المصري وكانت مشكلة عائلية كبرى، ولكن المهندس صارحني بأنه حزين على ما حدث، وأنه مستعد أن يعترف بها، بشرط أن يظل ذلك سرًّا بيننا، أي بعيدًا عن زوجته وأولاده، وحاولت أن أقنع الزوجة بأن هذا ليس من شأنها، فهي علاقة كانت قبل الزواج. لم أفلح ولم أجد ما أقوله، إنها ثورة، ولكن الأولاد أسعدهم أن تكون لهم أخت سويدية.

وجاءت البنت إلى القاهرة، وتم اللقاء وعطفت عليها الأسرة كلها: أبًا وزوجة وأولادًا، وانتهت الأحداث وبدأت العلاقة الإنسانية اللطيفة الناعمة العميقة. وطلبت الزوجة الطلاق، وجاءني الزوج، قال لي: أريد نصيحتك في كلمتين في ثلاث في أربع كلمات، قلت: قل لها أنت طالق!

بل موسيقى هادئة لأننا نريد السلام!

دراسات ممتعة في الموسيقى تقول: إن بعض الموسيقى تسهل على الأم الحامل أن تلد، موسيقى موتسارت هي أنسب المعزوفات للجنين في بطن أمه، موسيقى أوفنتباح أو باخ أو كورساكوف تساعد على النوم.

وقد حملت إحدى سفن الفضاء الأمريكية، التي أطلقوها من عشرين عامًا، لتتجه إلى الفضاء الخارجي تسجيلات لموسيقى بيتهوفن وموتسارت، هذه السفينة أرسلناها إلى من يعنيه الأمر من الكائنات العاقلة في الفضاء، على مدى عشرين أو مائة ألف سنة من الآن، وهذه الموسيقى نؤكد بها للعوالم الأخرى أننا إلى هذه الدرجة متقدمون متطورون.

وفي مستشفيات الأمراض العقلية يعالجون المرضى بالموسيقى والرقص معًا، فنرى الأطباء يراقصون المرضى من الرجال والنساء. وفي جو الموسيقى والاسترخاء والاستسلام، يعرف المرضى بمكنوناتهم من المتاعب النفسية في الطفولة والشباب، فالموسيقى تستدرجهم إلى أن يكشفوا عن خباياهم، فإذا فعلوا فمعنى ذلك أنهم تخففوا من أعباء الألم والندم. وفي بعض المعابد موسيقى وتراتيل وإيقاعات تساعد على الشفافية الروحية وتيسير المشاعر السامية.

وكان أستاذنا الفيلسوف أفلاطون يرى أن الموسيقى كالمشط، فإذا كان المشط يسوي الشعر، فالموسيقى تسوي الشعور، والتوازن والانسجام بين الجسم والروح! وذهب علماء النفس المعاصرون، إلى أنها أيضًا تحقق النشاط الجنسي، ولهم في ذلك حكايات وروايات وقواعد وأجواء.

وحفلات الزار واستخدام أنواع من الإيقاعات، من شأنها أن تتسلط على المشتركين وتهزهم بعنف، فتتساقط دموعهم وتنطلق صرخاتهم وتنفلت أعصابهم، ويقال إن هذا الهز العنيف سوف يؤدي في النهاية إلى الراحة، التي كانت بسبب الكبت والفرامل التي يضعها الإنسان على كل أعصابه.

وكما أن هناك موسيقى للحب، فهناك موسيقى للحرب أيضًا، وفي مقدمة كل الجيوش توجد الفرق الموسيقية التي تشعل الحماس والرجولة والرغبة في القتال والانتقام والانتصار.

وأذكر أن الرئيس السادات، عندما طلب من الموسيقار محمد عبد الوهاب أن يعيد توزيع النشيد الوطني، فلما فرغ محمد عبد الوهاب من تأليف هذا اللحن الجميل وتوزيعه توزيعًا بديعًا، ذهب إلى الرئيس السادات وجلسنا ثلاثتنا نسمع، وفوجئنا بأن عبد الوهاب قد جعل النشيد على ثلاث سرعات: بطيء ومتوسط وسريع، واستمعنا مرة ومرتين، وسألني الرئيس: أيها تفضل، وسأل عبد الوهاب: أيها تختار؟ قال عبد الوهاب: أنا نفذت ما أمرت به والرأي لك، والتفت الرئيس يسألني، فقلت: العزف المتوسط. ولكن السادات قال: لا، بل البطيء، فنحن لا نريد الحرب، نحن نريد السلام، ونريد الشعب أن يهدأ وأن يلتفت إلى شيء آخر في حياته!

فللموسيقى هذه القدرة وهذا السلطان علينا من أيام الفراعنة!

مطلوب مني ثلاثون مليونًا.. وإلا!

في التليفون قال لي: الحق حق، والقانون قانون، ولا بد أن تدفع!

أما الذي يجب أن أدفعه فهو ثلاثون مليون جنيه!! عشرة لابنه وعشرة له هو وعشرة لأنني أهنت الأسرة التي لها تاريخ طويل في الوطنية ومقاومة الاحتلال البريطاني في مصر!

إيه الحكاية؟ الحكاية أنني ذهبت إلى إحدى المدارس، مديرة المدرسة صديقة لنا، شكت لي من سخافة أولياء الأمور، وأن واحدًا منهم محام ثقيل الدم وأنه رفع أمره إلى القضاء؛ لأن المدرس قال لابنه البدين: يا فيل يا بليد! بس! فكتبت مقالاً أهاجم هذا الأب بدون ذكر اسمه واسم ابنه. وبعد أيام رفع أمره إلى القضاء، ولما كانت عندي حصانة برلمانية، فقد لجأ إلى وزارة العدل يطلب رفع الحصانة ليجرجرني إلى المحاكم، ووزارة العدل بعثت بالشكوى إلى مجلس الشورى الذي أنا عضو فيه، وفي مجلس الشورى نظرت إحدى اللجان مدى جدية هذه الشكوى ومدى أحقية الشاكي في هذه الشكوى المجهلة. بتشديد الهاء – أي التي لم يرد فيها اسمه ولا ابنه.. ثم رفضت دعواه، وانتهى الموضوع، ولكن جاءني صديق يقول لي إن الرجل في حالة غضب شديد، لماذا لا تكتب كلمة تطيب خاطره؟

فوافقت، ولكن صديقي قال لي: طبعًا أنت لن تكتب اسمه وإلا كان ذلك اعترافًا منك، وفي هذه الحالة سوف يرفع أمره للقضاء، فكتبت مقالاً أقول فيه: آسف جدًا يا اللي في بالي.

فازداد الرجل غيظًا، وقال لي في التليفون: وهل أنا نكرة، ألست أنا أستاذًا في الجامعة للقانون الدستوري، إن هذه إهانة جديدة فوق احتمالي!

وذهب إلى وزارة العدل، إلى مجلس الشورى، إلى لجنة التشريع، وصارت نكتة وعرفت أنه يسكن نفس القرية السياحية التي أسكنها. وذهبت إليه باحثًا عن مادة للكتابة، عن نكتة، ولم أكد أقف أمام الباب حتى خرج الرجل قصيرًا ممتلئًا وبالبيجامة والشبشب منكوش الشعر، وأخرج منظاره الغليظ من جيبه واتجه ناحيتي، عندها هجم عليه ثلاثة من الرجال الغلاظ، فأوسعوه ضربًا، لم أفهم، لم أتدخل، فلا بد أنه ارتكب مشكلة أخرى مع شخص آخر لا يحب النكتة.

وعرفت فيما بعد أن أحد الزملاء الصحافيين كتب شيئًا ضايقه، فهدده باللجوء إلى القضاء، ولكن الزميل ليست عنده حصانة ولا صبر، ولا يحب النكتة.

هداياهم المتواضعة جدًّا!

عندنا مثل شعبي يقول: فلان القط بتاعه جمل، أي أنه يبالغ في كل شيء. قال لي الرئيس السادات هذا المثل تعليقًا على ما نشرته إحدى صحف إسرائيل من أنه تلقى هدية عبارة عن نسر ذهبي عليه هذه العبارة: ويوم تعيش الذئاب مع الحملان.. وآية أخرى تقول: ويوم يحملونهم على أجنحة النسور!

أما الآية الأولى فتشير إلى التعايش السلمي. وأما الآية الثانية فقد قالوها لليهود اليمنيين الذين رفضوا أن يركبوا الطائرة مهاجرين إلى إسرائيل، فذكروهم بآية النسور التي هي الطائرات!

وأشار الرئيس السادات إلى من يحضر لي النسر الهدية. وكان طوله خمسة سنتيمترات وعرضه نصف سم وهو مذهَّب المنقار والمخالب! وهدايا اليهود عادة رمزية. وأحيانًا مضحكة، فهم في السنة الجديدة يبعثون بعسل النحل– أملاً في أن تكون السنة القادمة في حلاوة العسل.

وقد رأيت موشي ديان وزوجته في زيارة الرئيس السادات وزوجته وكان الحديث سياسيًا، وفجأة فتحت زوجة موشي ديان

حقيبتها وأخرجت علبة صغيرة وقدمها موشي ديان للرئيس قائلاً: هذه لأحفادك. وشكره الرئيس.. ونظرت إلى العلبة، وكتمت ضحكة. وأظن الرئيس فعل نفس الشيء فلم تكن إلا علبة بسكوت!

وقال بعض العارفين بموشي ديان إنه رجل بخيل جدًّا، ولكن حتى لو كان كريمًا، وقدم للرئيس مائة علبة بسكوت - فهي هدية متواضعة جدًّا. ولكن هدايا اليهود رمزية! وربما كانت الهدية الوحيدة التي لها قيمة تاريخية هي هدية الرئيس الإسرائيلي إسحاق نافون، هي عبارة عن جزء من سفر التكوين الخاص بمجيء يوسف عليه السلام إلى مصر. وقد كتبه الخطاط المصري اليهودي يوسف وهبي.

وأذكر أن المنسق بين مصر وإسرائيل السيد اشتراوس قدم للدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء في عيد ميلاده الذي أقيم في النادي الدبلوماسي حذاء أسود معلنًا أن هذا الحذاء معه فاتورة، تؤكد أن ثمنه أقل من سبعين دولارًا، ولم نفهم لماذا. وكان التوضيح هو أن الموظفين العموميين في أمريكا لا يتلقون هدايا قيمتها أكثر من سبعين دولارًا، وإلا أعادوها إلى الدولة لتباع في مزاد علني!

ولذلك فإن الرئيس بوش الأب بعد تحرير الكويت رفض الهدية الثمينة جدًّا من أمير الكويت، إلا بعد أن يترك البيت الأبيض!

ولكن أفضل الهدايا هي الكتب ودواوين الشعراء واللوحات الأثرية.. وقد تلقيت من أحد شعراء إسرائيل ديوانًا من الشعر، وفوجئت بعد أيام بأنه أرسل لي من يستعيره لبعض الوقت للاطلاع عليه، وجاء من أخذه.. ولم يعد.. لا الرجل ولا الديوان!!

ما أروع أن تنظر إلى فوق!

في إحدى ليالي يوليو 1994 ذهبت مضطربًا خائفًا، ويمكن أن أقول مستعدًّا أيضًا، إلى مرصد القطامية لكي أشاهد المذنب (شوماكر – ليفي 9). والمذنب مكون من عشرين كتلة حجرية، قطر كل منها يساوي كيلو مترين.. ولم أكد أقف وراء التلسكوب حتى أصابني الرعب.. إنني أكاد ألمس بيدي هذه الكتل الحجرية، وهي تتقاطر فوق كوكب المشتري على مدى مئات الكيلو مترات. وهذا المذنب اكتشفه اثنان من العلماء في وقت واحد.. الأمريكي شوماكر وزوجته والكندي دافيد ليفي.. وشوماكر هذا مات في حادث اصطدام سيارة. وهو أول إنسان تدفن أوقية من رفاته في أرض القمر!

وهذه الأيام تصادف مرور 15 عامًا على إطلاق المرصد المداري هابل، من فوق مكوك إلى ما فوق الغلاف الجوي ليرى الفضاء صافيًا، مستخدمًا الأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية. وهذا المرصد الفضائي قد بعث إلى الأرض مليون صورة ومعلومات تعادل 22 مليون رواية في حجم رواية (الحرب والسلام) لتولستوي، واكتشف عشرين ألف جسم فضائي، ودار حول الأرض مائة ألف مرة.. وقد تم إصلاح عدساته ثلاث مرات، وقام رواد الفضاء بإصلاح المرايا في هذا المرصد وتركيب كاميرات أخرى أكثر تطورًا.

وقد أطلق اسم هابل على هذا التلسكوب تيمنًا باسم العالم الفلكي الأمريكي الكبير أدوين هابل، الذي ولد عام 1889 في نفس السنة مع العقاد وطه حسين والمازني وعبد الرحمن الرافعي وهتلر ونهرو وشارلي شابلن والفلاسفة هيدجر ومارسيل وفتجنشتين، وتوفي سنة 1953. والعالم هابل هو الذي اكتشف تمدد الكون بسرعة ثابتة منذ حوالي 13 ألف مليون سنة ومنذ اللحظة الأولى لانفجار الكون إلى ما لا نهاية له من المجرات والسدم والنجوم والكواكب، والكون تسيطر عليه أربع قوى: المجالات الكهرومغناطيسية والجاذبية والقوى الضعيفة والتمدد. والتمدد هو تمدد الفضاء أو المادة السوداء في الكون. ولكي تفهم ذلك هات بالونة وانفخها، ثم امسك القلم وضع عليها نقطًا. هذه النقط هي السدم.. وعندما تنفخها تتسع المسافات بين النقط. أي يتسع الكون.. إلى متى يتسع ويتمدد؟ لا نعرف!

ولا أعرف كيف انتهت ليلة مشاهدة المذنب وهو يصطدم بكوكب المشتري.. لقد أحسست كأنني سقطت من فوق أو هبطت إلى تحت، هل هي دوخة؟ شيء من هذا إنه شيء رائع ومروع معًا أن تجد نفسك مشدودًا من رموش عينيك ومن أعصابك إلى اللانهائية- الكون الذي لا أول له ولا آخر.. ولا بداية أيضًا.. ففي خارج الكون نجوم أقدم من هذا الكون- إنها أجزاء من أكوان أقدم!

وقد كشف لنا التلسكوب هابل كيف ولدت ملايين النجوم وكيف ماتت.. وصور لنا الثقوب السوداء والمادة السوداء أيضًا.. وسوف يطلقون تلسكوبًا فضائيًا أكثر تطورًا لنرى أبعد وأعمق وأوضح. شيء غريب عجيب هذا الذي تشعر به.. أو هذا الذي يملؤك خوفًا ونشوة وانبهارًا وحيرة ويأسًا من أن تعرف أكثر، وشعورًا بالضآلة ومزيدًا من الأرق!

وكان ميلادها في السماء!

حكى لي أستاذنا توفيق الحكيم أنه كان مسافرًا إلى الصعيد. وفوجئ بأحد المشايخ المشهورين بالسحر ومعايشة العفاريت قال لتوفيق الحكيم: «أنا عارف إنك عاوز تشرب حاجة ساقعة». وهز الحكيم رأسه، فمد الرجل يده خارج النافذة وأعادها وبها زجاجة كوكا. واندهش الحكيم! وبعد أن شرب القليل من الزجاجة، مد الشيخ يده وألقى بالزجاجة من النافذة وطلب منه ثمنها. لا بد أن يدفع. ودفع الحكيم وألقى الرجل بالفلوس خارج النافذة!

«شيء عجيب» كان ذلك تعليقنا معًا. وتعليق كل من سمع هذه القصة الغريبة.. وكان ذلك إحساسي مرة أخرى عندما كنا في طريقنا إلى الرياض في طائرة الرئيس السادات، حين استدعاني، وقال لي: أنت تعرف المجلة الفلانية والمجلة الفلانية.. والفرنسية والإيطالية.. قلت: أعرف يا ريس! قال: أريدك أن تفكر وتعمل لي مجلة أحسن من كل تلك، وربنا يوفقك!

وقمت وهموم الدنيا كلها فوق دماغي. واستند السادات إلى زجاج النافذة ونام. ولم أشعر أنا لا بالطائرة ولا بالأرض ولا السماء. إنه الرئيس يريد مجلة أحسن من كل المجلات. وهذا أمر فرمان. وهو يرى

أن هذا سهل جدًّا.. تمامًا أن أمد يدي خارج الطائرة وآتي له بمجلة كاملة الأوصاف. كيف؟ ليس هذا شأنه.. إنه أصدر قرارًا وأنا وحدي أضرب دماغي في الحائط وفي الأرض والسماء وآتي له من تحت الأرض بمجلة جديدة.. وكان ذلك من ثلاثين عامًا. أما المجلة فهي مجلة «أكتوبر».. ولم أسأل الرئيس متى يكون إصدارها.. أين مكانها وأين المحررون والفلوس والمطابع.. إنه يريد مجلة أحسن من كل المجلات.. أما كيف؟ فهذا شأني، وأما متى فهذا قراري.. والرئيس عليه أن يأتي بالفلوس والمكان..

وفوجئت بالرئيس في الرياض يطلبني ليلاً.. ويقول لي: أنا فكرت وعندي هذه الاقتراحات بالموضوعات والأبواب والغلاف.

لقد كان الرئيس صحافيًا. ورغم مصائب السياسة فإن الصحافي يظهر من حين إلى حين في متابعته للصحف ومطالعته للمجلات، ويريد مجلة أحسن واختارني.. سألت رئيس الوزراء ممدوح سالم ووزير الخارجية إسماعيل فهمي وصديقي يوسف السباعي رئيس مؤسسة «الأهرام». أما الأخوان مصطفى أمين وعلي أمين فكان قرارهما أن تصدر هذه المجلة عن مؤسسة (أخبار اليوم) وسوف يقدمان لي كل أنواع المساعدة.

والرئيس يصر أن تصدر المجلة الجديدة بعيدًا عن كل المؤسسات الصحافية.. وإنما عن (دار المعارف) كبرى دور الطباعة والنشر في مصر والعالم العربي. وكانت مجلة «أكتوبر» التي ولدت في السماء منذ ثلاثين عامًا، أي بعد صدور جريدة الأهرام بمائة سنة.

وعقبال مائة سنة!

جسمها يتكلم ولكنها لا تنطق!

عندما جاء الأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا إلى مصر كانت ترافقه زوجته الأديبة إلسه مورانته، جلست إليه وبسرعة أشار إلى سيدة لفت شعرها بمنديل ريفي، ولم تكن جميلة، ممكن أن أقول دميمة، وعصبية جدًا، قدمها لي، وأكملت هي التعريف بنفسها وبأعمالها الأدبية، ثم تركتنا وجلست في مكان آخر من بهو فندق سميراميس القديم.

وفي هافانا عاصمة كوبا قابلته مع زوجته الثانية الأديبة داتشيا ماريانى، حلوة، ويبدو أنها من أصل روسي أو أوكراني، فحدثتها أنا عن روايتها البديعة التي عنوانها «زمن الوسوسة» وأسعدها ذلك.

ثم لقيته للمرة الثالثة ومعه زوجته الإسبانية كولسويلا، أي سلوى، وضحك مورافيا وشكرني على مقالات كتبتها عنه، فأنا الذي قدمته إلى اللغة العربية، ولم يكن أحد يعرفه قبل أن أترجم له أكثر من مائة قصة قصيرة ورواية «فتاة من روما» و«المراهقان» و«الحب الزوجي» و«زمن اللامبالاة» وهي أروع وأعمق ما كتب.

وفي إحدى المرات في برلين وجدته جالسًا وحده، فقلت مداعبًا: أين الزوجة الرابعة؟ فقال: أريد ذلك، قلت: وما يمنعك؟ قال: إن

زوجتي الثالثة في صحة جيدة، ويبدو أنها سوف تموت بعدي مع رجل آخر وقال: أريد أن أتزوج راقصة، فكل زوجاتي كانت صناعتهن الكلام، تعيش بالكلام وعلى الكلام وتموت بالكلام أيضًا، وحتى لو كانت تعرف الموسيقى أو الرسم، فلا خلاف بين هذه الفنون، وأنا أريد واحدة تعبر بجسدها، بذراعيها، بساقيها، أريدها راقصة شرقية، إحدى راقصات الصالون الأدبي لهارون الرشيد، أو أريدها ألا تتكلم وتترك لي أن أكلمها عن نفسها، عن جمالها الذي أراه ودلالها الذي أتمناه، فإذا مت وكان لا بد أن أكتب نعيًا لقلت عاش أديبًا وسط أناس ليسوا أدباء، وكان يتمنى لو عاش بين الراقصات والمطربين والمطربات وكان ليله موصولاً بنهاره، ولا يفيق من الخمر إلا إذا ألقى بنفسه في نهر دجلة.

وفي يوم زرته في بيته في روما ومعي صديقة، فلم يكد يراها حتى قال: راقصة باليه؟ قلت: نعم. فهز رأسه قائلا: لا أحب الرقص الهندسي، لا أحب الرقص بلا جسد، أريدها شرقية، كلها لحم وشحم، تقول كثيرًا بدون كلام! فقد مللت الكلام.

وبعد وفاته عرفت أن زوجته الثالثة كانت راقصة في أحد كباريهات الأرجنتين!

كنت أقاوم الملل عندنا جميعًا!

عندما كنت عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين وطالبًا في الجامعة، كانوا يكلفونني بإلقاء خطبة الجمعة وإمامة المصلين في مسجد يتحدد كل أسبوع، وقد اهتديت إلى حل مريح وهو أن أعد خطبة واحدة لا أغيرها: بعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية عن الصدق والأمانة وكفى، وكان أمرًا سهلاً جدًا أن أتلقى أمرًا بالذهاب إلى المساجد القريبة من القاهرة، وفي يوم فوجئت بأحد الزملاء في جمعية الإخوان المسلمين بمدينة إمبابة يقول لي إنه يتابعني أينما ذهبت، قالها سعيدًا، وأتعسني ذلك، فهو إذن يستمع إلى خطبة واحدة، وشعرت بالكسوف، فهذا الأخ لا بد أنه قد زهق أو عرف الملل، وأن حماسي في إلقاء الخطبة مفتعل، ولا بد أنه اندهش كيف أردد كلامًا واحدًا بحماس متجدد، ولم أستطع أن أقول له: يا أخي بلاش.. ولماذا تضايق نفسك بالسماع إلى خطبة واحدة لا تتغير؟

ولكنه قال لي ما أراحني، وهو أنه يعمل طول الليل في دكان والده، وأنه لا يكاد يدخل المسجد ويشعر بالناس حوله حتى يسند ظهره إلى الحائط وينام طوال الخطبة، فإذا قام الناس للصلاة ذهب وتوضأ، أي أنه لم يستمع لي ولا مرة واحدة!

وعندما كنت مدرسًا للفلسفة في الجامعة كنت أغير الموضوعات التي أدرسها للطلبة كل سنة، فقد أعطاني أستاذي عبد الرحمن بدوي هذه الحرية هربًا من الملل، وحتى لا أكون معديًا فأنقل للطلبة الملل والزهق والقرف من تكرار الموضوع سنة وراء سنة!

وأذكر أنه في إحدى السنوات ضقت بما أقوله، فقد كان كلامًا مكررًا في تاريخ الحضارة الإنسانية، قلت وقرفت، ولم أعد أجد جديدًا أقوله، فما كان مني إلا أن حاضرت في موضوع فلسفي غير مقرر على الطلبة، وحتى لا أزهق الطلبة قلت لهم: بمنتهى الأمانة هذا الموضوع ليس مقررًا عليكم، ولن أسأل أحدًا فيه، ولا يضايقني إذا غاب الطلبة عن سماع المحاضرات. ومن الغريب أن جاء طلبة من أقسام أخرى لسماع هذه المحاضرات التي ليست مقررة، فكان يجيء طلبة من أقسام الاجتماع واللغة العربية والإنجليزية والفرنسية.

ولما أحسست أنني زهقت أنهيت العام الدراسي قبل موعده، فلم يكن الطلبة هم الذين زهقوا وإنما أنا، من الموضوع ومن الطلبة ومن نفسي!

يا أولاد الحلال: تليفون هذا الرجل!

قالوا لي: طبيبك موجود في لندن، إنه الطبيب المصري جابي جبران بمستشفى الأميرة جريس «برنسيس جريس» واتصلت به، فقال لي: قبل أن تجيء إلى لندن أريد صورة بانورامية للأسنان، وبعد ذلك سوف تدخل المستشفى لمدة ثلاثة أيام وتحت اسم مستعار لأسباب أمنية، وفي اليوم الأول سوف تجيء الممرضة تتحدث إليك وتعرف إن كان لمرض أسنانك تاريخ، ثم تقيس الضغط، وتعطيك مهدِّئًا، ثم منوِّمًا، وسوف تجرى العملية لك وأنت نائم تمامًا، وبعد ذلك لن تشعر بأي ألم، لأن الألم لا ضرورة له، وقد حدث كل ذلك بمنتهى الدقة. وخرجت من المستشفى، لأعود إليه في عيادته الخاصة، وبعد ثلاثة أيام أخرى أجرى كشفًا من جديد، على أن أعود لآخر مرة في العام التالي للاطمئنان على أن العملية التي أجريت تحت الأسنان سليمة وأن مكان عشرين غرزة آمن تمامًا!

سألت الطبيب المصري ما شكل البقشيش الذي ينبغي دفعه للممرضات، فاستاء تمامًا، وقال: علبة شيكولاتة ولا تزيد، وسألت بعض المصريين في لندن فقالوا كلامًا مشابهًا، وحددوا نوع الشيكولاتة، أما الذي أعجبني في المستشفى فهو الضبط والربط

وسرعة الأداء والابتسام على وجه الممرضات في كل ساعات الليل والنهار، وبسبب النظر طويلاً إلى التلفزيون في ليالي الوحدة الطويلة أوجعتني إحدى عيني، وبسرعة جاء طبيب، وفي لحظات جاءت زجاجتان من القطرة؛ واحدة للعين اليمنى وواحدة للعين اليسرى، لماذا؟ لا سؤال ولا جواب فالطبيب يعرف أكثر.

قلت للممرضة: هل أستطيع أن أستعير كتابًا من المكتبة، فأجابت: نعم، وأخرجت ورقًا وقلمًا، ولم أكن أعرف أن في غرفتي كومبيوتر، وعلى الكومبيوتر ظهر الكتاب، وبعد لحظات جاء الكتاب، وكانت الحروف صغيرة جدًّا، فلم أستطع أن أقرأ بوضوح، وسألت إن كان من الممكن أن أطلب ما هو أكبر حروفًا، وجاء كتاب، من بعده كتاب، وألقيت محاضرة في «كلية التمريض» جامعة المنصورة، وكانت المقارنة هامّة جدًّا بين علم التمريض عندنا وبين التمريض عندهم، ووجدت أن المسافة كبيرة، ومشكلة مستشفيات مصر كلها ليست الأطباء وإنما الممرضات، أي تطبيق ما يأمر به الطبيب وموالاة ذلك والعناية الشخصية بالمريض.

عزيزي القارئ هذه مقالة مغرضة، أي لها هدف آخر غير أن أحكي حكاية وأروي رواية وأن أقارن وأن يكون عندي أمل في الإصلاح، وهو أنني في الأيام الأخيرة بدأت أشعر بشيء من الألم في أسناني وشفتي، فإن كان ذلك هو نفس الألم القديم، فكل ما أرجوه منك إن كنت تعرف رقم هاتف د. جابي جبران، فبالله عليك أن ترسله لي، ولك الأجر والثواب عند الله، فلا أوجع الله لك ضرسًا ولا ألهب لك شفة ولا أرقد لك جسدًا في مستشفى أو في أي مكان آخر!

شيء أقسى من النكسة!

بعد الهزيمة العسكرية سنة 1967 أقمت معرضًا تنقلت به بين المدن المصرية ثم في ليبيا، والمعرض كان يضم كتبًا عن القضية الفلسطينية والصهيونية والسامية والعداء للسامية، وكان من رأيي – ولا يزال– أننا انهزمنا لأننا كنا نجهل حقيقة إسرائيل والعسكرية الإسرائيلية، وأننا بالغنا في قوتنا وقدرتنا على الصد والرد، فأخذت إسرائيل ما تستحقه من نصر، وتجرعنا ما نستحقه من هزيمة، والعلاج هو أن نعرف عدونا، فلما عرفناه انتصرنا عليه في 1973، ولما حللنا مشاكلنا مع إسرائيل اتخذت كل العلاقات حجمها الطبيعي، وأصبحنا ننظر إلى إسرائيل في عينيها.. عرفناها وعرفتنا.

وكان اسم المعرض المتنقل : اعرف عدوك.

وكانت مفاهيمنا في ذلك الوقت غير دقيقة، فقد بالغنا في كل شيء، في الكراهية وفي القوة والضعف، وتسلط علينا شعور بأن العالم كله يتآمر علينا، وأننا انهزمنا لا لأننا لم نكن مستعدين، وإنما لأن الدنيا كلها قد حاربتنا، وما زلنا نقرأ ونفهم ونسأل ونعرف حتى اعتدلت الموازين والمقاييس في أيدينا، فلا خوف من أحد وإنما نحن أيضًا قادرون، وأننا تعلمنا الدرس الأليم، ولم نضيع الوقت في البكاء

على الماضي، وإنما زرعنا الأرض وأقمنا القرى السياحية والفنادق في سيناء وعلى ساحل البحر الأبيض والأحمر، وقد انبهرت إسرائيل بهذه القدرة الهائلة على الإبداع، وصارحونا هكذا: ما دامت لديكم هذه المقدرة الفذة على الإبداع والبناء، فلماذا سكتم ألوف السنين فلم تضعوا حجرًا على حجر في سيناء، حتى بدأنا نحن ببناء قرى متواضعة مثل ياميت وغيرها؟

وقد طلب مني الرئيس السادات أن أذهب لأرى قرية ياميت أو البحر الصغير، وأن أرى مدرسة البيئة التي يتحدثون عنها، وأرى ماذا فعلوا في بحيرة البردويل، وذهبت ولم أنبهر. ولكنهم استطاعوا أن يملأوا الدنيا كلامًا وصياحًا عن قراهم ومدارسهم ومصائد الأسماك من مياهنا.

وقلت هذا في افتتاح المعرض في مدينة طرابلس، وجلسنا، وسألني أحد الحاضرين، وكان سؤاله طويلاً لدرجة أنني لم أعرف بالضبط ما الذي يقوله، ونظرت إلى السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية وكان يجلس في الصف الأول مع القيادات الليبية، وكان واضحًا أننا جميعًا لم نفهم، وقام واحد يسأل: يعني إيه: بعيد بعيد وحدينا؟ مش عيب واحدة زي أم كلثوم عجوز تقول إنها تريد أن تنفرد برجل بعيد بعيد وحدينا.. لا الكلام ولا الصوت ولا اللحن يليق بها وبنا؟!

ولم أعرف ماذا أقول، وظهرت حيرتي، وقلت له: إن الذي سمعته الآن هو أقسى من النكسة، إنها هزيمة للذوق والجمال والموسيقى، نسأل الله أن ينصرنا هنا وهناك!

كل شيء صيني إلا الأمطار!

يحدث كثيرًا في مصر وفي القاهرة بصفة خاصة، فجأة تهب عاصفة رملية، وتصبح السماء صفراء وحمراء وتختفي البيوت والناس والسيارات، والشمس أيضًا، ويتحول كل شيء إلى شبح نراه ولا نراه، ولأن الصحاري حولنا شرقًا وغربًا فليس أسهل على الهواء المتحرك من أن ينكش الصحاري ويجعلها خانقة، وأصبحت مثل هذه العواصف الرملية قضاء وقدرًا، نقبلها ونلعنها ولا نجد لها حلاً، مع أن الصين ومن أربعين عامًا قد وجدت الحل، وقد استخدمته في الأيام القليلة الماضية، فإذا امتلأت سماؤها بالرمال أطلقت على السماء صواريخ تحمل مواد كيماوية: يودين الفضة أو نترات الفضة. هذه المواد الكيماوية تؤدي إلى سقوط الأمطار التي تأخذ الرمال إلى الأرض. وينكشف الجو ويرى الناس السماء وترتوي الأشجار والحيوانات بهذه الأمطار الصناعية التي تغسل المدن الملوثة، وتحيي الزرع والضرع في شمال الصين، شديد الجفاف. ولم تعد هناك مشكلة جفاف في الصين، فليس أسهل من إطلاق الصواريخ في الجو وهذه الصواريخ محملة بمواد كيماوية على شكل سجائر، لا تكاد تصل إلى الفضاء حتى تنفجر إلى ما لا نهاية له من ذرات الفضة التي تجمد

البخار وتحوله مطرًا غزيرًا! وكان الأمريكان يقاومون مشكلة الطيور الكبيرة في ولاية فيرمونت، هذه الطيور تعترض الطائرات الحربية وتدخل في محركاتها، ورغم أنها طيور مسالمة، فإنها كثيرًا ما أسقطت الطائرات بمن فيها عندما تعترضها وتدخل محركاتها، فاستخدم الأمريكان مواد تذيب الدهون من ريش الطيور، والدهون هي مادة عازلة أي تعزل جسم الطائر عن الجو البارد، فإذا زالت هذه الطبقة الدهنية أصبح الطائر عاريًا فيموت من شدة البرودة!

فصرخت عالمة البيئة الشهيرة راشيل كارسون من هذه الوحشية الأمريكية، أي قتلها للطيور حتى لو كانت هذه الطيور تؤدي إلى مقتل الإنسان! فعاد الأمريكان يستخدمون الأمطار الصناعية مع كميات كبيرة من نترات الفضة التي كانت تحول البخار إلى برد أو كرات من الثلج يسقط بكثرة، فيقتل الطيور ولكنها كانت أيضًا تصيب الناس وتسقط على البيوت ونوافذها الزجاجية، فعدلت عن تكثيف الأمطار وتجميدها، واكتفت بإصابة الطيور بالشلل حتى لا تعترض الطائرات.

وكل المدن التي تحوطها الرمال وتهب عليها بصورة عاصفة في حاجة إلى التجربة الصينية في إسقاط الأمطار المحملة بالرمال، وغسل الأرض والسماء حتى لا تخترق الرمال عيون الناس وتخنق أنفاسهم، ومن الغريب أن المصنوعات الصينية في كل مكان وفي كل بيت، إلا نترات الفضة الصينية – عجبي!

ولم أنم في تلك الليلة!

دعيت إلى سجن مصر لمشاهدة إحدى مسرحياتي يمثلها السجناء، والمطلوب معرفة رأيي في أدائهم المسرحي. ذهبت، وجلست أمام المسرح، والصف الأول كله من كبار الضباط، وتقدم أحد السجناء يتحدث عن المسرحية وعن المؤلف، الذي هو أنا، وكيف أنني استلهمت هذه المسرحية من حادثة وقعت لي وأنا طفل، والمسرحية مضحكة جدًا، حتى ليخيل للمشاهد أن المؤلف من كبار الحشاشين مع أنني لا أدخن ولا أعرف الحشيش، ثم ينظر ناحيتي ويقول: نحن نتساءل إذا كان من غير حشيش وضع فيها هذه الكمية الهائلة من المواقف المضحكة، فكيف الحال لو كان حشاشًا مثل فلان وعلان؟!

إنها مسرحية «حلمك يا شيخ علام» التي ظهرت على المسرح وفي التلفزيون والتي سوف نشاهدها الآن.. لم أستلهمها من أية أحداث في حياتي، وإنما هي فكرة عالجتها وأردت أن أهاجم الخرافات والخزعبلات، وبس! والموقف لا يحتمل التصحيح، فهم – أي السجناء – قد جاءوا هنا لتصحيح سلوكهم أو لمعاقبتهم على سلوكهم، فليس من المناسب أن أقترح عقابًا لهم على عدم الدقة في الحديث عن المسرحية والمؤلف. وضحك المتفرجون من السجناء والجنود والضباط جميعًا

للإخراج والتمثيل، وطلبوا مني أن أعلق على هذه المسرحية، ومن الطبيعي أن أبدي إعجابي بالأداء وحسن التصرف أحيانًا.

وتذكرت أن بعض الممثلين كانوا تلامذتي، وأنه تم اعتقالهم لأسباب مختلفة، وشكرت الطلبة واعتذرت لهم، فقد ألقي القبض عليهم بتهمة توزيع منشورات شيوعية، ولم تكن المنشورات إلا محاضراتي عن المذاهب السياسية، ومن بينها الشيوعية والبيان الشيوعي والتفسير المادي للتاريخ، فبعض الطلبة قال إنها محاضراتي، وسألوني وقلت: نعم، وبعض الطلبة رأى أن يقول إنها منشورات وليست محاضرات، وكان السبب أنه أراد أن يدخل السجن مع اثنين من إخوته، ورأيت ثلاثتهم أبطالاً في هذه المسرحية!

ولم أنم تلك الليلة، فقد أوجعني أن أكون سببًا في اعتقال ظالم لشبان لهم مستقبل، أو سوف يكون لهم مستقبل، وأن هذه بداية مؤلمة، وأنني كنت أحد هذه الأسباب!

يا قطاع الطرق الإلكترونية.. ارحمونا!

السرقات قديمة منذ كانت هناك فوارق طبقية، أي منذ كان هناك أغنياء وفقراء، وكانت السرقات مادية. وفي الأمثال الشعبية: إنه قادر على أن يسرق الكحل من العين، أو إذا أعطيته يدك وجدت أصابعك قد نقصت!

وهناك سرقات عربات القطارات، أو خطف الطائرات مقابل فدية مالية، أو خطف الأشخاص، وسرقة حافظة نقودك وسرقة البنك الذي تضع فيه فلوسك، ويكون اللص واحدًا، ويكون عصابة بسيطة، ويكون عصابات منظمة مثل المافيا الإيطالية والمافيا الأمريكية، وكلها سرقات مادية، وتكون المادة ذهبًا وفضة، أو تكون وثائق، أو تكون كنوزًا في قبور قديمة أو متاحف عالمية، وعندما يصبح القانون ضعيفًا يصبح الذي يسرق رغيفًا ضحية تنطبق عليه كل مواد قانون العقوبات، أما اللص الكبير الذي يسرق الملايين فلا تنطبق عليه أية قوانين؛ لأنه بفلوسه ومحاميه فوق القانون.

وأحدث أنواع السرقة، أي بلغة العصر، سرقات المعلومات عن طريق الكمبيوتر، يعني أن يدخل اللص أو قاطع الطريق الإلكتروني في أجهزتك، ولا تعرف كيف؟ ويصدر أوامره إلى الجهاز ويستولي على

ما فيه من معلومات، وفي لحظات يملك هذه المعلومات السرية التي تجمعت في سنوات، أو يمسح المعلومات من على أجهزتك ويستولي عليها ويحبسها في أجهزته ثم يطالب بفدية! وإلا سيقضي على هذا الصرح من المعلومات أو ينشرها أو يعطيها لخصومك في السياسة أو في الصناعة، ولا تملك إلا أن تدفع وتغير المفاتيح السرية لنظام المعلومات عندك. وقد حدث في أول عهدي باستخدام الكومبيوتر أن هجمت على شاشتي صور جنسية بالمئات ولا أعرف كيف، وأجدني في حاجة إلى وقت طويل لكي أتخلص منها، وكرهت الكومبيوتر المستهدف من بيوت الدعارة أو تجار الرقيق الأبيض.

وسألت أهل الذكر، فقال بعضهم: لا حل. وفعلاً لم أفلح في استبعاد هذا السيل من الصور العارية، لا أعرف كيف أحذفها، وأخيرًا وجدت الذين يعرفون وأفلحوا في تخليصي من هذا التلوث اللوني، ولكن فوجئت برسائل طويلة جدًّا ولا قيمة لها وبلغات مختلفة، وسألت الذين يعرفون فسدوا السيل في وجهها، ثم أصبح جهاز الكومبيوتر ينبِّهك إلى الفيروسات اللعينة التي تسللت إليك والتي لا بد من استبعادها. وفجأة وجدت أحد الخبراء قد أمسك الكومبيوتر وألقى به من النافذة، لماذا؟ لأن عددًا من قطاع الطرق الإلكترونية قد استقروا في الجهاز يسيرونه كما يريدون، ولم يفلح في أن يوقف نشاطهم؛ ولذلك كان لابد من القضاء عليهم وعلى الجهاز!

انظر ماذا يدخن كبار الصحافيين

دعانا الموسيقار محمد عبد الوهاب إلى العشاء، ووافقنا فورًا، فاللقاء بعبد الوهاب وهذه الشلة من الصحافيين متعة مؤكدة: موسيقى وغناء وطرب ونكت وكل أسرار الحياة الاجتماعية والسياسية والصحافية في مصر.

وتأكدنا من أننا جميعًا سوف نذهب، وما دمنا سنتأخر طويلاً فلا بد أن يأتي بسيارته ولا يعتمد على أحد في أن يوصله إلى بيته. ولنا تجارب أليمة في مثل هذه اللقاءات عند عبد الوهاب وعبد الحليم وفريد الأطرش وأم كلثوم ويوسف وهبي، فكثيرًا ما قرر أي واحد أن ينصرف قبل العشاء أو أثناءه وينسى أنه قد أتى معه بأحد الأصدقاء وأنه بلا سيارة تعيده إلى البيت.

وتحدث مصطفى أمين عن الصحافة الحديثة وعن نمو الشخصية الصحافية وشكا من الشبان؛ لأنهم لا يقرأون ولا يعرفون لغات أخرى، وإذا عرفوها فهي عاجزة عن ربطهم بالغرب وبالنهضة الثقافية والصناعية، وتحدث عبد الوهاب عن الأصوات الجديدة التي تصادفه أو التي تقف على بابه، وأنه استمع إلى كثير من الأصوات ولم تعجبه الأصوات؛ لأنها غير مثقفة وغير مدربة، وأن أصحابها

مستعجلون جدًّا، وأنهم يرون عبد الوهاب الذي بلغ القمة بعد سنوات طويلة، أما القمم عند الشباب فقريبة وممكنة في أي وقت!

وعاب علينا أننا نعرف مثل هذه الظواهر في الأدب والفن ونسكت عن هذا الغرور والجهل، وأنه لا أمل في أي شاب إذا تصور أن النجاح والشهرة والفلوس تجيء دائمًا لأي إنسان إذا التفت إلى ذلك، وأن الأجيال الجديدة تستطيع أن تملأ هذا الفراغ في الأدب والفن إذا أعطاهم الكبار فرصة للظهور!

وفجأة تحدث كامل الشناوي وهو مصدر المرح والحيوية في ليالي القاهرة، وقال: حتى كبار الأدباء والصحافيين لا شخصية لهم، بل قد وقفوا وتحجروا على كلام واحد وطعام واحد، انظر، انظروا إلى ماذا يدخنون، إنهم يدخنون نوعًا واحدًا من السجائر مع أن هناك أنواعًا مختلفة!

وضحكنا، فقبل أن نجيء إلى عبد الوهاب توقفت سياراتنا ونزل كامل الشناوي واشترى علب سجائر صغيرة ووزعها علينا، وكان هذا هو المقلب الذي شربناه، وفضحنا كامل الشناوي الذي اختار السجائر ووزعها علينا ليقول بعد ذلك: لا شخصية لهم، مع أنهم يطالبون طول الوقت بأن يكون للأديب والفنان سلوك متميز!

أن يهدم مسجدًا هذا مستحيل!!

قال لي الرئيس السادات: يا أخي أنقذني منه.. لقد أوجع لي دماغي!

فقد بعث إليه بعدد كبير من أعضاء الكونغرس، وحتى الرئيس كارتر وقبله الرئيس نيكسون وعمدة نيويورك. إنه أحد اليهود المصريين من البرازيل. ومنتهى أمله أن يتحقق السلام بيننا وإسرائيل وأن يجمع رفات جده وأن يقيم له قبرًا وصرحًا ومستشفى ومدرسة، وأن يرصف الطرق المؤدية إلى المقبرة. وأن يشتري مساحة كبيرة، يجعلها حديقة يتوسطها قبر جده. وأنه غني جدًا وقادر على ذلك.

وجاءني ومعه خريطة تبين موقع القبر. وذهبنا إلى مدينة طنطا وقابلت المحافظ، ووقتها كان السيد وجيه أباظة. ونزلنا ومعنا الرجل والخريطة، وكان هو أسبقنا إلى المكان الذي يعرفه جيدًا، ومعه أيضًا خريطة دقيقة لكل المنطقة والطرق وقنوات الري وأنابيب الصرف وأسلاك الكهرباء والهاتفات.

أما الخريطة فقد رسمها المهندس البرازيلي العالمي أرتورو ولا جادا، والخريطة فيها حديقة واسعة وأسماء الزهور وثمار الفاكهة

ومحطة لتوليد الكهرباء وقصر ومستشفى، وأهم من ذلك أنه أقام مسجدًا فخمًا وجعل إحدى الآيات القرآنية شعارًا له والآية تقول: «وكان عرشه على الماء». ومن العجيب أن الملك الحسن الثاني قد أقام مسجدًا فخمًا جدًّا وعلى الجدران الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾.

وقال لي ملك مصر الصغير أحمد فؤاد إن الملك الحسن الثاني فضل أن يبني مسجدًا، لا أن يبني لنفسه تمثالاً يغري الغاضبين عليه باقتلاعه، أما المسجد فسوف يبقى ما بقي الإسلام.

ولما عرضت الأمر على الرئيس السادات قال صارخًا: مجنون.. رجل مجنون، هل يتصور لحظة أن نهدم مسجدًا ونبني مسجدًا، ربما كان بناء مسجد أمرًا سهلاً، أما هدمه فمستحيل.

ولما قابلت الرجل أخيرًا في فندق سميراميس سألني وكأن شيئًا لم يتغير في الثلاثين عامًا الماضية: هل لا يزال من المستحيل أن أبني مسجدًا جديدًا بدلاً من مسجد قديم؟!

لست من أبناء الغجر ولكن..

شيء عجيب أن يتصل بي مراسلنا في روما ليقول لي: البقية في حياتك ملكة الغجر ماتت! ولم أعرف هل أضحك.. هل أبكي.. هل أشكره.. هل أستنكره؟ ماتت ملكة الغجر، وأنا لا غجري ولا كنت. ولكني عندما كنت طفلاً هربت من ضربات أمي إلى جماعة غجرية، وطلبت إليهم أن أكون واحدًا منهم. وأشرت إلى فتاة صغيرة في مثل سني.

وقلت: نجوز ونعيش هنا. وضحكوا. وفي يوم كنت أحمل شوالاً فوق رأسي وأمشي ممسكًا بجلباب إحدى الغجريات التي تضرب الودع وتشوف البخت. وهي ترتاد الشوارع إلى أن وقفت أمام بيت فأمسكونا وقفلوا الباب. إنه بيت جدي..

ولكني عاودت الكتابة كثيرًا عن الحياة الغجرية. إننا لا نختلف كثيرًا عنهم. فالرهبان في الصوامع والعلماء في المعامل ورواد الفضاء كلهم يعيشون في عزلة على الهامش.. هامش المدن والصحاري والغلاف الجوي.. وعلى الحافة بين القانون والخروج عليه.. والغجر يتحملون كل أوزار المجتمع. فهم المتهمون دائمًا بأنهم سرقوا ونهبوا وخطفوا.. وهي تهمة ليست كلها صحيحة.

ولي كتاب اسمه: «نحن أولاد الغجر».. أردت أن أكون، أو أنني حقيقة مثل هؤلاء، أو تمنيت لو كنت واحدًا منهم. تمنيت ألا يكون لي أخ ولا أخت، ولا خال ولا عم، ولا شجرة عائلة. وحسدت اللقطاء. ولما تعمقت في دراسة الفلسفة الوجودية زادت رغباتي قوة وعمقًا.

ولو لم أكن غجريًّا لتمنيت أن أكون غجريًّا! ومن أربعين عامًا كنت في إيطاليا.. قرأت أن ملكة الغجر ماتت. فذهبت إليها من دون تفكير. أريد أن أرى كيف يحتفلون بها. ووقفت في الطابور الطويل لأقترب وأزداد قربًا منها وأتملى طلعتها. وكانت طلعتها دميمة. إنها من غجر رومانيا.. ويبدو أنني كنت غريبًا. فسألوني: غجري؟ قلت: طبعًا أليس واضحًا؟ قالوا: بلى واضح من ملابسك ومن دموعك!

وقلت: تركتهم يندبونها في مصر. وتعاقبوا على شكري واحتضاني وتقبيلي، وأن أنقل لغجر مصر كل آيات الامتنان، وأن يصبروا على بلواهم، ولما عرفت أخيرًا أن آخر الملكات قد ماتت لم أذهب.. فقد كنت فقط غجريًّا عقلاً وقلبًا وحياة وفلسفة!

الغناء هو فن تنظيم التنفس!

كان الموسيقار محمد عبد الوهاب ينصح الشبان المطربين بالاهتمام الشديد بصحتهم، ويقول: إن الجسم هو الجهاز الذي تعيش فيه وتعيش به، ولذلك يجب أن يكون هذا المسكين صحيحًا.

وكذلك كانت أم كلثوم، فهي لا تأكل الآيس كريم ولا الطعام الساخن، حرصًا على حنجرتها وحبالها الصوتية، ولا تدخن. ولا عبد الوهاب ولا عبد الحليم.

وكان محمد عبد الوهاب يندهش عندما يغني المطرب الكبير وديع الصافي. ويندهش من أنه يغني بعد أن يتناول الغداء أو العشاء.

وكان عبد الوهاب يضع رأسه على بطن وديع الصافي ويتساءل كيف يخرج صوته قويًّا مُجلجلاً.. وكيف يكون طويل النفس بعد أن تناول عشاءه.. وكان يقول: أعجوبة!

وعندما جاء المطرب الملحن الفرنسي الأرمني أزنافور إلى القاهرة سألته: ما هي وصاياك العشر لأي مطرب مبتدئ؟ قال: أن يهتم بصحته وألا يدخن ولا يأكل كثيرًا! وقال إنهم في معهد الموسيقى يعلمونهم كيف يحبسون أنفاسهم تحت الماء أطول مدة ممكنة. لماذا؟ قال: لأن الغناء هو فن تنظيم التنفس.. أي أن الفنان يضبط نفسه داخلاً وخارجًا على راحته، بحيث لا يلهث وهو يغني..

فأنت لا تسمع المطرب وهو يتنفس.. لا أم كلثوم ولا عبد الوهاب ولا عبد الحليم ولا فايزة أحمد ولا فيروز.. بل لقد لاحظت أن القارئ الشيخ محمد رفعت، وهو أروع القراء في التاريخ، يستطيع أن يتلو واحدة من قصار السور في نفس واحد. وقد كان الشيخ رفعت نحيفًا هزيلاً، ولكن روعة الأداء وأبهة التلاوة تتجليان بلا تنفس!

نقلت هذا المعنى إلى أستاذنا العقاد – وهو لا يحب محمد عبد الوهاب – فقال: والكاتب أيضًا وكذلك الفنان يجب أن يكون سهل الأداء.. العبارة سهلة والخطوط سهلة.. تنساب في يسر؛ لأن الجمال هو الحرية.. فالصوت الجميل هو الصوت الحر.. والجسم الجميل هو الجسم الحر الذي تنساب فيه الحيوية ولا يتكدس اللحم والشحم في مكان، وإنما في الجسم كله..

ويقال في التاريخ الأسطوري للموسيقى إن آلة العود كلما كانت أكثر تجويفًا كانت أكثر رنينًا، وكذلك إذا ظلت المعدة خالية، كان الصوت أكثر جلاء. وقالوا إن الفيلسوف الفارابي هو الذي أفرغ العود. وهي أسطورة موسيقية، ولما سئل من الذي علمك تجويف العود قال: الفأر أبي، فهو الذي أكل أخشاب العود فكان الرنين من هذا التجويف.. فالفأر هو أبي.. ولذلك سموه الفارابي!

والمعنى لهذه الأسطورة أن الفنان يجب ألا يملأ معدته بالطعام ليكون أرق وأكثر شفافية ورنينًا!

أسورتي المغناطيسية.. وداعًا!

أول مرة أسمع فيها عن العلاج بالمغناطيس من طيار مصري اسمه الكابتن الشقنقيري، أثناء رحلة إلى اليابان، قال لي إن عظامه تكسرت في حادثة سيارة. وذهب إلى باريس وتلقى علاجًا من الدكتور بارون في مستشفى سانت أثين، وفي ذلك الوقت ظهر طبيب مصري اسمه طانيوس. وهو أيضًا يعالج بالمغناطيس، وذلك بأن يضع شرائح ممغنطة على أماكن الألم في اليدين والكتفين والظهر. وكانت الشرائح فجة وشكلها قبيحًا. ولكن اليابانيين طوروها وجعلوها في حجم أقراص الأسبرين من النحاس ومن الذهب وكانوا يضعونها على مواطن الألم.

وذهبت إلى د. بارون مع د. طانيوس. وذهب كثيرون للعلاج.. وذهبت للفرجة والمعرفة. وذهبت مع طبيبة فرنسية ألقت محاضرات للأطباء في جامعة قناة السويس، وقبل ذلك بثلاثين عامًا انشغلت بعدد من الباحثين الذين يستخدمون «البندول» في العلاج أيضًا، ذلك بأن يأتي الطبيب بالبندول ويركزه على موطن الألم فيتحرك البندول. ويقال في تفسير ذلك إن البندول يهتز بشكل غير منتظم، إذا كانت

الطاقة المغناطيسية في الجسم ناقصة، ويتولى البندول إعادة ترتيب أو تنسيق أو تنظيم هذه الطاقة.

ومنذ ذلك الوقت وأنا – وملايين غيري – يضعون حول أيديهم أساور من النحاس الممغنط.. وهي صناعة تدر على أصحابها أكثر من 300 مليون دولار سنويًّا!

ولم يخالجني الشك في أن هذه الأسورة، التي تباع في كل الصيدليات في العالم، قادرة على تخفيف آلام المفاصل والصداع.

وفي الأسبوع الماضي نشر اثنان من العلماء الإنجليز في «الصحيفة الطبية البريطانية» أنهما أجريا تجارب عديدة على أكثر من عشرة آلاف من الذين يضعون الأساور النحاسية المذهبة والممغنطة حول أيديهم، فلم يجدوا لها أي أثر، سواء كانوا صغارًا أو كبارًا، أوروبيين أو من القارات الأخرى. إذن كيف؟ يقول العلماء الإنجليز ليس هناك إلا شيء واحد وهو العامل النفسي.. وإنما هذه الأساور النحاسية مثل (البلاسيبو) أي الأقراص أو الحبوب البديلة عن الدواء الحقيقي.. يتعاطاها المريض ويشعر أنه قد استراح أو أنه قد شفي تمامًا، مع أنها ليست إلا تقليدًا للحبوب الحقيقية.. وكذلك هذه الأساور..

وخلعت الأسورة من يدي، بعد أن التفت حولها عشرين عامًا!

واعترض الرئيس عبد الناصر فتوقفت

وظللت أكتب عن الموضة واصفًا أزياء المرأة أكثر من عشرين عامًا وبأسماء مستعارة هي: أحلام شريف ومني جعفر وهالة أحمد وسيلفانا ماريبللي. ولا يعرف أحد أنني الذي أكتب وأصمم الصفحات، والسبب أن زميلاتي في المجلات التي رأست تحريرها لا يعرفن الفرنسية جيدًا، وليس في متناولهن أن يتابعن مجلات الموضة. وقد رأست تحرير مجلات: «الجيل» و «هي» و«آخر ساعة» و«أكتوبر» وجريدة «مايو» وهي جريدة الحزب الوطني الحاكم في مصر.

وقد وقع حادث في سنة 1970 جعلني أتوقف نهائيًا عن الكتابة عن الموضة، فقد حضرت عرضًا في القاهرة، وكنت قد حضرت عروضًا في روما تحت اسم نسائي هو أنيس منصور، أما الذي حدث فهو أن الأزياء لم تعجبني وفي نفس الوقت لم تعجبني مشية العارضات، فالأصل في عرض الأزياء أن تكون العارضة مجرد شماعة تعرض الفستان وليست فتاة راقصة تعرض نفسها لا فستانها، ولذلك تفنن مصممو الأزياء في جعل مشية المرأة آلية جافة كأنها روبوت، حتى يلتفت الرجال والنساء إلى فستانها وليس إلى التي ترتدي وتتمخطر، وإنما الذي وجدته أن العارضات المصريات قد تحولن إلى

راقصات، وكانت عارضة الأزياء الأولى في ذلك الوقت هي الفنانة الآن رجاء الجداوي والتي خالتها الراقصة تحية كاريوكا، وكنت أقول إن كاريوكا يجب أن تخرج فورًا من عروض الأزياء المصرية، فالمثل الأعلى في الخارج هو راقصة الباليه أو الإنسان الآلي، وعندنا كاريوكا وسامية جمال!

حتى الآن لا بأس، ولكن لاحظت علامة زرقاء على ساق إحدى العارضات وتساءلت إن كانت هذه العلامة قد رسمها مصمم الأزياء، أو هي انتقلت من أحد الفساتين إلى بشرة العارضة أو هي ما تبقى من أصابع أو أسنان!

وفي اليوم التالي جاء وكيل المخابرات المصرية السيد إبراهيم بغدادي يسأل الأستاذ مصطفى صاحب مؤسسة (أخبار اليوم) وصاحب مجلة «آخر ساعة» عن المحررة التي كتبت هذا المقال، فقال مصطفى أمين: إنها ليست محررة، إنها رئيس التحرير، وتساءل وكيل المخابرات: هل هذا يليق؟ إن الرئيس جمال عبد الناصر قد تضايق من مثل هذه الإشارات والتلميحات وإنه لا يجب هذا الخروج عن الأدب واللياقة!

ولم يتساءل أحد: وما الذي جعل الرئيس يترك كل هموم السياسة والاقتصاد ويلتفت إلى ساق إحدى العارضات!

وتوقفت!

بتلوموني ليه.. ليه بتلوموني؟!

منذ أيام أقامت الجامعة العربية حفلاً موسيقيًا في دار الأوبرا لكي توزع الدروع على من تراهم يستحقونها من الفنانين ومديري الفرق الموسيقية. وأعلنت د. رتيبة الحفني عن مفاجأة، والمفاجأة هي شاب يؤدي الأغنيات الرصينة، وقالت لي إنها أنقذته من الغناء التافه في الفيديو كليب، وغنى الشاب، ومن أول دقيقة قلت لها: كان يجب أن يتدرب أكثر، فقالت «إنه كان مصابًا بالإنفلونزا» وعدت أقول لها: لا يصح أن يتصرف وهو الصغير في ألحان عبد الوهاب، فهذا عجز منه، وفي نفس الوقت ليس أمانة. وعدت أقول لها: لأن الشاب شكله لطيف فهو لا يصون صحته، لا بد أنه يسهر وأنه وأنه، لأن نفسه قصير والغناء هو فن تنظيم النفس.

ثم غنى لنا: بتلوموني ليه؟ لمحمد عبد الوهاب، وهنا دارت رأسي وداخت، وانشغلت تمامًا عن الأصوات حولي، وعدت بسرعة إلى ما حدث منذ أكثر من خمسين عامًا، عندما ذهبت مع عبد الحليم حافظ والموسيقار كمال الطويل والشاعر الغنائي مأمون الشناوي إلى مكتب الموسيقار محمد عبد الوهاب، أما سبب الزيارة فهي أن يستمع عبد الوهاب إلى صوتي، فإن أعجبه تركت التدريس في الجامعة والصحافة واحترفت الغناء، فقد كنت أغني في الحفلات المدرسية، وفي أسرتنا أصوات جميلة: أبي وخالي وخالتي وخادمة، وأنا.

وقد أسمعت عبد الحليم صوتي طويلاً وكثيرًا، وكان عبد الحليم في أول حياته الفنية هو الذي يستمع إلينا، فلم يكن قد غنى سوى أغنيتين من تلحين محمد الموجي، وكان يجيء لنا لكي ننشر عنه خبرًا أو ننشر له صورة.

ولما ذهبت للقاء عبد الوهاب كان يمسك العود، وقد جلست أمامه على الأرض فتاة ريفية تغني، وكان عبد الوهاب يقول لها: الله. وأدهشني أن صوتها لم يكن جميلاً، فالتفت أقول لعبد الحليم حافظ: ولكن صوتها ليس جميلاً، فقال عبد الحليم حافظ عبارة ضربتني في دماغي وعجلت بخروجي وعودتي إلى مكتبي وإلى عقلي، قال: ألا تعرف أن عبد الوهاب مجامل؟ قلت: مجامل؟ يعني يقول لي أنت صوتك حلو فأترك الجامعة والصحافة وأتسول؟! وفي التليفزيون حكيت هذه الحادثة، وفي التليفزيون أيضًا رد عبد الوهاب قائلاً: إنني ظلمته، لم أعطه وقتًا كافيًا، وعلى كل حال إذا كنت خسارة على الطرب فأنا مكسب للأدب. والتقيت عبد الوهاب بعد ذلك كثيرًا وطلب مني أن أغني ورفضت، إلى أن كان يوم دعاني للغداء، ولم يكن معه أحد في البيت، لا زوجته ولا الطاهي، وجلس عبد الوهاب وأمسك العود، وقال: حتسمعني إيه؟ قلت له: بتلوموني ليه. وغنيت، وهو يقول: الله، وأنا أقول: لا أصدقك. وقلت للدكتورة رتيبة الحفني: صوتي أحسن من صوت هذا المطرب، فقالت: ما رأيك لو أعلنت أنك سوف تغني.. إيه رأيك.. قنبلة؟ وقلت لها: كان زمان. وفي ذلك الوقت كنا أربعة من الصحافيين نغني. وقد أطلق علينا الشاعر كامل الشناوي اسم (فرقة البلابل الموسيقية) يرحمهم الله جميعًا، ذهبوا وبقيت هذه النكتة!

أحب الطغاة إلى قلب المرأة

شعراء ورسامون وموسيقيون هؤلاء الذين يصممون أزياء المرأة. إنهم يكتبون بالقماش على جسم المرأة، إنهم قادرون على إخفاء وتعرية ما يريدون من جسمها، وخطوطهم قضاء وقدر، ولا راد لها، فالمرأة تمشي وراء الموضة بدون تفكير، وهي براعة فريدة كيف يرسمون ويغيرون ويبدلون الحرير والقطن والخيوط الصناعية كل موسم وكل سنة، وليس القماش فقط في طوله وعرضه، وإنما طول الذيل نازلاً صاعدًا وطول الأكمام وخط الرقبة، وإذا غطوا الصدر كشفوا الظهر، وإذا أطالوا الذيل تعرى الذراعان.

ومن خمسين عامًا وهم عاجزون تمامًا عن إعادة خط الذيل إلى ما كان عليه في أوائل الخمسينيات عندما ابتكر ديور (النيولوك) فطال الفستان، وقد وقفت به شانيل فوق الركبة تمامًا، ثم جاءت موضة الشوال ومن بعدها موضة سابرينا أي خط الأكمام إلى الكتفين، مع استقامة خط الرقبة.

ولا منطق للموضة نفسها، وإنما الموضة هي التي تفرض المنطق، فعندما كانت هناك أزمة النسيج بعد الحرب العالمية ظهرت موضة ديور فأطالت الذيل ووسعت الفستان، وعندما ازدهرت صناعة النسيج في الدنيا، قدمت مصممة الأزياء البريطانية ماري كوانت

موضة الميني والميكرو، وتمسكت المرأة بالموضة التي تكشف الساقين، ولا تريد حتى الآن أن تحيد عنها، ولا استطاع مصممو الأزياء. وقال مصممو الأزياء الإنجليز إن الدنيا كلها تنتقل إلى شارع أكسفورد في لندن لتصب ألوف الملايين تحت السيقان الجميلة التي تعرت بقرار شخصي من الآنسة ماري كوانت التي أغرقتها ملكة بريطانيا بالنياشين. ولم يعد منافسًا لبنات أوروبا إلا بنات اليابان، فبعد الاحتلال الأمريكي اعتدلت سيقان الفتاة اليابانية، ولم تعد أمها تحملها على ظهرها منفرجة الساقين وإنما تركت أطفالها تمشي على الأرض تقع وتنهض عشرات السنين، فاستقامت سيقان المرأة ولم تعد في حاجة إلى ارتداء الكمونو الذي يستر اعوجاج الساقين، ولأن اليابانيين تعلموا أن يأكلوا اللحوم، فقد طال قوام المرأة وانكشفت ساقاها الجميلتان، وحارت العيون بين لندن وباريس وطوكيو. وأذكر أنني سافرت إلى أوكرانيا وكان الجو حارًّا ونقلت عني الصحف أنني قلت إن هناك معاهدة غير مكتوبة بين بنات أوكرانيا والشمس. الشمس تلهب الجو، فتضاعف الجميلات تعرية سيقانهن، في أوكرانيا أجمل نساء الدنيا صدقني!

ولا شيء يدل على قلق المرأة إلا الموضة، هي تريد تغيير ما ترتديه ومصممو الأزياء يمشون وراءها، لتمشي هي وراءهم، وتشتعل المنافسة من حملة المقصات وصناع الحرير والقطن ومقصات الكوافيرات ومصانع التجميل في الدنيا، إنها جميعًا تعمل في خدمة قلق المرأة وزيادته، ولا اعتراض من أحد، لا المرأة تعترض ولا الرجل الذي يدفع يعترض، إن رجالاً من نوع خاص هم المستبدون في حياة المرأة، إنهم مصممو الأزياء. إنهم أحب الطغاة إلى قلوب النساء وأبغضهم إلى جيوب الرجال. ورأي الرجل لا يهم!

تعيش وتموت من أجل الإنسان

ملايين الحيوانات والزواحف والحشرات والطيور تموت فداء للإنسان في كل المعامل البحثية، ولولاها ما عرفنا فوائد أو مضار العقاقير والسموم. ويوم احتجَّت جماعات الرفق بالحيوان على أن روسيا أطلقت كلابًا وقردة إلى الفضاء الخارجي، لم تشأ روسيا أن ترد عليهم؛ لأن هناك ألوف الكلاب والقطط والفئران تموت يوميًا من أجل أن يحيا الإنسان في صحة وعافية، فلماذا لا يحتجون على ذلك؟

وذهب العلماء إلى الاستفادة من هذه الحيوانات في حل كثير من المشاكل، فحمام الزاجل قد علقوا في رقبته أجهزة التنصت ليعرف العلماء اتجاه الحمام وارتفاعه عن الأرض وتصوير المناطق التي يطير فوقها.

واستخدموا القردة والفيلة والثعالب ليعرفوا نشاطها في الغابات وانتقالها من مكان إلى مكان. واستخدموا الدرافيل في تصوير أعماق البحار واستخدموها أيضًا في تصوير الألغام العائمة والتي استقرت في قاع البحر، وأخيرًا استخدموا أسماك القرش وتدخلوا بأجهزة إلكترونية تلتقط من مخ هذه الحيوانات الرسائل التي تطلقها والرسائل التي تتلقاها، ثم وجهوها وراء السفن والغواصات.

وقبل ذلك استخدم الأمريكان النحل ليهتدوا إلى الألغام الأرضية، وذلك بأن عودوا النحل على رائحة الحديد في نفس اللحظة التي يمتص فيها رحيق الزهور، وقد جربوا ذلك في الصحراء المصرية، حيث استقرت ملايين الألغام.

وأذكر أنني عندما كنت رئيسًا لتحرير مجلة «الجيل» سنة 1960 نشرنا تقريرًا عن غرق أحد إخوة وزير الزراعة د. يوسف والى، وكيف أن أحد الدرافيل في البحر الأحمر قد أنقذه وجرجره إلى الشاطئ، وأكثر من ذلك أن حذاءه كان قد استقر في قاع البحر قرب الشاطئ، فذهب الدرفيل وأمسكه بأنيابه وألقى به على الشاطئ.

وبعدها بأسبوع تلقيت رسالة من السيرك القومي في كاليفورنيا يطلب مني بحثًا مفصلاً عن هذه الواقعة ويسأل إن كان من الممكن أن يبعث لنا من يقوم بتجارب أخرى مع هذه الدرافيل. وانشغلت عن الرد على هذه الرسالة، ففوجئت بوفد من مدربي الدرافيل وعلماء الأحياء المائية قد وصلوا إلى القاهرة، وذهبوا إلى البحر الأحمر وقاموا بتجارب على إنقاذ الغرقى ثم جربوا أنواعًا من العطور والروائح الطاردة، وجربوا هل تقوم الدرافيل بإنقاذ الحيوانات الأخرى، مثل الكلاب والقطط والطيور! وهل إذا كان الغرقى من الجنود وفي ملابسهم رائحة البارود، فكيف ينقذون قواتهم ويتركون قوات الأعداء؟

صعب أن تكون رشيقًا!

الجوع والنوم وراحة البال، هي عناصر الصحة والجمال، أما كيف يجتمع الجوع والنوم، أو الجوع وراحة البال. فهذه مشكلتك أنت إذا أردت أن تكون رشيقًا ولك بشرة ناعمة طرية وخفيف الوزن والدم، وهي نصائح يطالب بها أطباء الصحة والجمال.

ولكن هناك نظرية أخرى تقول: تناول أي شيء، ولكن قليلا، أو تناول كل هذه الأشياء لا في وجبة واحدة وإنما في عدة وجبات، ثلاثًا، أربعًا، المهم أن تكون الكميات قليلة، فلا تشعر بالامتلاء أبدًا!

وحياة عارضات الأزياء هي أحسن نموذج لذلك، فقد يمضي اليوم كاملاً، ولا تأكل فيه عارضة الأزياء إلا عودًا واحدًا من الخس أو نصف تفاحة وفنجانًا واحدًا من القهوة وضعف هذه الكمية من الماء، وهكذا لا يزيد وزنها جرامًا واحدًا في أي يوم! وفي حديث لنجمة السينما الفرنسية كاترين دنوف، والتي كان لها تمثال فرنسا الفتاة سنوات طويلة، أنها استطاعت بعد مجاهدات نفسية وعقلية وجسمية أن تهتدي إلى الحل السعيد، أو التركيبة الجميلة أو الوصفة الذكية ليظل جمالها ورشاقتها أطول فترة ممكنة، والوصفة الذكية ليست فوق مستوى قدرة الإنسان، وإنما هي ممكنة لكل إنسان.

ففي الصباح فنجان قهوة بلبن، وبسكوتة واحدة، وربع تفاحة، أما الغداء فقطعة لحم صغيرة وخضار مسلوق، وقطعة من الجبن وربع تفاحة، وفي الليل - هذا إن شعرت بالجوع - فنجان من شربة الخضار وقطعة جبن. يضاف إلى ذلك بعض التمارين الرياضية والمشي والمشي والمشي.

وأنا أجد هذه الوصفات مستحيلة، وخاصة ما يتعلق بالنوم.. كيف يأوي النوم إلى جسم جائع ومعدة خاوية وهموم ثقيلة؟!

ولقد سألت الراقصة المصرية سامية جمال، التي احتفظت برشاقتها حتى السبعين من عمرها، هي تقول بعد أن تحمد ربنا وتشكر فضله على الراحة والنوم والصلاة والصوم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع ومنذ سنوات، أنها استطاعت أن تتخذ لنفسها أسلوبًا في الأكل والشرب والنوم والرياضة اليومية، والنتيجة أن ظلت كما كانت في شبابها رشيقة خفيفة الوزن والحركة.

شيء واحد اتفقت معها فيه، فأنا لا آكل طعامًا به ملح، ولا به سكر، فأنا أستعيض بالليمون عن الملح، وبعسل النحل عن السكر، حتى يمكنني أن أقول إنني لم أذق طعم السكر في حياتي والملح معظم حياتي.

مع فارق آخر هو أنني لا أعرف كيف كنت أنام زمان، ولا أعرف كيف لا أنام الآن!

العرب ظاهرة صوتية.. وسوطية!

في أول عهدنا بالسلام مع إسرائيل كان الصحافيون وغيرهم يتزاحمون في مصر يريدون أن يعرفوا وأن يروا، أما المصريون اليهود فهم يتجهون إلى حيث كانوا يعيشون عشرات السنين ويجدون من يعرفهم في المطاعم وصالونات الحلاقة، ويسمعون ويسجلون ويصورون.

وطلب مني الصحافي الإسرائيلي عوديد زراي أن يرى الإذاعة، وقد هاله مبنى الإذاعة والتلفزيون، فإذاعة إسرائيل صغيرة ضعيفة هزيلة، والعاملون فيها عشرات أما العاملون في الإذاعة المصرية فعشرات الألوف.

ولم يكد يسمع صوت اللحن المميز لإذاعة «صوت العرب» حتى امتقع وجهه واصفر، فقد كان هذا اللحن يجيء من بعيد: أمجاد يا عرب أمجاد، ورحنا نقترب حتى وقفنا أمام نافذة ومن خلالها رأينا شريطًا مسجلاً يدور: أمجاد يا عرب أمجاد، الشريط يلف وإلى جواره طبق به سندوتش فول وكوب من الشاي وبس، وأمجاد يا عرب أمجاد. قال لي الصحافي الإسرائيلي: إنهم عندما كانوا يسمعون هذا الصوت تجف الدماء في عروقهم ويتوقعون انتقامًا دمويًا، فهذه الأسطوانة إعلان حرب يومي على إسرائيل، وأن العرب يتربصون ويستعدون. ولكن بعد أن رأى الأسطوانة وما حولها أدرك: أنه كلام في كلام،

أصوات تدوي، وهي تدوي بصورة آلية، من الخليج إلى المحيط. قال لي: لم أتصور لحظة واحدة أن هذه الأسطوانة سوف تكون مجرد أسطوانة تدور وتزعق، لا أكثر ولا أقل!

إنه أديب سعودي هو الذي قال: إن العرب ظاهرة صوتية، مجرد أصوات لأغنية أو لنشيد أو قصيدة لا أكثر، أو إن العرب ظاهرة سوطية يضربون بها أنفسهم، ويجلدونها ويعذبونها لعجزهم على أن يذهبوا إلى أبعد من الصوت والسوط، وعدنا فمررنا بنفس الاستديو الذي تدور فيه الأسطوانة، ووجدنا أحد المذيعين قد غلبه النوم وهي تدور وتهدد وتتوعد، والذين لم يروها ولم يسمعوها عاشوا في رعب، فقد أصبح صوتها مثل أصوات المدافع والقنابل في الأفلام تسجل لما حدث، وليس لما يمكن أن يحدث بين العرب وإسرائيل. ونحن العرب نعيش على الكلام وبالكلام ومن أجل الكلام، والمثل الذي يجيء في كتب النحو والصرف مثل حقيقي، فيقال إن أحد الولاة أراد أن يعزل القاضي في مدينة «قم» الفارسية فقال له: يا أيها القاضي بقم، قد عزلناك فقم!

أي من أجل هذه السجعة طرد القاضي.

ومن أجل الكلمات والجماليات البلاغية فمن الممكن أن تقع الكوارث، والسبب هو السجعة أو القفشة، وكلها ظواهر في الصوت والأداء.

ولما جاء الفرنسيون بعد حملة نابليون إلى مصر قالوا لبعضهم البعض: يجب أن تتحدثوا إلى العرب كثيرًا، فلا شيء يمتعهم سوى الكلام، وسوى النكتة والقفشة والشعر، إنهم يحبون الكلام، يقولونه ويسمعونه، ولا شيء يضايقهم إلا اختصار الكلام!

كنا هناك ولا ننسى!

أول فيلم حضرت تصويره لم أفهم ما هذا الذي أراه، قد كان ذلك في حديقة الأسماك في الزمالك، وجدت السيدة عقيلة راتب والسيد عماد حمدي قد تمددا على العشب متجاورين وتسلطت عليهما الأضواء القوية، وكاميرا تقترب منهما، وفي ذلك الوقت كنت طالبًا في الجامعة، ولم أكن قد دخلت السينما ولا رأيت فيلمًا. فأنا لم أدخل السينما إلا بعد أن تخرجت في الجامعة، وبعد عشرين عامًا قامت عقيلة راتب بدور البطولة في مسرحية (حلمك يا شيخ علام) ومسرحية (جمعية كل واشكر) ومسرحية (مين قتل مين؟) وكلها من تأليفي!

ثم رأيت فيلم (الوصايا العشر) إخراج سيسل دي ميل وكان يقوم بتصوير خروج اليهود من مصر بالقرب من الهرم، ورأيت كيف تكون الدقة والانضباط الشديد، فقد أعاد تصوير أحد المناظر التي تكلفت أكثر من مليون دولار، فقد أظهرت الكاميرا آثار السيارات على الرمال، وقد رأيت هذا الفيلم مرتين، مرة في بروكسل ومرة في سيدني بأستراليا، وفوجئت بعد عودتي أن سألني الخادم إن كنت قد رأيته وهو واحد من ألوف اليهود الذين أخرجوا من مصر؟

وفي مدينة (نيوكاسل كوم) بإنجلترا دعيت لمشاهدة تصوير مناظر فيلم (دكتور دولتيل) بطولة ركس هاريسون، وكان المنظر هو محاولة أن يتحدث إلى الإوز، وقد ربطوا الإوز بالأسلاك فإذا تحدث إليها شدوها فتهتز رءوسها ناحيته، ولم تفلح كل المحاولات في أن يلتفت إليه الإوز، وقد اكتشف الباحثون أن الإوز لا تسمع وإنما هي تتحرك وفقًا لما تراه!

وقد استغرق تسجيل هذه الحادثة الصغيرة أيامًا مع أنها منظر على الشاشة لمدة دقيقتين!

ورأيت تصوير فيلم (كليوباترا) في الإسكندرية بطولة ريتشارد برتون وإليزابيث تايلور، وكان هذان النجمان في ريعان الحب وأتون العشق وحديث الدنيا وكلاهما إنجليزي، وكان هو في غاية الانضباط رغم الخمر الكثير التي يشربها طوال الليل والنهار، أما هي فعلى مهلها جدًا، إذا نامت وإذا صحت وبين النوم واليقظة في حاجة إلى من يدلك قدميها وذراعيها، وحولها أوركسترا من الذين يتغنون بجمالها ودلالها، وليس على المخرج وكل المصورين إلا أن ينتظروا ست الحسن والجمال.

ودعيت لمشاهدة مشهد دخول كليوباترا روما، لقد كان وصولها قمة الأبهة والفخامة والعظمة، إنها ملكة مصر سلطانة العشق والغرام التي أحبت وأهلكت عشاقها ثم انتحرت، هذا المشهد أعيد تصويره وتكلف مليوني دولار، لماذا؟ لأن كليوباترا وهي في عربتها في قمة الفخامة قد غمزت بعينيها لحبيبها برتون فكان لا بد من إعادة تصوير المشهد كله!

وقد سجلت كل ذلك أخيرًا في شريط للمجلة التليفزيونية: كنا هناك!

حتى تظل رءوسهم على أكتافهم!

هناك طرق كثيرة لكي تفضفض - أي تقول ما في نفسك - تتخفف مما يضايقك، كأن تقول ذلك وأنت نائم، أو تذهب إلى طبيب نفسي وتتمدد على سرير وتقول، وفي زماننا لم يعد لأحد متسع من الوقت لكي ينام على كتف أو صدر أحد ويقول، ولذلك يلجأ الناس إلى أطباء النفس، وبفلوسك تشتري من يستمع إليك، أو تكتب مذكراتك، أو تكتب إن كنت كاتبًا.

أحسن نموذج لذلك سعد زغلول باشا الزعيم المصري، فمذكراته السياسية نوع من الاعتراف، أكلت، اشتريت، أقسمت ألا ألعب القمار، ثم يعود إلى القمار ويقسم ألا يعود مرة أخرى، ويقول إن الملك رفض أن يمد له يده لكي يقبلها، وغضب سعد باشا، وذهب من يصلح بينه وبين الملك، فمد له يده، يقول سعد باشا في مذكراته أو اعترافاته: وأوسعت يده تقبيلاً! غريبة؟ ولكن هذا ما حدث.

بعض الناس يلجأ إلى الكتابة على الجدران، وهذا واضح في كل الدنيا، وقد ذهلت في إحدى زياراتي لباريس أن وجدت على الجدران بخط جميل مثل هذه الهتافات أو اللعنات أو الهلوسات.

ولو كنت في لندن لذهبت فورًا إلى «هايد بارك» حديقة ضخمة مفتوحة لكل الناس، بعضهم يشتم الملكة والوزراء، ويقول ما يعجبه هو وما لا يعجب أحدًا في كل الأديان والمذاهب، وفي حديقة هايد بارك كل أنواع البشر، وكل التجمعات، والكل يشتم ويلعن الكل، والبوليس لا يتدخل إلا إذا تحول الكلام إلى عضلات وأنياب وأظافر. وفي مدينة سيدني توجد حديقة الدومين، وهي الأخرى مثل هايد بارك، اشتركت في إحدى ندواتها على الواقف، ولكن لم أستطع أن أمضي حتى نهايتها، فهي هلوسة وهذيان وأناس مخمورون بلا شراب، وملحدون في حرارة كأنهم مؤمنون.

وفي إحدى قصص الأديب النمساوي «استيفن تسفايج» نجد سجينًا يعيد في ذهنه كل ما حفظ من الشعر ومن آيات الكتاب المقدس، ولما فرغ منها راح يعيدها بالمقلوب، فلما فرغ منها راح يلعب الشطرنج مع نفسه ويغلب، ويتغلب، ولما فرغ منها راح يوقف خصومه في صف واحد ويلعنهم أبجديًا ويقول رأيه فيهم بمنتهى الصراحة، وهو ما لم يستطع أن يقوله علنًا.

والآن اتجهت هذه الاعترافات والمنشورات واللعنات إلى الكومبيوتر، ففي الكومبيوتر مواقع بأسماء مستعارة يقول أصحابها رأيهم في كل الناس، في كل الحكام والمشايخ والقساوسة والكهنة في كل دين.

وقد تابعت بعض هذه المواقع، خسارة أن بعضها ليس معلنًا لكل الناس، ففيها دراسات نقدية جادة، ولكن أصحابها يخافون من

ذراع القانون. وبطش السلطان، المهم إنهم قالوا، ووجدوا من يقرأ لهم، إنها صرخات وصيحات مثل صيحات يوحنا المعمدان في البرية، فيوحنا كان يلعن الإمبراطور الروماني في البرية، لأنه قتل أخاه وتزوج امرأته، فقالت للإمبراطور: هات لي رأس يوحنا المعمدان على طبق وأنا أجعل ابنتي سالومي ترقص لك عارية، ورقصت عارية حول رأس يوحنا المعمدان.

وحتى لا يلقى الناس ما لقيه يوحنا المعمدان اختاروا الإنترنت، فاستراحوا وما أراحوا!

ماء النيل والصلاة في المسجد الأقصى؟!

الأرض يسميها رواد الفضاء الكوكب الأزرق، لأن هذا لون البحار والمحيطات التي تغطي 70٪ من سطح الأرض. وسكان الأرض ستة آلاف مليون يستخدمون واحدًا على الألف من هذه المياه. و 97٪ من هذه المياه مالحة!

هذه الأرض سوف تموت عطشًا.

والذين يرون موت الأرض يقولون: إما أن تقترب الأرض من الشمس فتجف المياه، وأما أن تبعد عن الشمس فتتجمد المياه. وفي الحالتين تموت. وقبل ستين مليون سنة عندما سقط أحد النيازك على الأرض جفت المياه واحترقت المزارع وهلك الديناصور الذي تسلطن على حيوانات الأرض ستين مليون سنة..

وإذا جاءت حروب بعد ذلك فأكثرها شراسة هي حرب المياه، أو الحرب على كوب ماء.. ونستطيع أن نرى صورة مصغرة لها بين لبنان وإسرائيل وفلسطين والأردن، والمعارك الصامتة، وغدًا المدوية، على مياه أنهار الحاصباني والوزاني والأردن. وهذه الدول تعيش أيضًا على تحلية مياه البحر – أي إنها تشرب من البحر. وكذلك كل دول الخليج.

ويوم أقامت تركيا سدودًا على منابع دجلة والفرات صرخ العراق وسوريا. فمن تركيا ينبع هذان النهران. ومثل هذه السدود والبحيرات عند المنابع تؤدي إلى نقص المياه في العراق وسوريا، أو تخلق خوفًا وهلعًا. ونحن في مصر نفزع من الشائعات التي تقول: إن إسرائيل تبني سدودًا في إثيوبيا. وهذه السدود تهدد بنقص مواردنا من المياه، وأكثر الماء يجيء إلينا من إثيوبيا. وفي السودان توجد مستنقعات هائلة تتعرض لأشعة الشمس التي تبخرها. ولذلك قمنا بشق قناة جونجلي لكي تصب فيها المستنقعات وتتفادى التبخر الهائل لها.

وأذكر أننا كنا في بيت وزير خارجية إسرائيل، وبعد العشاء اقترحوا: ولماذا لا نلعب لعبة الأمم.. ولعبة الأمم معناها أن نجلس جميعًا إلى مائدة مستديرة ونقترح موضوعًا نبحثه معًا.. بشرط أن يتولى كل منا عرض وجهة نظر دولة من الدول. واقترحت أنا أن يكون موضوعنا (المياه في الشرق الأوسط) أو حرب المياه المنتظرة غدًا أو بعد غد.

واختلفنا ولكن شعورنا بخطورة الموقف هو الذي جمع بيننا، ويوم طلب مني الرئيس السادات أن أكتب خبرًا، يراه هو (بالون اختبار) قال لي: انشر أن السادات يريد أن تصل مياه النيل إلى القدس وأن يتوضأ منها الفلسطينيون ويصلوا في المسجد الأقصى.. وقال: أنا أعرف أننا لا نستطيع لأن اتفاقيات المياه بين دول أعالي النيل تمنع ذلك، ولكن أريد أن أعرف رد الفعل!

ونشرت الخبر. وكان رد الفعل عنيفًا. وكان من رأي السادات أيضًا أن دول أعالي النيل سوف توافق إذا تلقت معونات مالية واقتصادية، وإذا اشتدت أزمة المياه في الشرق الأوسط.

مبادئ (ستي) للعثور على الكائنات الذكية!

كما أننا لا نعرف عدد النجوم في الكون، فكذلك لا نعرف عدد الكواكب التي تدور حولها، ولا نعرف أيضًا عدد الكواكب التي من الممكن أن تكون بها حياة ميكروبية أو حياة ذكية، ولكن مرجريت ترنبل أحد علماء الفلك في معهد كارينجي الأمريكي قدمت لنا خريطة، وهذه الخريطة بها المواقع التي يمكن أن تتجه إليها المراصد العلمية لتبحث في جو هذه الكواكب عن الغازات وذرات المعادن التي تساعد على الحياة، وقد رصدت هذه العالمة منطقة من 15 ألف منظومة كالمنظومة الشمسية التي نعيش فيها وندور حولها، فليس من الطبيعي أن نرصد ونتتبع كل المنظومات وعددها ألوف الملايين.

وقد ظهر علم فلكي جديد اسمه «ستي» وهو اختصار كلمات إنجليزية هي: «البحث خارج الأرض عن كائنات ذكية». والعلم الجديد ينطلق من مجموعة من المسلمات السهلة:

أولاً: لابد أن تكون هناك كائنات ذكية في هذا الكون، فليس معقولاً أن نكون وحدنا في الكون اللانهائي، وليس من الضروري أن تكون الكائنات الذكية مثلنا طولاً وعرضًا وعينين وأذنين وذراعين وساقين، فلا حدود لقدرة الله على الخلق، فكما أن هناك ملايين

الكائنات أشكالاً وألوانًا والحشرات والزواحف والطيور هناك أشكال ذكية.

ثانيًا: إن الوصول إلى هذه المنظومات ممكن كلما تقدمت صناعة العدسات، وتقدمت سفن الفضاء التي تحمل عدسات وتضع مراصد على الأقمار والكواكب في هذه المنظومة.

ثالثًا: إن العلماء يستخدمون الآن مراصد تعتمد على الموجات الراديوية التي تتلمس الدلالات في أجواء كواكب كثيرة في الفضاء السحيق.

رابعًا: إن العلماء كانوا يعتمدون في الدرجة الأولى على اليقين بأن هناك كائنات ذكية، بعد أن سجلوا موجات عالية التردد تبعد ألوف ملايين الكيلو مترات، وهذه الموجات منتظمة التردد.. ومن حين إلى حين، وقد تمكن العلماء من أن يميزوا بين الموجات التي تصدر عن النجوم في دورانها وميلادها وموتها وهذه الموجات المنتظمة.

وقد رصدت العالمة الأمريكية ترنبل مئات الموجات مختلفة التردد، بعضها يستغرق لحظات وبعضها دقائق، وليست في كل ساعات الليل والنهار، وقد رصدت وجود الجديد في أجواء هذه الكواكب البعيدة، ورصدت أجواء لهذه الكواكب، وقد تكون فيها سحب والسحب بها ماء، والماء مصدر لكل حياة، ولا يزال العلماء يحاولون العثور على الماء في الكواكب الشقيقة لنا: المريخ والمشترى وعطارد ونبتون، فمن هذه الكواكب جاءتنا الحياة على كوكب الأرض، وما زلنا في البداية والمشوار طويل والعلماء يحاولون.

موعود: أجمل الأغاني الحزينة!

كانت متعة عظيمة عندما أذهب لحضور بروفات الأغنيات الجديدة لكبار الملحنين.. عبد الوهاب والسنباطي وفريد الأطرش والموجي والطويل وبليغ حمدي، فالناس عادة يستمعون إلى الأغنيات، بعد أن يستقر المؤلف والمطرب على صورتها النهائية، أي بعد محاولات كثيرة في تغيير الأداء وأحيانًا الكلمات.

وهؤلاء الملحنون مثل الكتاب، فالكاتب يكتب ويمزق ما كتبه ويعدل عنه نهائيًا، وكثيرًا ما كتبت وبعد أن فرغت من الكتابة لا تعجبني فأمزق الأوراق وأعدل عن الكتابة، لأنني لست قريبًا إلى المعنى، ولذلك فالكلمات والتعبيرات لا تواتيني، والقارئ لا يرى ذلك، فلا يهمه كل ذلك، وإنما هو مثل الزبون على حق دائمًا، فالذي لا يعجبه كلام فارغ أو لحن تافه، فشعار المجتمع الاستهلاكي : إن الزبون على حق!

حضرت بروفات أغنيات أم كلثوم من تلحين عبد الوهاب والسنباطي وزكريا أحمد، هو يقول وهي تقول وراءه، ويقول وتردد، وأحيانًا لا تستريح إلى الأداء لتضيف من عندها فيقول الملحن: الله يا ست.. الله يا ثومة.. تاني، وتعيد أم كلثوم.

وهناك طريقة لتحفيظ اللحن الجديد، بأن يغنيه الملحن كاملاً ويسجله ويبعث به لأم كلثوم أو عبد الحليم أو فايزة، وتسمعه هي وتعيد وتزيد حتى تحفظ اللحن كما أراد الموسيقار، وأحيانًا يجد الملحن أن أم كلثوم قد غيرت وبدلت وأعجبه ذلك، وأحيانًا لا يريدها أن تغير ما أعده لها.

أغنية واحدة من عشرات الأغاني التي سمعتها أوجعت قلبي وأذابت دمعي، إنها أغنية «موعود» تلحين بليغ حمدي، وهي من أروع ألحان بليغ حمدي ففيها زخرفات جمالية من الصعب أن يضعها موسيقار في أغنية واحدة، سألت عبد الوهاب عنها فقال: إن بليغ حمدي إذا اهتدى إلى جملة فإنه يظل يوظفها ويشكلها ويلونها حتى يستحيل على أي أحد آخر أن يضيف إليها.

قبل الحفلة كنت في بيت عبد الحليم حافظ، وكان مريضًا، يغني والماء والدواء في يده، ويغيب لحظة ليضع «فتفوتة» من الخبز في فمه، ساعة وراء ساعة، ونحن نقول: الله يا حليم.. الله.

طبعًا ذهبت، ولكن قلبي يدق عاليًا، وكنت حزينًا فقد أشفقت على عبد الحليم، وجاء وغنى وصفقنا، وكان يختفي وراء الستار ليشرب دواء، وأفسد عبد الحليم سعادتي، فقد كنت أخشى أن يموت في تلك الليلة وأن يكون موعودًا بالموت على المسرح، والحمد لله لم يمت في تلك الليلة الجميلة الحزينة، وحبست دموعي، ولكنها جاهزة في كل مرة أستمع إلى هذه الأغنية.. أبكيه وبليغ حمدي أيضًا!

لأن لنا اهتمامات أخرى!

لم أعرف أن والدي قد نذرني لأن أكون من رجال الدين، ولم لا؟ فقد حفظت القرآن الكريم دون العاشرة، وعشرات من القصائد الدينية، ومن الأوراد: البردة النبوية للبوصيري ونهج البردة لشوقي والهمزية للبوصيري، وعددًا لا بأس به من الأحاديث النبوية، كل ذلك وأنا في الكتاب - بتشديد التاء- ولا أعرف القراءة والكتابة، وكان عمي أحد أساتذة الأزهر، وأعز أصدقاء والدي كان إمامًا لمسجد الشيخ حسين في المنصورة ومسجد أبو حمص بمحافظة البحيرة، وأنا لم أسمع من والدي شيئًا من ذلك ولا أمي، وإن كانت تكره تمامًا أن أكون شيخًا أزهريًا، وبعد حصولى على الابتدائية وكان ترتيبي الأول، ظهرت فكرة والدي واضحة في أن ألتحق بالأزهر، وفي هدوء تام جمعت أمي حاجياتها وعادت إلى بيت والدها، لا أعرف ولم أسمع نقاشًا بينها وبين والدي، ويبدو أنهما حرصا على ألا أكون طرفًا، وبعد أيام عادت والدتي، وهي تريد أن أكون مثل ابن خالتها الذي كان رئيسًا لوزراء مصر، ماتت يرحمها الله، وقرر الرئيس السادات أن أكون وزيرًا للثقافة سنة 1975، واعتذرت، ولو كانت أمي على قيد الحياة لقبلت من أجلها!

شيء غريب، لقد اقتنع آباء ثلاثة من زملائي أن يلتحق أولادهم بالأزهر، فكان منهم العميد والمدير، والتقينا وكأننا لم نختلف في أي شيء، والغريب أن واحدًا من الثلاثة كان شيوعيًّا، والثاني أمه ألمانية مسيحية وأبوه مسلم، ولا يعرف من الإسلام شيئًا، والثالث يوناني وقد أسلم.

وفي التاريخ نماذج كثيرة رفيعة المستوى لعظماء كان من المفروض أن يكونوا قساوسة، ولكن تغلبت عليهم نزعاتهم الخاصة، فالجراح الإيطالى فلابيوس هرب من الدير، والشاعر الإنجليزي مارلو هدد بالموت إن صار قسيسًا، والفلكي العظيم كيلز والعالم الجليل دارون والفيلسوف الفرنسي الملحد زينان والزعيم السياسي السفاح ستالين والمؤرخ والمفكر العظيم ول ديورانت وهو مؤلف «قصة الحضارة»، وهي تحفة أدبية تاريخية فريدة، ومؤلف «قصة الفلسفة اليونانية» و «قصة الفلسفة الحديثة» وقد ترجمها الدكتور زكي نجيب محمود، ومؤلف «مباهج الفلسفة اليونانية» و«قصة الفلسفة الحديثة»، وقد ترجمه الدكتور أحمد فؤاد الأهواني.

وعندما جاء ترتيبي الأول في التوجيهية تلقيت هديتين في وقت واحد: مبلغ خمسة وعشرين جنيهًا، و«قصة الفلسفة الحديثة» ترجمة أحمد أمين وزكي نجيب محمود، وقال لى زكي نجيب محمود: إن أحمد أمين لم يضع قلمًا في هذا الكتاب، ولكن لأنه الناشر فقد وافق زكي نجيب على وضع اسمه قبل اسمه على الغلاف، وزكي نجيب محمود هرب من المدرسة حتى لا يذهب إلى الأزهر لأن له اهتمامات أخرى!

وأرغم ابن خلدون على أن يبيع بغلته!

احتفلنا ولم نحتفل بمرور ستة قرون على وفاة المؤرخ وفيلسوف التاريخ ابن خلدون، وكتبت بعض المقالات أنه ولد منذ ستة قرون، وقالوا بل مات. ومن المؤكد أننا لم نبذل جهدًا كبيرًا في يوم مات أو يوم ولد.. ولو كان مطربًا أو راقصًا لغنينا وطبلنا وزمرنا كثيرًا وطويلاً، المهم أن الاحتفال كان فاترًا، كأننا لم نرغب في ذلك، ووجدنا أنه لا يستحق!

المهم أنه ولد في تونس، ومات في مصر، وأسرته قد نزحت إلى مدينة إشبيلية الأندلسية.. وكانت حياته مثل مماته فيها الكثير من الشك والقلق.. وقد كان يدخل في أحضان السلاطين والأمراء ليطردوه إلى بلاط سلطان آخر.

ورأى المؤرخون أيضًا أنه أول من كتب (الترجمة الذاتية) – أي قصة حياته– بين أهله والناس ومن بلد إلى بلد، وأثر ذلك في نفسه وفي فكره، ولما استقر مقامه بضع سنوات ألف كتابه الشهير «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» وكان في الخامسة والأربعين من عمره، ولكن مقدمة هذا الكتاب هي الأهم والأخطر. ولما جاء إلى

القاهرة وصفها وصفًا يستحق الشكر عليه؛ قال: رأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم وكرسي الملك، تلوح العصور في جوه، وتزهر المدارس بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، وقد مثل شاطئ بحر النيل نهر الجنة وموقع مياه السماء. ومررت حتى سكك المدينة تقضي بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم. ومن ألطف مغامرات ابن خلدون لقاؤه مع ملك المغول وقائدهم الشهير تيمور لنك، ذهب إليه يحمل الهدايا ويطلب الأمن والأمان للعلماء والقضاة، وسأله تيمور لنك عن علمه وعن الناس، وقال ابن خلدون، ثم وقعت مفاجأة لم يقف عندها ابن خلدون طويلاً، فقد سأله تيمور لنك: بلغني أن عندك بغلة جميلة؟ قال ابن خلدون: هدية لك أرجو قبولها، ولكن تيمور لنك أصر على شرائها، وأرسل له ثمنها عندما عاد ابن خلدون إلى مصر!

نعود نقرأ ما حدث.. فالرجل الذي ما بين الصين ودمشق، زاغت عينه على بغلة يملكها هذا العالم الفقير، وكان في استطاعة تيمور لنك أن يسوق كل البغال والخيول ما بين الصين ومصر وأن يستولي عليها، ولكنه شاء أن يستولي على بغلة ابن خلدون، وحتى لا يقال إنه اغتصبها كما اغتصب غير ذلك، فإنه قرر شراءها، لأنها بغلة أحد العلماء، كأنه لا يطيق أن يمتاز أحد عنه ولو ببغلة، ولم يشأ أن يرفع قدر ابن خلدون ليقدمها له هدية، وإنما حط من قدره وجعله بائعًا رغم أنفه!

الفن يبكيك ثم تصفق له في النهاية!

كنت رئيس لجنة امتحان المتقدمين للتمثيل في التلفزيون، وكل واحد يختار نصًّا مسرحيًّا ويؤديه أمام اللجنة، وكان شيئًا عجيبًا أن تجد عددًا كبيرًا منهم يمثلون أمامنا نصًّا واحدًا مأخوذًا من إحدى مسرحيات نجيب الريحاني، سألت، فعرفت أن أحد الممثلين قد استأجر شقة قريبة من مبنى التلفزيون ويدرب المتقدمين يومًا بعد يوم على الأداء المسرحي! وفي يوم فوجئت بواحد يرتدي جلبابًا ويلف حزامًا حوله ويمشي حافيًا ويقدم لنا القهوة، فقلت: لا أشرب القهوة، فقال: يا سعادة البيه كده وكده.. يعني أنه لا يعمل في البوفيه وإنما هو ممثل، وضحكنا واقترب وقال وضحكنا، ثم خلع الجلباب أمامنا لنرى بنطلونًا وقميصًا شيكًا وكرافتة، أما هو فمدرس ويريد أن يتوب الله عليه من التدريس ووجع القلب وأن يكون ممثلاً.

وجاء واحد واعتذر عن أنه لم يستطع أن يأتي بالكلب فقد منعوه من دخول التلفزيون، وأوضح فقال: إنه كان قد أتى بكلب، وهذا الكلب ضروري لأن الحوار كله مع الكلب، وطلبنا إليه أن يتخيل أنه يتحدث إلى كلب، وكان يحمل إحدى الحقائب وراح يتحدث إليها، وأضحكنا ثم أمرنا بطرده عندما التفت إلينا (اللجنة كانت تضم مديحة يسري

والمخرجة إنعام محمد على والناقد حسن إمام عمر)، فقد اتجه إلينا الممثل وقال بصوت صارخ: أيها الكلاب أنتم يا أولاد الأفاعي، يا أحط أنواع البشر، من الذي أتى بكم إلى هنا، إن مكانكم التاريخي هو في صناديق الزبالة، يا زبالة التاريخ. وقلت: امش اخرج بره يا قليل الأدب والفن والمسرح، اخرج عليك اللعنة!

وجاء الدور على سيدة تحمل طفلها الذي لا يكف عن البكاء، وكدنا نبكي عندما قالت إنها جاءت من الإسكندرية دون إذن من زوجها، تريد أن تحقق أملها في أن تكون ممثلة، فالتمثيل هو وسيلتها الوحيدة إلى الخلاص من زوجها، وكان لا بد أن نحمل الطفل أي واحد منا، وأن نهدهده إلى أن تفرغ أمه من التمثيل وتعود إلى الإسكندرية عندما انفتح الباب وجاء رجل ووقف إلى جوارها وبدا عليها الفزع وصفعها مرة ومرتين ولم تفزع فظننا أنه زميل لها في الأداء المسرحي، ولكن عرفنا أنه زوجها ثم انهال عليها ضربًا، ولما حاولنا أن نمنعه أو نلقي القبض عليه فوجئنا به راكعًا يتوسل إلينا أن نطلق سراحه، وكان صوته قويًا وأسلوبه في التعبير مؤثرًا، ثم راح يبكي وراحت تصفق له زوجته وكل أعضاء اللجنة، فهو أيضًا يريد أن يكون ممثلاً، ونجح الاثنان، وأسعدني بالأمس أن أراهما على الشاشة في مسلسل جديد. وهذا هو المعنى الذي قصده تولستوي عندما قال: إن الفن نوع من العدوى، فالممثل ينقل إليك مشاعره سواء كانت صحيحة أو كاذبة، فهو يخدعك ويكذب عليك ويبكيك، ولكنك تصفق له في النهاية.

طلبت العروس أن يغني لها إعلانًا!

لأن المطرب الشعبي أحمد عدوية نجح في الغناء والبقاء، فقد ظهر له آباء كثيرون، فقالوا إن أول من اكتشفه الشاعر مأمون الشناوي، وهو أيضًا الذي قدم لنا هاني شاكر، فكان يأخذه من يده إلى النقاد والكتاب ليغني لهم ويتأكدوا من جمال صوته وسلامته. وقالت المطربة شريفة فاضل إنها وجدت عدوية في كباريهات بيروت، وإنها دعته لأن يغني في الكازينو الذي كانت تملكه في شارع الهرم. وعرفنا فيما بعد أن معظم الشعراء الغنائيين ألفوا أغانيه وكذلك كبار الملحنين، ولكن المشكلة أن عدوية كان يغني في الكباريهات والسيجارة في فمه، ويخرج إلى الهواء البارد ثم يعود إلى دفء الكباريهات كل ليلة. ولم يستطع الساخن والبارد والدخان أن يحجب صوت عدوية المبحوح. وكان من المستحيل أن يغني في الإذاعة أو التلفزيون، والسبب: أغانيه المضحكة المعاني والكلمات.

وهاجموه كثيرًا، ولكني رأيت من عشرات السنين أن صوته جميل مميز وأنه أقوى الأصوات الشعبية، وأن لصوته ملامح لا مثيل لها، فكلمني الموسيقار محمد عبد الوهاب وقال لي: «وهذا رأيي ولكني لا أريد أن أغضب المطربين الآخرين».

ثم كان هذا رأي نجيب محفوظ والرئيس السادات. وكانت لنا زميلة سكرتيرة تحرير مجلة «آخر ساعة» التي كنت رئيس تحريرها. وفي زفافها، طلبت أن يغني لها عدوية.. وجاء وغنى وصفقنا ثم سأل العروس: «ما الذي تحب أن تسْمَعَهُ من أغانيه؟»، وكانت المفاجأة أنها طلبت أغنية «خضر العطار»، وهي أغنية إعلانية، أو إعلان غنائي عن الفلفل والكمون والبهارات؟!

وظهرت أصوات شعبية كثيرة كلها خرجت من جيبه الصغير. وما زال عدوية صاحب أكثر الأصوات الشعبية تميزًا وقوة أيضًا.

ولما جاء المطرب الفرنسي الأرمني آزنافور إلى القاهرة وسمع صوت عدوية قال: «لو كان يغني بالفرنسية لأصبح من أغنى الأغنياء، فصوته قوي ملآن شجنًا». وبعض الخبثاء جعلوا عدوية يسمع صوت آزنافور، وقالوا له إن هذا الخواجة يريد أن يغني في مصر. وتساءل عدوية: «هل هو صديق لكم؟». فقلنا: «نعم». قال: «انصحوه بألا يجيء إلى مصر فيزداد عدد المتسولين واحدًا».

ولم ننقل إلى آزنافور ما قاله عدوية!

لأسباب أخرى يضحكون!

ليس صحيحًا أن النكتة مفهومة عند كل الناس، فالذي يُضحك المصري لا يُضحك الياباني، بل إن بعض النكت المصرية لا تضحك المصريين أيضًا.

كان الأستاذ العقاد يضحك كثيرًا وهو يحكي لنا ما دار بينه وبين منصور باشا فهمي في المجمع اللغوي، ففي إحدى الجلسات تناقش الرجلان عن معنى كلمة الزمن والفرق بينها وبين الخلود والأبدية والسرمدية، فكان منصور باشا فهمي يقول إن معنى الزمن هو الفترة المحدودة، أما الزمان فهو الذي ليس محدودًا، وهنا يضحك الأستاذ العقاد ويتساءل إلى أين وإلى متى نمد حرف الألف الموجود في كلمة الزمان ها.. ها.. ها.. ولم نكن نجدها تبعث على الضحك حتى تظهر دموع الأستاذ العقاد. وعندما ذهبت مع طه حسين ليشاهد مسرحية توفيق الحكيم «يا طالع الشجرة» كان طه حسين يضحك وهو يقول: ولكن أخانا توفيق ليس خفيف الدم مثل الشاعر الفرنسي لوتريامون الذي سبقه إلى معاني العبث التي أتانا بها توفيق الحكيم في هذه المسرحية ها.. ها.. ها. ولم يقل لنا طه حسين ما الذي أضحكه كل هذا الضحك في هذه المناسبة.

ومنذ أيام استمعت إلى «موسيقى مضحكة» للموسيقار العظيم موتسارت، هذه الموسيقى من عزف فرقة مصرية بقيادة المايسترو يوسف السيسي، واستمعت وأطلت السمع وانتهت الموسيقى ولم أسمع فيها فرقعة ضحكة من أحد، لا من العازفين ولا من قائد الأوركسترا، ولم أعرف الذي أضحك الموسيقار، وكان من الواجب أن يضحكنا أيضًا؟

وفي (إنجيل يهوذا الأسخريوطي) الذي عثرنا عليه أخيرًا في مدينة المنيا بمصر، مكتوبًا باللغة القبطية، نجد أن المسيح عليه السلام قد ضحك أربع مرات، وفي كل هذه المرات نجد أن الذي أضحك المسيح عليه السلام أن الحواريين يسألونه أسئلة صعبة، فهم بمنتهى السذاجة يسألون أسئلة عن قضايا تتعلق بخلق الكون والبشر.

وكان المسيح عليه السلام يقول ضاحكًا: هذه أمور صعبة لا يستطيع أن يعرفها أحد من البشر. بمعنى أن عقولهم صغيرة وأسئلتهم كبيرة، كما نقول في زماننا هذا؛ لأن أحد الأطفال سألنا بمنتهى البراءة وحسن النية، ما عدد النجوم في السماء؟

فليس أسهل من السؤال ولا أصعب من الإجابة، وكذلك كانت أسئلة تلامذة المسيح عليه السلام. وقد قمت أنا بتجربة شخصية فقرأت هذا المقال على صديقي المفتي (....) فضحك كثيرًا جدًّا على كل هذا الذي قرأت أيها القارئ العزيز، ولم أجد تفسيرًا لذلك.

فهل تجده أنت؟

راجعين يا هوى راجعين!

هنا وقفت في هذا المكان من شارع أكسفورد من عشرين عامًا، هنا بالضبط، وكان الهواء يهب من هذه الناحية، فأدرت رأسي أنفي، كأنني أستعيد الرائحة الجميلة، هل صحيح أنني تذكرت ما كان في تلك اللحظة في الزمن البعيد، أنفي يقول: نعم ولكن عقلي يتساءل: كيف؟ وهل صحيح أنني استمعت إلى صوت فيروز وهي تقول: راجعين يا هوى راجعين.. على درب الهوى.. على نار الهوى راجعين، ومش عارفين رايحين أو جايين، راجعين يا هوى!

فهل صحيح أنني راجع؟ وهل صحيح أنه كان في نيتي أن أعود، أن أرجع، أن أرجع عن ماذا؟ وهل تركت أحدًا أو شيئًا أو مكانًا؟ إنني في هذا المكان لم أبرحه من عشرين عامًا، لا فكرت في أن أتركه، ولا أن أعود إذا تركته، إن موسيقى راجعين يا هوى، موسيقى جنائزية هادئة، موسيقى من ليس عائدًا، ومن ليس تاركًا، وإنما هو في مكانه يدور حول نفسه ويتخيل أنه عائد.

في ذلك اليوم كنت أقول راجعين يا هوى، وهي كانت تقول بالإيطالية: العاشق لا يعود، إنه في مكانه لا يبرحه، وليس له ماض ولا مستقبل، العاشق خارج الزمان والمكان، إنه مثل كل الكواكب

تدور حول نفسها، وحول غيرها من ملايين السنين، لا الزمن ذهب ولا عاد، وإنما كل شيء يتردد، قل لي يا حبيبي هل أحسست أن هناك زمنًا؟ أرجو أن تحترس وأن تجيب عن هذا السؤال، احترس، فإذا قلت كان هناك زمن، فأنت تقول لم يكن هناك حب، قل لي يا حبيبي. وأقول: راجعين يا هوى راجعين. تسألني: ماذا تقول؟ فأنا لا أعرف كيف أترجمه إليك في أية لغة، إن فيروز لم تكن تقصد أحدًا، إنما تقصد كل البشر، ونحن نتساند في حياتنا على أعمدة من الزمان والمكان، فإذا انعدم الزمن فلا حركة ولا إحساس بأي شيء.

مرة واحدة في حياتي كان هذا الإحساس عندما ذهبت إلى أحد مصانع سفن الفضاء، فأدخلوني في غرفة درجة الصوت بها، صفر، أي لا يوجد دسبل، وحذروني من أنني سوف أتساقط إذا لم أتساند على الجدران وقد كان، دخلت فدارت الأرض والسقف والجدران، فأغمضت عيني وتساندت، وأدركوني ففتحوا أبواب المكان والزمان وكأنني قد استندت إلى ألف عمود من الأسمنت المسلح ومثلها تحت قدمي.

فإذا شدنا الحنين وإذا ساندنا الشوق وقفز القلب من بين الضلوع وانحنى العقل أمام كل ذلك، فهذا هو الحبيب الذي إليه راجعون، راجعون يا هوى، درب الهوى، نار الهوى، راجعون!

كثير من الموسيقى.. قليل من الكلام!

لأن الناس ضاقت بالكلام.. تقوله وتسمعه وتقرؤه وتنتظره، فقد اتجهت كثير من الهيئات الإذاعية إلى برامج كلها موسيقى، حتى تسمع ولا يفتح أحد فمه إلا لكي يستحسن أو يلعن هذا الذي يسمعه.

وكنت أول من طلب، وأسعده أن يتحقق ذلك، وما دامت الأغاني في الساعات الصغيرة من النهار، فليس معقولاً أن أستمع إلى أغنية وأنا أقرأ أو أكتب، وذلك بأن تختارني قاضيًا للغرام، فلا توجد أغنية لا يشكو فيها الحبيب من المحبوبة، أو لا يشكو فيه الاثنان من الزمان ومن الغدر، أو يجد المحبوب متعة في العذاب، مثل كل أغنيات الشاعر المصري أحمد رامي وغناء سيدة الغناء أم كلثوم، ففي أغانيه يتلذذ بالعذاب والبكاء، بل يشكو من أنه إذا لم يجد من يعذبه فما الذي يفعله، ويطلب من الله أن يضاعف عذابه وهوانه، فإذا كانت هذه رغبة الشاعر والمطربة، وأنا المستمع الوحيد في هذه الساعات الصغيرة من أي يوم، فما الذي أستطيع أن أفعله، وإذا لم أكن راغبًا في ذلك، أي أن هذا النوع من العذاب والهوان لا يعنيني، وقد صرفني عن القراءة والكتابة، فما الذي أفعله أكثر من أن أغلق الراديو وألعن البرنامج وصاحب فكرة برامج موسيقية بلا كلام، وضاق الناس بذلك فعادوا إلى الأغاني بلا موسيقى!

ففي الأسبوع الماضي أجرى استفتاء – أي معرفة ذوق المستمعين في البرامج الموسيقية – فكانت رغبة الأغلبية، بل نريد موسيقى بلا كلام، أو بكلام قليل هو تعريف بالمقطوعات الموسيقية، مؤلفها وقادة فرقها الموسيقية، أي أن يكون الكلام تعريفًا موجزًا، هكذا: سيمفونية للموسيقار الألماني فاجنر ألفها سنة كذا وعزفتها لأول مرة فرقة كذا بقيادة المايسترو فلان الفلاني ولكن أحس المستمعون أن هذا التعريف غير كاف، وطالبوا بتعريف موجز مفهوم وليس كما كان يفعل الدكتور حسين فوزي، فقد كان تعريفه علميًّا صعبًا. ولا أدعي أنني فهمت مما كان يقوله شيئًا لأنه يتحدث عن تركيب السيمفونية الفلانية التي تداخلت مع الآلة الموسيقية العلانية، وتكون النتيجة أن أحدًا لم يفهم من كلام الدكتور حسين فوزي شيئًا، فالذين يعرفون لا يفهمون لغته العربية، والذين لا يفهمون – مثلي – تستوي عندهم اللغة العربية وأية لغة أخرى، فكلتاهما غير مفهومة. إذن..

لا بد من العودة إلى الموسيقى الخفيفة الخالية من الكلام ومن الشكوى لغير الله عند مطلع الفجر من كل يوم!

نابليون وعدلي باشا.. وهذه الدوخة!

أما الدوخة فهي هذه الحياة التي يتحكم فيها ويحكم الجهلاء بتفويض من الأغنياء.. أين؟ في كل مكان وزمان! ففي أحدث كتاب للعالم البريطاني دزموند موريس، وهو أبلغ علماء الحياة والحيوان، وأكبر العلماء قدرة على فهم سلوكيات الحيوان، ثم الحياة، يقول في كتابه الأخير (ملاحظات) في 350 صفحة: إن نابليون هو الذي غير مسار حياة أسرته من أولها لآخرها، فقد كان جده الأكبر صانعًا ناجحًا واشترك في الحرب ضد نابليون فأصابته قذيفة أطارت وأطاحت بذراعه اليمنى، فكان لا بد أن يغير صناعته وألا يعتمد على ذراعيه، فانتقل إلى صناعة توزيع الصحف والكتب، ثم جاء جده فكان أول من أصدر ووزع صحيفة في المنطقة، وكان يحب القراءة فترك لحفيده دزموند موريس مكتبة ضخمة، هذه المكتبة التي ولد فيها وعاش بها وعليها، وأمتعنا وأسعدنا ولا يزال في عشرات الكتب والأفلام! ويقول أستاذنا الفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي إنها الصدفة.. وإنه أحد الخفراء وألم أصاب العمود الفقري لوالده، بينما كان يسير والده في الطريق سقط منه شيء فانحنى على الأرض يلتقطه عندما انطلق مقذوف ناري لم يصب والده، لأن والده تأخر

لحظات، فلما انحنى حاول أن يعتدل فاستغرق لحظات أطول.. بسبب ألم في عموده الفقري، فلم يصبه الطلق الناري من بندقية أحد الخفراء، فعاش أبوه لكي يولد أول فيلسوف مصري بعد ذلك بعشرة أشهر!

ولولا أن للصوص أخلاقيات، ما ولد كاتب هذه السطور، فقد كان والدي يعمل مفتشًا لزراعة عدلي باشا يكن رئيس الوزراء، ولم تكن في ذلك الوقت بنوك في الأقاليم، ولو كانت لذهب والدي وأودع فيها ألوف الجنيهات في حساب دولة الباشا.. ولذلك كان لا بد أن يحمل الفلوس على حصان إلى قطار السكة الحديد من الصعيد إلى القاهرة، ففي إحدى الليالي وأمام كل الناس خرج والدي على حصانه ووراءه اثنان من الحراس كل على حماره، ووسط حقول القصب في ليلة مقمرة اتجه والدي يحمل فلوس الباشا، وعندما مر والدي فوق أحد الجسور أطلق حصانه صوتًا من أنفه، وهذا الصوت معناه أن الحصان قد رأى أحدًا.. فما كان من والدي إلا أن قال: سلام عليكم – وهو لا يرى أحدًا. فرد عليه اللص قائلاً: وعليكم السلام! ولم يطلق الرصاص على والدي لأن من أخلاقيات اللصوص وأبناء الليل أنه إذا أعطاك الأمان فلن يخونك.. فوالدي ألقى عليه السلام ورد عليه اللص بأنه قد وافق على هذه التحية بأحسن منها.

وقتلوا اللص وعاش والدي.. وأنا من بعده!

حتى لا أقول : آه.. لأي سبب!

زمان جدًا كنت أضع أمامي صورة جاموسة قد استغرقت في النوم بالقرب من بغداد، أي عندما تكون درجة الحرارة في الظل فوق الخمسين، ورغم هذه الحرارة فإن هذا الحيوان قد نام ولم يشبع نومًا. وكنت أضع هذه الصورة أمامي لا لكي أغيظ نفسي، ولكن لأن عندي أملاً في أن أنام مثلها لا في 50° مئوية ولكن في 20° مئوية بفعل التكييف، ولم أستطع إلا قليلاً. وعرفت أن الأمر صعب أن أكون إنسانًا وأنام مثل هذا الحيوان، إذن لا بد أن أكون حيوانًا من ذوات الأربع! ثم من الذي ليس حيوانًا بعض الوقت؟ وتمنيت أن أنام في اللحظات أو الساعات الحيوانية، وحياتك ولم أنم أيضًا.

ورضيت ببعضها في اليوم وفي الحيوانية والإنسانية والضيق بكل ذلك، ووجدت صورة أروع وأعمق وأجمل وأعظم وضعتها أمامي، ومعناها أن أضع في عيني حصوة ملح وأن أختشي، وأن أحمد الله على ما أعطاني من قدرة على الحركة، حركة اليدين والذراعين والعينين، والانتقال من مقعد إلى مقعد ومن مكان إلى مكان، ومن قدرة على أن أقول بشفتي وأن يسمعني الآخرون بآذانهم، أو أقدر على الكتابة ويستطيع الآخرون أن يقرءوا ما كتبت، وأن أناقش وأن أقول

وأن أسـأل وأن أرد وأن أشك وأن أجـد طـريـقًـا إلى الـيـقين وإقـنـاع الآخرين.

أما هذه الصورة التي أمامي والتي أخجل كلما نظرت إليها، وإلى الوجه المضيء والابتسامة العريضة ثم كل هذا العجز من كل شيء؟ إنها صورة العالم البريطاني الفيزيائي الفلكي ستيفن هوكنج، إنه عاجز عن كل شيء، لا حركة اليدين ولا الساقين ولا اللسان وإنه إذا قال فهو يطلق أصواتًا تحولها الإلكترونيات إلى أصوات لا يفهمها إلا بعض المتخصصين، هذا الرجل - أو الذي تبقى منه - أعطاه الله موهبة التعبير السهل والعبارة الجميلة، فكتابه «موجز تاريخ الزمن» من أروع الكتب التي صدرت في القرن الماضي وأكثرها انتشارًا، وقد كان من نتيجة انتشاره أن طلق زوجته الأولى وتزوج سكرتيرته والزوجة السابقة للرجل الذي اخترع له جهازًا يحول أصواته إلى عبارات جميلة، ورغم ذلك فقد أنجب ثلاثة من الأبناء ولا يزال يقول كلامًا جميلاً مفهومًا، ومن آماله أن يؤلف كتابًا للأطفال عن تفسيره الجميل للكون؟!

ومنذ وضعت هذه الصورة أمامي وأنا أشعر بالخجل إذا قلت: آه.. لأي ألم.. فهي أوجاع صغيرة تافهة إذا قورنت بهذه الخسارة الفادحة لعالم عظيم مثل ستيفن هوكنج الذي لم يعد يشكو من خمسين عامًا!

طبيعي أن تكون أنت يا بروتس!

عثر علماء الآثار في اليونان على عملة معدنية تؤكد أن بروتس قد خان صديقه وشارك في التآمر عليه وقتله.. وقبل أن يموت الصديق التفت إليه وقال: حتى أنت يا بروتس! ولا شيء يدل على سذاجة الصديق مثل هذه العبارة التي كررها المؤرخون والشعراء في كل العصور، مع أنها ليست مفاجأة أن يخون الصديق صديقه. فقد قتل الشقيق قابيل أخاه الشقيق هابيل.. وهي أول جريمة في التاريخ! وأكبر دليل على أن الأخوة لا تمنع القتل والعداء والحب أيضًا. بل إنه من الضروري أن تتوقع الخيانة من الصديق قبل العدو!

وما استقرت عليه الديانة المسيحية من أن يهوذا الإسخريوطي أحد تلامذة السيد المسيح، كان أول من باعه للرومان، مقابل مبلغ تافه!

صحيح أن (إنجيل يهوذا) الذي عثروا عليه في أرض مصر أخيرًا يؤكد معنى مختلفًا، وهو أن يهوذا كان صديقًا للسيد المسيح وقد أطلعه على كثير من الأسرار دون بقية تلامذته. وقيل أيضًا إنها إرادة الله أن يخون يهوذا لكي يتجرد المسيح عليه السلام من جسم الإنسان، وترتفع روحه الطاهرة إلى السماء، فيهوذا لم يكن خائنًا، وإنما هو

جزء من الإرادة السماوية في خلاص السيد المسيح. ولكن الكنيسة لا ترى هذا الذي جاء في (إنجيل يهوذا).. وترى أن يهوذا خان المسيح.. وأنه شيء طبيعي أن يخون التلميذ معلمه.. كما أنه طبيعي أن يقتل الأخ أخاه.

وقال شاعرنا القديم:

احــــذر عــدوك مــرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضـرة!

وفي إحدى قصص الأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا، أن عجوزًا كانت تسكن وحدها وعثروا عليها في أحد الأيام ميتة. ولم يستطع البوليس أن يهتدي إلى القاتل.. ولما قلبوا في أوراقها وملابسها وجدوا خطابًا موجهًا إلى من يعنيه الأمر.. وفتحوا الخطاب، فوجدوا هذه العبارة: ليس لي أعداء.. كل الذين حولي هم أصدقائي، وأقرب الأصدقاء إلى قلبي ابنة أخي.. وهي التي قتلتني!

فذهبوا إليها، فاعترفت!

الأيدي العاطلة: صناعة فلسفية!

في كل الصحف البريطانية تقرأ كلامًا عن التربية والتعليم.. أو عن التعليم، أما التربية فهي مسألة أخلاقية. ومن بين هذا الكلام حرص كثير من الدارسين على أن يحصلوا على الدكتوراه قبل البحث عن أي عمل.. وقد نشرت إحدى الصحف رسالة من قارئة تقول: وحصلت على الدكتوراه ولم أجد عملاً. وسألت عن السبب، فقيل إن تخصصي ليس مطلوبًا.. ربما في كليات أخرى أو معاهد أخرى.. وليس من الضروري أن تكون هذه الهيئات العلمية في بريطانيا، أي يجب أن أذهب إلى الشاطئ الآخر من الأطلنطي كما ذهب ألوف العلماء. وتقول: ولكني لا أريد أن أبرح هذه الجزيرة. أريد أن أعمل هنا، كما تعلمت هنا، وإذا لم أهتد إلى عمل، فسوف أؤلف كتابًا أشرح فيه: لماذا هذه الصعوبة في الحصول على عمل. فإذا وجدت العمل، فسوف أشير إليه.. وإلى الطريق الأقصر والأفضل من أجل أي عمل يناسب ما تخصصت فيه.

وتقول الطالبة أو الباحثة عن عمل إنها وجدت أن عددًا كبيرًا من زميلاتها يعملن فيما لم يتخصصن فيه، أي ليس من الضروري أن تعمل في تخصصها وإنما الشطارة أن تجد لها سبيلاً آخر إلى عمل آخر!

ثم قرأت كتابًا في «كيف يمكن أن تنجح رغم أنك لم تقصد ذلك»! ووجدت أن النجاح له سبيل آخر، وأن الذي ينجح هو الذي قرر أن ينجح حتى لو لم يكن مستعدًا لذلك.. فإذا كان قد درس الفلسفة، فليبحث له عن عمل يدوي.. وكان الفيلسوف الإغريقي طاليس.. يعمل في عصر الزيت.. وقد اتخذ هذا القرار عندما قيل له إنه «صايع» وإنه يضيع وقته في الكلام الفارغ.. وكان أستاذ الفلاسفة سقراط يعمل في غسل التماثيل في أثينا.. وكان ينظفها بالإسفنج المبلل بالماء، لكي يزيل أثر العصافير.. وقد دلت الأبحاث الطبية على أن البثور في وجه سقراط، سببها الكالسيوم الذي يتناثر من التماثيل.. كما كان الفيلسوف الهولندي العظيم اسبينوزا يعمل في صناعة العدسات.. ومعظم الثلاثة كانوا يعملون مدرسين، والفيلسوف الإنجليزي العظيم برتراند راسل كان عنده مدرسة هو وزوجته.

أما المفكر الأمريكي إمرسون فقد وجد نفسه عاجزًا عن إخراج عجل صغير من الحظيرة.. لا هو استطاع ولا كل أبنائه.. فوقف أمام مئات الكتب وقال: هذه الكتب لم تعلمني كيف أستدرج عجلاً صغيرًا إلى خارج الحظيرة! بينما استطاعت الخادمة، فقد مدت يدها إلى فم العجل وظل العجل يلعق ويرضع أصابعها وخرج من الحظيرة!

والمعنى: أن الفكر يخلق الأيدي العاطلة، والتجربة هي التي تخلق الأيدي العاملة!

ليلة في بطن الحوت!

انحسرت الدنيا من حولي وفي داخلي.. عندما -منذ أيام- وجدتني في غرفة صغيرة بيضاء، وعلى سرير صغير. وجاءت الممرضة بابتسامة رسمية وسألت إن كنت أريد شيئًا. فقلت لها: أريد الذي لا يستطيعه أحد. ضحكت وتساءلت كأنها قادرة على أن تحقق ذلك: ماذا؟ قلت: أن تخففي الألم. تساءلت: ألم يحدث؟

- لم يحدث.

- ولماذا لم تقل للطبيب؟

- حتى لو قلت، فما الذي يستطيعه أي طبيب.. إنني تذكرت النبي يونس في بطن الحوت. وحدة موجعة.. كان يونس في ظلمات بطن الحوت.. وأنا الآن أرفع سماعة التليفون وأحاول أن أقوم بإعدام الوجود حتى لا يبقى سواي.. حتى أبقى وحدي مع نفسي لكي أفعل ماذا؟ ولا شيء. وإنما لكي يتعمق عندي الشعور بالألم.. فما الذي يستطيعه أحد.. واستدرت لكي أرى أين وقع كلامي منها..

فلم أجدها، لا بد أنها أحست أنه هذيان المرضى. وقد اعتادت على ذلك.. وأصبح المريض كأنه راديو مفتوح على الآخر.. يقول ويعيد كلامًا مكررًا، فلم نعد مرضى وإنما أسطوانات مسجلة بلغات مختلفة!

تضايقت.. أنني كنت أكلم نفسي عن نفسي. وضغطت على الجرس لكي أستأنف الكلام مع الممرضة. وبعد لحظات طالعني وجه آخر لممرضة أخرى. ووقفت بابتسامتها التقليدية تسأل ماذا أريد، قلت لها: أريد لك ما أريده لنفسي.

– شكرًا.. ماذا؟

– سلامتك؟ قالت: شكرًا. واختفت، فلست مريضها الوحيد الذي يحاول أن يخلق علاقة واهية عند منتصف الليل مع واحدة تلف وتدور وتطلع وتنزل وتبتسم وتنتظر رغبات المرضى.. وضغطت على الجرس. وجاءت ممرضة ثالثة: تحت أمرك.. هي التي تقول طبعًا. فقلت: العفو.. عادت تقول: تحت أمرك.. ووجدت أن الكلام معها وبالطريقة السابقة مع الممرضات الأخريات: سخف.. واستمرار في السخافة. فلا عندي كلام أقوله، ولا عندها، ولا أريد منها شيئًا.. وهي لا تستطيع إلا الابتسام. فقلت لها: كوب ماء.. فأشارت إلى وعاء بجواري.. فقلت: قرص منوم.. فأشارت إلى زجاجة بجواري. قلت: أنام.. فانسحبت وفي يدها الباب والصوت والضوء.. فما الذي أردته؟ ولا حاجة. لقد وجدت نفسي مقطوع الأوصال الصوتية والضوئية والعطرية.. وأن الدنيا كلها أبواب ونوافذ قد أغلقت، وتليفونات قد خرست، ونفس قد ضاقت.. وأن للناس جميعًا طعم الدواء وإن لم تكن فائدته.. وأن الأطباء يرون المرضى لا صبر عندهم.. والمرضى يرون الأطباء مجانين لا أعصاب عندهم. فأبشع الأمراض لا تهزهم ولا صرخات المرضى ولا ويلاتهم.. عندما انفتح الباب وكان الطبيب وسألني: ماذا تريد؟ فقلت بسرعة: أريد الذي لا تستطيعه: ألا أراك ولا تراني!

عبارة فظيعة لا تقال. وحمدت الله أنني لم أقل. فلا انفتح باب ولا دخل طبيب.. وإنما تخيلت ذلك. فليعذرني حتى لو قلت!

الغربان في طوكيو: مشكلة!

عندما كثرت الطيور في أمريكا، وراحت تدخل في محركات الطائرات.. وعندما كثرت الغربان في طوكيو.. وعندما كثرت الفئران في حديقة حيوانات الجيزة.. وعندما كثرت الفئران في الهند – أي عندما حدث خلل في البيئة الحيوانية.. أما الطيور فراح الأمريكان يطردونها بمواد تذيب الشحم في ريشها فماتت من البرد.. أما الفئران في حديقة حيوانات الجيزة وقد قاربت نصف المليون فكان من الصعب قتلها بالسموم فتتساقط في حظائر الحيوانات الأخرى فتأكلها وتموت.. ولذلك نصبوا لها المصائد في كل مكان وامتلأت المصائد ولم تمت الفئران..

وعندما زادت الفئران في الهند فكانت بعشرات الملايين وجدوا أن السبب هو الشنط المصنوعة من جلد الثعابين وهي الموضة. فتصيدوا مئات ألوف من الثعابين، فانتشرت الفئران التي أكلت الحبوب، فجاع الشعب.. فعدلوا عن قتل الثعابين، وانتشرت الغربان بعشرات الألوف في المدينة التكنولوجية الكبرى: طوكيو، وكانت الغربان تنقض على الكابلات المصنوعة من الخيوط الزجاجية، فتعطل الاتصالات التليفونية والإلكترونية، فطلبت الحكومة من المواطنين ألا يتعرضوا للغربان، وأن يتركوا مهمة القضاء عليها لأجهزة رسمية متخصصة متفرغة..

فماذا فعل اليابانيون للقضاء على الغربان التي تخطف الطعام، وتخطف الفواكه، وأهم من كل ذلك تنهش الأسلاك المصنوعة من الأنسجة الزجاجية. وقد بلغ عدد الغربان في طوكيو وحدها حوالي خمسين ألف غراب. أما القتل وإطلاق النار عليها فلا.. وأما وضع السم في الحبوب فلا أيضًا.. فهم في اليابان لا يريدون مشاكل مع جمعيات الرفق بالحيوان. ولكن لجأوا إلى طريقة بسيطة، وهي أنهم نصبوا المصائد فوق الأسطح وفي الشرفات.. واستدرجوا الغربان بالألوف إلى هذه المصائد..

ولكن حدث شيء ليس في الحسبان، فقد جاءت الغربان من الريف لتملأ الفراغ الذي تركته غربان طوكيو..

ولجأوا إلى تركيب أجهزة إلكترونية في بعض الغربان ليهتدي الصيادون إلى أماكن تجمعها. وقد تعلمت الغربان على مر السنين أن تتخذ لها أماكن خفية بعيدة عن العين وعن الأذن. وقد لجأ أحد علماء الطيور إلى تقديم مواد كيماوية للغربان، هذه المواد تثير الغربان وتجعلها عصبية فتتشاجر بعضها مع بعض.. وقد يؤدي ذلك إلى التقاتل حتى الموت.. والغريب أن الإناث فقط هي التي تقتل الإناث.. وعند العلماء أمل كبير في أن تؤدي إبادة الإناث للإناث إلى نقص عدد الغربان في عشر سنوات – بشرط ألا يجيء غربان الأرياف إلى المدن!

وقد أعلنت إحدى الشركات اليابانية عن مكافأة كبيرة لمن يجد وسيلة أسرع وأنجح للقضاء على الغربان. فإن كانت لديك فكرة فابعث بها، والأجر والثواب بالدولار والين

صورتك بقلم طفلك

على سبيل التجربة: أطلب من طفلك الصغير أن يرسم الأسرة كلها على النحو الذي يعجبه. وبالقلم الذي يستريح إلى لونه على الورق أو على الأرض.. سيفرح جدًا.. ولكن بشرط أن يجعل كل أفراد الأسرة من الحيوانات.. وهذا هو المهم!

فقد اهتدت إحدى الباحثات الألمانيات إلى أن نفسية الطفل تتضح من هذه الرسوم.. فعن طريقها يمكن أن تعرف موقعه من الأسرة.. أو موقع الأسرة منه.. فقد طلبت هذه السيدة الألمانية إلى أكثر من خمسة آلاف طفل أن يرسموا الحيوانات الموجودة في البيت – أقصد أن يرسموا الأسرة كلها كما لو كانت مجموعة من الحيوانات..

صورة واحدة ذات دلالة واضحة قد عرضتها الباحثة الألمانية لطفل رسم أمه على شكل إوزة. ورسم والده على شكل أسد وأختيه على شكل ثعبانين ثم رسم نفسه على شكل خنزير صغير وفي جانب بعيد من الصورة.. وليس من الصعب أن تعرف أن هذا الطفل يرى أن أمه سيدة هادئة، وأن والده رجل قوي ومخيف وأنه يكره أختيه كراهية شديدة.. وأنه مُهْمَلٌ وأن أحدًا لا ينتبه إليه..

صورة أخرى ذات دلالة رسمها أحد الأطفال: فقد رسم أباه على شكل أسد أيضًا ورسم أخاه الأكبر على شكل ذئب، ورسم أخته على شكل ثعلب.. وقدم الطفل الصورة من دون أن يرسم أمه.. ولما سئل عن ذلك قال: لا أعرف كيف أرسمها؟ وهو يقصد بذلك إما أن أمه لا شبه لها.. وإما أنها أحسن من كل هذه الحيوانات وإما أن أمه كريهةوليس لها نظير بين الحيوانات لأنها أسوأ من الجميع..

ومهما رسم الطفل فإنه يقول كلامًا كثيرًا.. وهذا واضح جدًّا من اختياره للحيوانات وحجم هذه الحيوانات ومعناها وترتيبها في الصورة ثم مدى الضغط الذي يبذله الطفل أثناء الرسم.. فقد لوحظ في بعض الأحيان أن الطفل عندما يرسم صورة الأب أو الأم يمزق الورق من شدة الانفعال.

ومن أجمل وأقوى الصور التي رسمها طفل عنده خمس سنوات: صورة لحوت كبير قد وضع الأسرة كلها في بطن هذا الحوت.. أما الحوت فهو الأب. ولما سئل الطفل إن كان يكرهه أبوه؟ فأجاب: إنه يحبنا جميعًا مع الأسف!

والطفل يأسف لأنه كان يفضل أن يحبه أبوه وحده!

فإذا أردت أن تعرف أي الحيوانات أنت، فاطلب ذلك من طفلك! ويجب أن تصدقه، فهو لم يتعلم الكذب بعد!

وعلينا يكذب الصحافيون

نشرت إحدى الصحف المعارضة - ولا أعرف لماذا الآن - أنني تزوجت على ظهور الدبابات!

أي أنني لم أجد وسيلة للزواج إلا باقتحام بيت العروس بالدبابات، ولما أصبحت متزوجًا من عشرات السنين، فمعنى ذلك أنها كانت معركة غير متكافئة وانتصرت في النهاية. ولم يقل الخبر ماذا كانت أسلحة الطرف الآخر..فهل كنت أنا قائد الجيش، وكان أهل العروس ملوكًا عندهم قلاع منيعة. وإذا كانوا ملوكًا فابنتهم أميرة، فهي تستحق هذه المعركة. وبدلاً من أن أخطفها وأجري بها على حصان أبيض، فلم يكن أمامي إلا الدبابات.

والمعنى أن هناك اعتراضًا على الزواج.. ولم أهتم كثيرًا بهذا الاعتراض. فلتكن معركة بالدبابات تمامًا مثل الدبابات التي أحاطت بقصر الملك فاروق. وكانت معركة بالدبابات كالتي انتصر فيها القائد الألماني الثعلب عند العلمين!

شيء عظيم ومعركة ثانية: كان فيها النصر من نصيبي.. ولكن ما نصيب هذه القصة من الحقيقة. الحقيقة أن الرئيس عبد الناصر قد اعترض على هذا الزواج، وقال كيف يتزوج صحافي من «أخبار اليوم»؛

مؤسسة مصطفى أمين وعلى أمين، من فتاة خالها من الضباط الأحرار؟! وخالها هو الوزير توفيق عبد الفتاح توءم الوزير زكريا عبد الفتاح، ولكي يكون الخبر غير عادي مثيرًا فلا بد من أن تصير الحبة قبة وأن تصبح السيارة دبابة!

وقرأت خبرًا يقول إنني اشتريت سيارة فيات فارهة! أما أنني أستطيع شراء سيارة فيات فممكن. ولكن أن توصف بأنها فارهة، فهذا ليس ممكنًا. فهي كما نعرف سيارة صغيرة، ولكن كيف يوافق رئيس التحرير وسكرتير التحرير على أن تكون فارهة؟! إذن الخبر لا بد أن يكون قد كتبه صحافي مبتدئ ولا بد أنه يذهب إلى عمله على قدميه. ورأيت أن أقابل الصحافي الصغير، وقلت له أن أشتري مثل هذه السيارة ليس شيئًا كبيرًا.. وأنه مع الأسف لم ير هذه السيارة التي ضاقت عنها الشوارع، كما تضيق عنه أيضًا هذه السيارة لأنها ضيقة وهو شاب بدين.. وأن وأن.. واعتذر الشاب ولكن قلت له إنه في أول حياته الصحافية وإنه يجب أن يدقق في كل ما يكتب. وقلت له إن هناك خبرين إذا كتبهما لن يصدقه أحد إذا قال إنني اشتريت دراجة لكي أذهب بها إلى عملي، أو اشتريت هليكوبتر.. فقط إذا قال إنني اشتريت كاديلاك فسوف يتساءل الناس ثم يمضون إلى شيء آخر.. فالسيارة الكاديلاك يملكها من هو أسوأ حالاً وأكثر مالاً!! ثم مددت له يدي وفيها ورقة ولم يكد يقرؤها حتى اصفر وجهه، وسقط على مقعده ولكن قدمت له ورقة أخرى فعاد إليه اللون، فالورقة الأولى قرار بوقفه عن العمل والورقة الثانية موافقة رئيس التحرير على طلبي إعفاءه من العقوبة!

لا بد من أحد من الناس

فجأة تجد نفسك في شجار مع صديق لك! يظهر أنه من الضروري أن يكون للإنسان صديق: أخ أو صديق أو أخ كصديق أو صديق كأخ.. وفي هذه العلاقة يجد الإنسان راحة أو يكون على راحته يقول ويشكو ويطلب الرأي أو النصيحة وكل إنسان محتاج إلى رأي آخر.. أو إلى وجهات نظر أخرى..

ويستريح الإنسان إلى هذه العلاقة وتصبح هذه العلاقة نوعًا من الارتباط أو الرباط ولذلك تجد نفسك تبحث عن صديقك أو أصدقائك دون أن تكون هناك ضرورة واضحة لذلك، أي دون أن تكون عندك قضية أو شكوى. وإنما أنت اعتدت أن تكون «مع» أحد تستريح إليه أو أحد تفك قيودك أمامه.. فلا تتحفظ في كلام أو أفكار أو تصرفات.. فما أكثر التصرفات والقيود في حياة كل إنسان.. في بيته وفي الشارع وفي مكان عمله.. ومن هنا كانت الصداقة أو الإخوة حالة انعدام وزن.. يتشقلب فيها الإنسان.. ويكون على النحو الذي يعجبه دون أن يخاف على شيء.. وإذا اعتاد الإنسان ذلك يصبح أسيرًا لهذه العادة وهذه العلاقة وهذا الشخص.. ومن هنا كانت الصداقة مريحة وكانت ضرورية!

ولكن يحدث أن تدخل في مناقشة مع صديق أو مع أخ أو مع قريب وفجأة يتحول هذا الصديق إلى إنسان غريب.. إلى عدو.. إذا به يطلق عليك

عبارات ويذكر لك أحداثًا ويحاسبك على أشياء.. ويعيِّرك ويشمت فيك ويدعو عليك – كيف حدث ذلك؟ وأين كان كل ذلك؟ ولماذا؟

لماذا؟ لأنك نسيت حدودك.. لأن هناك حدودًا بينك وبينه.. ولأن الصداقة قد غطت على مواجع كثيرة.. وأن هناك حدودًا لاحتمال الإنسان للإنسان واحتمال الصديق للصديق وأنك تجاوزت الحدود.. وأنك وصلت إلى أماكن الألم.. وأن هناك أسلاكًا مكهربة على حدود العلاقة التي بينك وبينه.. وأنك يجب أن تفهم أن الصداقة والقرابة والحب لا تجعل من اثنين شخصًا واحدًا. وإنما تجعل منهما شخصين متقاربين.. لكنهما دائمًا شخصان وكل واحد له رغباته ونزواته وتطلعاته.. وأن هناك حدودًا يجب ألا يتخطاها الإنسان في علاقته بأحد.

إن هذا الموقف مؤلم لأنه يذكرنا بأن هناك حدودًا.. وكنا قد نسيناها وأن الإنسان مهما كان صديقًا لأحد أو قريبًا لأحد أو حبيبًا لأحد.. فهو إنسان غريب.. هو إنسان آخر.. من الممكن أن يكون عدوًا كما كان صديقًا أيضًا!

إنها حقيقة وهي لذلك مؤلمة!

إذا دخلت فلا خروج حتى الموت!

كل من يعمل في أجهزة الأمن القومي، لا بد أن يقسم أنه لن يبعد عن هذه الوظيفة حتى لو أحيل إلى المعاش.. أو بعبارة أخرى، إذا دخلها لن يخرج منها حتى الموت. لأنها واجب مقدس! وهناك قسم آخر ليس مكتوبًا، وهو دخول المستشفيات، فمن دخلها مرة، فلا بد أن يعود.. سواء كان زائرًا لمريض أو كان هو المريض.. أقول قولي هذا، وأذكر ما حدث لي في لندن وفي باريس.. جئت زائرًا وخرجت مريضًا وعدت مريضًا.. مرتين دخلت ولم أعد. فعندما كنت في اليابان وجدت مستشفى جميلاً أنيقًا نظيفًا يمتلئ بالورود وكأنها شفاه تقبل من يدخل ومن يخرج.. أما انحناء الفتيات اليابانيات، فله مذاق آخر في المستشفى. ومن دون أن أسأل نفسي ولماذا أدخل هذا المستشفى. دخلت وجلست. ورأيت الناس يدخلون وتنحني الفتيات. وذهبت إليهن وقلت: أريد أن أرى الطبيب.. وكان الابتسام والانحناء والسكوت عن الكلام علامة الرضا والقبول. وعدت إلى مكاني مودعًا بمثل ما استقبلت به: رقة وابتسامات وانحناءات وتحيات.. ومضى من الوقت الكثير.. ولم تدعني واحدة. فذهبت أسأل فقالوا: نحن في انتظار المدام.

– مدام؟ مدام من؟! قلن: المدام بتاعتك.

– ولكني لست متزوجًا.

– آه.. ولكنها مستشفى ولادة! ولم أعد.

ومرة أخرى قابلت السفير المصري في واشنطن، وقلت عندي كل الأمراض أو أعراضها.. أو أني موسوس أن يكون عندي أمراض. وأريد أن أدخل مستشفى البحرية الأمريكية. كما فعلت السيدة أم كلثوم صديقتي وبلدياتي!! واندهش السفير. ولكن قال: إنت محظوظ، فعندنا اليوم مفاوضات عسكرية، وسوف أعرض رغبتك هذه وعرضها ووافق الأمريكان ولم أندم في حياتي على حماقة مثل هذه المرة.. أدخلوني المستشفى بين صفين من الزنوج، لا أحد يتكلم، وإنما الأيدي تشير إلى أماكن يجب أن أذهب إليها. وأقدم جواز السفر، وأقول لهم من أنا ولماذا هنا، ولم شكواي. وقلت وكتبت وأشارت أذرع غليظة إلى أماكن أخرى، ذهبت وخلعت ملابسي وأحاول من يومها أن أنسى ما حدث لي منذ 46 عامًا!!

أجلسوني على مقعد له عجلات وكانوا يدفعونني يمينًا وشمالاً، وأنام من الإرهاق وأرى فيما يرى النائم أنني في جهنم، وأن الحكم نهائي، فلا دعوات تشفع ولا صلوات وخير لي أن أسكت، فسكت ثلاثة أيام حسومًا: أدخل وأخرج وتندب الحقن في ذراعي وفي ساقي ويخرج لساني من تلقاء نفسه، كلما رأيت أحدًا وقد دخل الترمومتر مرة في لساني ومرة في أذني.

وكما دخلت مندفعًا، خرجت مندفعًا إلى خارج المستشفى كأنني كرة تكاثرت حولها الأقدام، لكي تهز بها شبكة مجهولة في مكان بعيد.. ووقفت أمام المستشفى أؤكد لنفسي أن الذي لقيته من أجل أن أكتب مقالاً حماقة أستحق عليها المزيد من العقاب!!

غلطان.. وانت صح يا أستاذ!

من قراءة سريعة للهيئة الفلكية في نصف الكرة الشمالية في شهر يونيو الماضي وقعت عيناي على اسم صغير. توقفت. وقبل أن أقول لنفسي: إنني عثرت على غلطة، أعدت النظر وأتيت بعدسة مكبرة.. ورأيت، وكدت أقول: غلطة.. اضبط غلطة!

وفي نفس الوقت تعالى في داخلي صوت احتجاج على هذا القرار المتعجل الطائش: يستحيل أن تكون هناك غلطة في خريطة علمية رآها وراجعها عدد من العلماء وطبعت بمئات الألوف في العالم.. وقرأت السنة التي طبعت فيها الخريطة فكانت من سنتين. ولم أقرأ في المجلات الفلكية والعلمية التي أطالعها تصحيحًا لهذا الخطأ!

ثم عدت إلى الخريطة مرة أخرى.. وراجعت الأسماء ورجعت إلى كتب فلكية ولم أجد هذا الاسم الذي توقفت عنده وساورني الشك. ولكن بسرعة طردت هذا الوسواس على أساس أن معلوماتي الفلكية متواضعة وأنه لا يحق لمثلي أن يجتهد بأنه وجد خطأ أو اكتشفه. وفي نفس الوقت نفيت عن نفسي تهمة الجهل.

وذهبت إلى صديق من علماء الفلك وعرضت عليه الخريطة. ووضعت إصبعي على الاسم فسألني: ماذا في هذا الاسم؟ قلت: ألم تلاحظ؟ قال: ماذا؟ قلت: اسمها «سحابة نجمية م24» وليس نجمية فقط كما هي في الخريطة!

وأتى بمنظار مكبر فوجد أن اسمها «م 24» فأنا غلطان! وابتلعت ريقي.. وسكت فأنا الذي لم يرها بوضوح!

وأذكر أن أستاذنا عباس محمود العقاد كان يهاجم «مسرح العبث» لأنه رجل منطقي وأنه ينتسب إلى مدرسة الفيلسوف الإنجليزي بيرتراند رسل – مدرسة التحليل المنطقي. ومسرح العبث قائم على اللامنطق واللاعلمي، والعقاد مؤمن بعلم المنطق والتحليل العلمي، ولكن جاء في مقال العقاد غلطة، فمن المؤكد أن العقاد لا يعرف اللغة اليونانية القديمة التي أعرفها ولذلك فقد جاءت في المقال كلمة «باتا – فيزيك» بدلاً من «بارافيزيك» وقلت: غلطة يا أستاذ!

ولم أجرؤ على أن أكتب عن هذه «القفشة»، وسألت سكرتيره ابن أخيه، عامر العقاد، وقلت له سعيدًا بذلك، وحجتي أن كلمة «بارا» تعني قريبًا من كذا أو ضد كذا.. «باراشوف» أي ضد السقوط. وجاءني عامر العقاد يقول لي: الأستاذ يقول لك إنت غلطان، ففي اللغة اليونانية بارا وباتا بمعنى واحد.

ارجع إلى كتاب فلان واقرأ الفصل الثاني وعنوانه: باتا فيزيك!

وبسرعة عدت إلى البيت وفتحت الكتاب على الفصل الثاني.. إنت صح يا أستاذ!

نحن عرب لا نخجل من أنفسنا!

اللغة العربية مشكلة عندنا!

لا لأننا اكتشفناها أخيرًا.. ولكن لأننا اكتشفنا أننا لا نتحدثها.. ولا نحن مشغولون بذلك.. وواضح جدًا أننا نستخف بتدريسها والتكلم بها.

وإذا كانت لغة الصحف لم تعد لغة عربية فصحى، فإنها على كل حالة لغة عربية سهلة تجمع بين العامية والفصحى.. أو هي لغة الكلام بين المتعلمين أو المثقفين.. وهي قادرة على نقل المعنى المطلوب في أضيق مساحة. وأقصر وقت وأرخص ثمن.

وقد اكتشفنا أننا لا نتكلم اللغة الفصحى، ولا نحسن نطق حروفها ولا نطق كلماتها أيضًا.. وبعضنا يتباهى بأنه لا يعرف اللغة العربية.. وإن كان يجيد الفرنسية أو الإنجليزية، في حين أن الفرنسيين والإنجليز لا يتباهون بجهلهم للغتهم أو حتى اللغات الأخرى!

والصحف مليئة بالأخطاء النحوية والإملائية، والأخطاء المطبعية التي يظن بعض الناس بحسن نية أنها مقصودة!!

وهذا عيب في الصحف، ولا شك، وفي الإذاعة – وهي أكثر انتشارًا من الصحف – أخطاء لغوية ونحوية – ولا بد أن تكون هناك أخطاء إملائية أو مطبعية أيضًا.

وإلا فكيف نجد أن الذين يقرأون من ورقة أمام الميكرفون يخطئون في نطق الكلمات العربية والأجنبية. وفي كثير من البرامج الثقافية والمتخصصة كلام باللغة العامية.. وبعض العاميين من الإذاعيين يتصورون أنهم إذا تحدثوا إلى الشعب فمن الشعبية أن يتكلموا بالعامية.. مع أن اللغة العربية السهلة هي الأقرب إلى فهم الجميع.. ثم إن في هذا الأسلوب سوء ظن وسوء نية أيضًا.. لأن معناه أن الشعب لا يفهم حتى اللغة العربية السهلة..

فما العمل؟

يجب أن نتمسك باللغة العربية السهلة: بتدريسها وممارستها.. وعلى الذين يتحدثون في الإذاعة والتليفزيون أن يحرصوا على اللغة العربية.. لأن اللغة العامية هي أحد عوامل التفرقة بين العرب.. فاللغة العربية واحدة.. واللهجات العامية بالعشرات.. فإذا أردنا الوحدة فاللغة إحدى الوسائل.. وإذا أردنا إذابة الفوارق بين الناس أو بين الطبقات.. فاللغة هي أصدق وأجمل الوسائل أيضًا.

والأدباء أول من يفعل ذلك.. أو من الواجب أن يفعلوا ذلك.. فهم نماذج.. أو من الواجب أن يكونوا كذلك.. ويجب ألا يخجل إنسان من أنه يتكلم العربية أو يدعو إليها.. وإنما الذي يخجل هو الذي يتعالى على هذه التجربة النبيلة وعلى الناس!

أن تكون عاقلاً.. هذا عذاب

يقال إن الحاكم الإغريقي سولون كان حكيمًا أيضًا.. وكان قادرًا على التحكم في أعصابه.. وكان يقال لو شبت النار في ملابسه فإنه يفكر أولاً من أين جاءت النار. ولماذا؟.. وإذا فكر أن ينزع ملابسه فإنه يتلفت وراءه ليرى إن كان هناك أحد من المارة.. كل ذلك قبل أن يحاول إطفاء النار..

ولكن الإنسان لا يكون عاقلاً في كل وقت.. مهما كان عقله ومهما كانت حكمته..

ولذلك يقال أيضًا إن سولون هذا سمع سيدة تقول: إنه يضرب زوجته ولما رأته هربت. فطاردها – دون تفكير. ودخل وراءها البيت دون تفكير وفوجئ بعدد من خصومه.. وتوجه إليها بالكلام دون أن يفسر لخصومه كيف دخل البيت وكيف استباح لنفسه ذلك.

وقال سولون: إنني لا أضرب زوجتي.. ولكن لو كنت زوجتي لضربتك؟! إنه لم يتحمل هذه الإهانة من هذه المرأة.. فلم يمسك نفسه عن الغضب ولا تروى.. وإنما الغضب حوَّل نفسه إلى عصفور.. والعصفور طار..

ويقال إن سولون هذا ذهب لمقابلة الفيلسوف اليوناني طاليس.. وسأله سولون: يا أخي ولماذا لم تتزوج وتنجب أطفالاً لعلهم يكونون فلاسفة مثلك؟

ولكن الفيلسوف أحنى رأسه ولم يرد..

وفي الليل جاء رجل من أثينا.. وسأله سولون عن أخبار أثينا فقال الرجل: لا شيء.. لقد اشتركت في تشييع جنازة شاب يقال إنه ابن أحد الحكام.

وقال سولون: ألا تعرف اسم هذا الشاب؟

– لا. لا أعرف.

– ولا اسم أبيه؟

– لا أعرف..

فقال سولون: حاول.. هل أبوه اسمه سولون؟

وأجاب الرجل.. نعم.. اسمه سولون..

وقال الفيلسوف طاليس يخفف من وقع الخبر ويقول له: ليس صحيحًا فأنا الذي طلبت إليه أن يقول ذلك..

وسأله سولون: ولماذا؟

ورد الفيلسوف: إنما أردت أن أقول لك إنني لا أحب أن يكون لي أولاد أحزن على فراقهم.. وأموت لموتهم!

فليس كل إنسان سولون.. ولا كل سولون عاقلاً.. في كل الظروف!

المهم أن تجد المتعة

القارئ ليس هو الذي يفك الصفحات الملتصقة، ثم يفك الخط، وليس هو الذي يقول أنا قرأت ألف كتاب. ولكن القارئ هو الذي يجد متعة في القراءة.. وهو الذي لا يستطيع أن يتوقف عن القراءة.. والذي يذكر الكثير مما قرأ. وهو الذي يفهم وليس الذي يقرأ بلا فهم.. وأول شرط من شروط القراءة الجيدة أن تجد متعة إذا قرأت، وإذا فرغت من قراءة كتاب وإذا اتجهت إلى كتاب آخر.. وهناك كتب كثيرة ممتعة وكتب أخرى ليست كذلك. ولكن كل كتاب فيه شيء من العلم والفائدة. والقارئ الواعي هو الذي يختار ما يعجبه وما يمتعه. وأنا أعتبر نفسي من القراء، ولكني أقرأ موضوعات مختلفة.. ومن الأفضل أن أكون كذلك حتى لا أمل، وحتى لا يغلبني الملل وينقلني إلى التعب. والتعب يجعلني أقلب الصفحات ولا أفهم.. ولذلك أقرأ في الأدب، فإذا تعبت من الأدب قرأت في الرحلات. وإذا مللت الرحلات إلى الطب ومن الطب إلى الفن.. ومن الفن إلى الجنس ومن الجنس إلى النباتات والحشرات والحيوان وسفن الفضاء.. والأزياء والمغامرات.. وأي شيء آخر مثل كتب الشطرنج وأهم المباريات الدولية وكيف لعبها أبطالها.. وآتي بالكتاب وبرقعة الشطرنج وأضع الشطرنج، كما يصف الكتاب وأفكر وأتفرج وأتابع النهاية المحتومة: وهي قتل الملك!

ومن القراءة الكثيرة ومن تنويع القراءة يعرف الإنسان «مزاجه» وتصبح له عادات خاصة، ويصبح له أصدقاء من المؤلفين.

وعلى الرغم من أن كل كتاب له شخصية مستقلة تمامًا، ككل بيت في كل مدينة، فإن البيوت معًا تتكون منها المدينة.. وكذلك المكتبة الخاصة، فهي أسرة جميلة ولا شك.. تفيد دائمًا.. وتساهم بك ومعك في تنوير حياتك وحياة من لهم صلة بك.. وحياة كل الناس..

ويجب ألا تسأل نفسك أبدًا: ما فائدة هذه القصة.. ما فائدة هذا الكتاب.. إن هذا يضيع وقتي؟!

فلا شيء يضيع، كل ما تقرأه يفيدك. وكل ما تقرؤه في أعماقك أنت لا تعرف أين يبقى.. ولا كيف. ولا متى يظهر بعد ذلك. ولكنه سوف ينفعل.. سوف يظهر.. إنني كثيرًا ما أتذكر حوادث وقصصًا قرأتها من أربعين عامًا.. أين كانت؟ إنها هناك! لماذا جاءت؟ لأنها وجدت الوقت المناسب لكي تكون مفيدة.. اقرأ.. اقرأ.. ما تشتريه وما يشتريه غيرك إذا استطعت.. ولكن لا بد أن تقرأ.

إن أول عبارة في التوراة تقول: في البدء كانت الكلمة.. وأول كلمة نزلت من القرآن الكريم: اقرأ – والإنسان حيوان قارئ – أي حيوان عاقل أو من الضروري أن يكون كذلك!

كان يكرهه علنًا ويحبه سرًّا!

كان الأستاذ العقاد يدهشني بهجومه المتوالي على أمير الشعراء أحمد شوقي.. مع أن طه حسين قد اختار العقاد أميرًا للشعراء أيضًا! ولكن لم ينس العقاد ما يحظى به أحمد شوقي من إعجاب الناس وحب لشعره البديع ومسرحياته الرائعة.

والشاعر الظريف محمد مصطفى حمام أتى بقصيدة لشاب ناشئ.. وطلب من الأستاذ أن يقول رأيه فيها.. وقرأها حمام. وتغنى. وأشاد العقاد مبهورًا بهذا الشعر البديع. وعاد حمام يسأل العقاد: ولكن ما هي مواطن الجمال في هذه القصيدة لهذا الشاب المبتدئ؟ وقال العقاد: إن من ينظم مثل هذا الشعر لا يوصف بأنه مبتدئ.. وإذا قيل إنه مبتدئ فيجب أن يقال إنه قد ابتدأ الصعود إلى القمة.. فهو اختار بحرًا من بحور الشعر الصعبة.. ثم إن له أذنًا موسيقية، ثم إنه متمكن من ناحية اللغة.. وفي نفس الوقت ينتقل من بيت إلى بيت في غاية الخفة والرقة، والقصيدة ينطبق عليها تمامًا ما ينشده العقاد في القصيدة وهي أن تكون كائنًا عضويًّا له أول وله آخر.

وعاد حمام يسأل: هل ترى يا أستاذ أن نقول لهذا الشاب المبتدئ أن يمضي في نظم الشعر.. وقال العقاد: نحن لا نقول للموهبة امض.. فقد مضت في طريقها العالي حتى بلغتنا...

وفجأة وقف محمد مصطفى حمام وخرج من الصالون واقترب من الباب وقد التفتنا جميعًا إليه.. ثم التفت إلى الأستاذ وقال: هذه القصيدة ليست لشاب وإنما هي من شعر أمير الشعراء شوقي!! ووقف العقاد يطارده ويقول: يا ابن الـ.. والـ.. وكتمنا ضحكنا!!

وكانت للأستاذ العقاد محاضرة في الجامعة الأمريكية وكان شوقي قد مات. وكانت المحاضرة عن شوقي. واستأنف العقاد الهجوم على شوقي واندهش الناس. فقد مات شوقي وانتهى الأمر.. ولكن العقاد قال: إنني أكثر تقديرًا لشوقي من كل هؤلاء.. فهم يرون أنه قد مات، ولكني أراه لم يمت. ولذلك فأنا أهاجم حيًّا ولست أتجرأ على ميت.. إنهم يريدون دفنه، وأنا أريد أن أنفض عنه التراب لكي أهاجمه من جديد!

وقد قال لي أستاذنا طه حسين: إن العقاد معجب بشوقي، ولكنه غير قادر على التراجع.. فقد سمعت من أحد المقربين إليه أنه يشيد بقصائد كاملة لشوقي، وطلب إلى أحد أن يقرأ كثيرًا من قصائد شوقي!! وكان العقاد يشتمه علنًا ويعتذر له سرًّا.

أحبك يا أستاذ: براءة

كنت ممثلاً للمجلس الأعلى للثقافة في نقابة المهن التمثيلية، فكانوا إذا أرادوا معاقبة فنان خرج على النص، أو راقصة خرجت من ملابسها أكثر من اللازم، يستدعونني لأفصل في الشكوى واقترح العقاب.. وهي كما ترى مهمة غريبة. ومن الصعب إدانة أحد في هذا المجال. فإن كان الممثل قد خرج على النص أو خرج على الذوق، فهذا يحدث كل يوم.. عندما يجد الممثل أن الموقف يقتضي بعض الإضافات التي استوحاها من الموقف. أو أنه الملل والتكرار اللذان يدفعان الممثل إلى أن يأتي بجديد. ولا يهم ماذا يقول ويتضايق المؤلف والمخرج ولكن الممثل معذور..

وقد عانيت أنا ذلك في مسرحياتي الكوميدية التي ظهرت على المسرح لدرجة أن المسرحية في ليلة عرضها الأول مختلفة جدًا عن ليالي عرضها بعد شهر أو شهرين أو سنة أو سنتين!! ولا حيلة لنا في ذلك!

فقط عندما يخرج الممثل عن اللياقة ويستغرق في التلميح والتصريح الجنسي!

أما الذي تفعله الراقصات فقصة أخرى.. تجيء الشكوك من أي مواطن أنه وأسرته قد فزعوا عندما تعرت الراقصة وتلوت وتكسرت وتأوهت وتأودت إلخ.. وفي هذه الحالة نستدعيها.. وتجيء ومعها ملابسها.. ولابد

أن تظهر كما ظهرت في تلك الليلة.. ومع الموسيقى تتثنى كما فعلت.. ولا أعرف كيف كانت فلا أحد قد سجل لها هذا الخروج.. ولذلك فالمقارنة ظالمة. وأقول: لقد جاء في الشكوى أن ما تبقى من ملابسها الداخلية كان أقصر من كفة اليد.. ومعنى ذلك أن تبكي وتقول إنهم لا يريدونها أن تخلف نجوى فؤاد وفيفي عبده.. وتبكي.. وهي تبكي تعرض كيف كانت ترقص وكيف أنها مهما اهتزت يمينًا أو شمالاً فلا يمكن أن تبدو عارية تمامًا كما زعموا.

ونتلفت لبعضنا البعض ويسألونني: ما رأيك.. فأقول: الذي أراه الآن شيء عادي جدًا. ولا ينكره أحد. ثم كيف تكون راقصة شرقية وقد تحجبت تمامًا فلا يظهر لها ساق ولا نهد ولا ردف؟!

وتسألني الراقصة: يعني براءة يا أستاذ؟ فأهز رأسي، أي نعم، وتتعالى الزغاريد.. بعد أيام تجيء شكوى جديدة بأنها وأنها.. ولا بد من حضورها وحضوري. وهذا شيء ممل.. فأتصل بها تليفونيًا وأقول لها: خدي بالك، احتشمي أرجوك، وبلاش وجع دماغ..

- سلامة دماغك يا أستاذ.. يعني براءة؟ أحبك يا أستاذ.

تمثال عرابي باشا لا سقط ولا قام!

انتقلت كاميرات الصحف والتلفزيون إلى عاصمة محافظة الشرقية بمصر، ووقف الجميع حول تمثال الزعيم المصري أحمد عرابي باشا يريدون تفسيرًا لما نشرته الصحف.. واتصلوا بوزير الثقافة وبالأستاذ يوسف السباعي رئيس المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون (المجلس الأعلى للثقافة الآن).

وهبَّت عليهم رياح ترابية.. فكنستهم من الشوارع وتواروا منها.. وانتظروا أن يجيء أحد من المسئولين ولكنه لم يصل.. ولم يرد أحد على تساؤلهم.. وكان موقفًا غريبًا.. فقد تصادف أن هذا اليوم كان أحد أيام العيد فلا وزارة ولا مجلس أعلى للموظفين. فقد نشرت الصحف أن المجلس الأعلى أوفد لجنة فنية لتقويم تمثال عرابي. باشا، وكان الخبر معناه أن التمثال وقع بسبب العواصف الترابية، وأن هذه اللجنة ذهبت لإيقاف التمثال على قاعدته.. ولكن عندما ذهبوا وجدوا التمثال قائمًا.. وأن العواصف بترابها لم تفلح لا في إسقاطه ولا في دفنه.. وكنا في مصر في ذلك الوقت نتنافش في أيهما الأصح: أن يقال «تقويم» الشيء أو «تقييمه».. وقالوا الأصح أن يقال تقويم العمل الفني، أي معرفة قيمته.. وعلى ذلك فتمثال عرابي باشا الذي أقيم حديثا ذهبت إليه إحدى اللجان لتقويمه –

أي معرفة قيمته الفنية.. ولكن المعنى الذي يتبادر لأول وهلة هو أن التمثال قد سقط وأن لجنة قد ذهبت لترفعه على قاعدته!! وأدرك الصحفيون أنهم وقعوا في مصيدة كلمة جديدة على القارئ.. فعادوا يضحكون.

وبعد أيام سقط تمثال في محافظة الجيزة وكان التمثال في إحدى المدارس، ونشرت الصحف أنه لا بد من تقويم التمثال. ولم يذهب أحد للتحقق من ذلك، وعادت الصحف تنشر أن التمثال عندما سقط انهار جداره والجدار سقط على بعض المواطنين فمات واحد وجرح خمسة.

ولم يذهب أحد، وقيل إنهم تحيروا عن تقويم التمثال، فمن يدري ربما كان المقصود مرة أخرى إعادة التمثال لا قاعدته، ثم معرفة القيمة الحقيقية للتمثال واقفاً على حيله في هذا المكان.

ولما ذهب وزير الثقافة ليرى ما حدث وجدوه يبكي وصوروا الوزير يبكي وواصلوا سؤال الوزير إلى ما بعد التصوير وما بعد النشر. ولم يكن الذي أبكى الوزير أن تحفة فنية قد سقطت ولا قومة لها بعد ذلك، ولكن لأن التمثال قد تساقط فوق قفص للحمام الأبيض الجميل. ولم يشأ أحد أن يقول حقيقة الدموع فلم يتصوروا أن يبكي وزير على زوج من الحمام وما أكثره في السوق. فقالوا بل كان بكاؤه شديداً على تحفة فنية قد تحولت تراباً، والذي كان مقبرة للجمال الفني!؟

قل لي يا مؤرخنا الكبير

كان لي حوار تليفزيوني مع المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي، قبل وفاته بأيام، وكانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها الناس ويسمعون عبد الرحمن الرافعي. وكان رجلاً متوسط القامة له رأس كبير وكرش كبيرة أيضًا، أبيض أشقر، وكان صوته خفيضًا ناعمًا – على رأي طه حسين. ولم أكد أجلس إليه حتى أحسست بأنه ليس أستاذًا وإنما هو أب.فهو رجل رقيق مهذب جدًا يبالغ في احترام من يتحدث إليه. سألته في أمور كثيرة. ووقفت به عند بعض القضايا، فأدهشني أنني عندما سألته: إن كان قد عرف الحب أنه قال: الحب يجيء بعد الزواج وليس قبله، لأن الإنسان عادة لا يرى زوجته، وإنما يسأل عن أهلها وعن سلوكيات الأهل، ومن هذا السلوك يعرف كيف كانت ابنتهم أما الحب الذي يجيء قبل الزواج فهو حرام، أو هو غير لائق ببنات العائلات الكريمة وعدت أسأله: يعني حضرتك لم تر السيدة زوجتك؟

فقال بسرعة: لا طبعًا.

– وما الذي كان يمنعك من أن تراها وسط أهلها، أليس من الضروري أن تلتقي بها خارج البيت لتعرفها أكثر؟ فغضب قائلاً: كيف أراها خارج البيت. إن هذا لا يليق، ولا يصح وبنات العائلات الكريمة لا تسمح بذلك، ويجب أن نحرص على مثل هذه السلوكيات المحترمة. أنت تحترمها وهم

يحترمونك. ولم أسترح للذي قاله مؤرخنا الكبير، فنظرته هذه أخلاقية، والتاريخ الذي يكتبه يعتمد على الأخلاق: هذا طيب وهذا شرير، وهذا سافل وهذا فاضل، فالتفسير الأخلاقي أو الديني للتاريخ ليس إلا نظرة ضيقة جدًّا لأحداث التاريخ السياسية والاقتصادية والعرقية والدينية والتآمرية. وأدهشني أكثر عندما قلت له: من أين يستقي المعلومات عن حياتنا المعاصرة؟ فقال: من الصحف! وهذه غلطة. فالصحف تخضع للرقابة ويمليها الحاكم ويمنعها ويزيفها. فالصحف يجب ألا تكون مصدرًا أساسيًّا، بل هناك مصادر أخرى: من الوثائق الرسمية، ومما يكتبه المفكرون والأدباء وأصحاب الأقلام المحترمة. أما أن يعرف من الصحف الملونة والملوثة والمشوهة فخطأ تمامًا، لأنه كرجل طيب يميل إلى تصديق ما يقال.

وظهر عدم الارتياح على وجهي فسألني عبد الرحمن الرافعي: أنت لا تستريح إلى هذا التفسير. قلت: عفوًا يا أستاذ، وإنما نحن تعلمنا أن هناك تفسيرات كثيرة لأحداث التاريخ. هناك التفسير المادي للتاريخ، أي الماركسي، والتفسير المعياري للتاريخ، كما يفعل فيلسوف ألمانيا اشبلنجر، وعميد مؤرخي بريطانيا توينبي، وهناك تفسير ديني وتفسير نفسي، كما يفعل الأستاذ العقاد في دراسته للشخصيات الكبيرة، وهناك التفسير البلاغي أو الأدبي كما يفعل طه حسين، وهناك التفسير الوثائقي للتاريخ، كما يفعل هيكل باشا وأحمد أمين وسليم حسن، ثم التفسير الأخلاقي الذي تقوم به أنت في تفسير أحداث مصر الحديثة.

هذه المناقشة وغيرها اختفت. بعد أن مسحوا شريط عبد الرحمن الرافعي ليسجلوا عليه خطب الرئيس عبد الناصر. وكذلك فعلوا بأحاديث طه حسين والعقاد والحكيم وحسين فوزي وعزيز أباظة- وا أسفاه!

بشرط أن يكون مطربًا !

أتذكر مطربًا من جنوب إفريقيا اسمه بوب أنتوني ظل يغني بلا توقف 24 ساعة.. فقط خمس دقائق كل ساعة يذهب فيها إلى دورة المياه.. يغسل وجهه ويجد عددًا من الفتيات يسوِّين له شعره ويضَعن له بعض العطر والقبلات.

وكانت الأغنيات بست لغات.. وبلغ عددها 110 أغنيات.. وعند آخر الساعة الرابعة والعشرين أعاد الأغنية الأولى.

تعالت صرخات الفتيات والفتيان في لندن.. يطلبون إليه أن يستمر.. واستمر يغني من جديد.. وكان صوته قد أصبح أجشَّ.. وبدأ وجهه يشحب قليلاً.. ولكنه ظل ممشوق القوام.. مصلوب العود.. مفتوح الشهية إلى الغناء والرقص.. وهذا المطرب الإفريقي كان في الأربعين من عمره.. وقد تدرب على هذه الحفلة أكثر من عشر سنوات.. وضرب الرقم القياسي وزاد عليه عشر ساعات.. وكانت هذه الحفلة من أجل مساعدة إحدى الجمعيات الخيرية.. وقد سمع أثناء الغناء ضوضاء.. فتوقف.. ولكن ثلاثة من الرجال في أيديهم مسدسات نهضوا وأشاروا إليه أن يستمر إنهم حرسه الخاص.. فقد كانوا يتوقعون من الحاقدين عليه أن يفسدوا الحفلة حتى لا يضرب الرقم القياسي.

وكان لابد أن يروي المطرب الإفريقي للناس كيف استطاع ذلك دون أن يسقط ميتًا.. لا بد أن يحدث الناس عن «الوصفة» الفنية والغذائية التي يتبعها. وقال إنه من أكثر الناس تناولاً لعسل النحل واللبن.. وإنه يأكل البليلة في الصباح.. والفاكهة طول النهار.. ولا يذوق الخمر.. ولا يقرب مجالس النساء قبل الحفلات الغنائية بأيام طويلة فالصوت مليء بالجنس.. ويجب أن يبقى الجنس في الصوت وفي الرقص وفي الفن كله.. وإذا أعطى الفنان نفسه للنساء لم يبق في فنه جمال!!

أما كيف يحتفظ بأنفاسه طويلة.. فقد أعلن: إن المطرب يجب أن يملأ صدره بالهواء، ثم يزفره أثناء الغناء بحساب، لأن الغناء نفسه ليس إلا تنظيمًا للتنفس، أو تنظيمًا للزفير، أي لإخراج الهواء من الصدر. وهذا سر يعرفه كل المطربين ولكنهم لا يعترفون بذلك لأحد. فكل صنعة لها سر، وهذا هو السر الأكبر للصنعة بشرط أن يكون المطرب مطربًا وليس «نفاخًا» بلا حنجرة!

حكاية أي صديق

كان لي صديق – ومن النادر أن يجد الإنسان صديقًا في هذا الزمان أو في أي زمان – هذا الصديق أستريح إليه. وهذه الراحة معناها أنني لا أجد حرجًا فيما أقول. مثلاً أقول له: والله أنا تعبان ولا أعرف معنى هذا التعب، ولا أعرف هل من الضروري أن يتعب الإنسان. وإذا تعب فإنه يصبح عاجزًا عن الراحة. وعلى سبيل المثال: إذا تسلقت سلالم عمارة طويلة فإن جسمي كله يوجعني.. فإذا حاولت أن أستريح على الفراش فإنني أشعر بأوجاعي كلها. وهذا الوجع يجعلني غير قادر على النوم فإذا عرفت أن هذه السلالم تنبت من رأسي.. وأنني كل يوم أتسلقها بخوفي وفزعي ويأسي وأملي ومرارتي ذهابًا وإيابًا ألف ألف مرة في اليوم.. فإذا كان هذا هو التعب فكيف تكون الراحة؟!

ولا أعرف ما الذي يقوله الصديق. ولكن أشعر بالإشفاق في عينيه. في لمحته. في لمسته. في تنهيده.. ثم لا يقول أي شيء وأكتفي بهذا القدر.. أي يرضيني بأن أجد الرحمة في عيني إنسان لا يريد مني شيئًا. إن الرحمة عنده بلا مقابل، رحمة مجانية وإشفاق مجانًا.. حب مجانًا.. وإذا قلت له مثلاً: وأنت كيف حالك..

ويكون رده: أنت لا تعرف من حالى الكثير وليس ضروريًا.. فلا فائدة من الشكوى وأنا واضح مع نفسي. فإذا كانت هذه الحياة تعجبني، فيجب أن أعيشها، وإذا لم تعجبني.. فمن الواجب أن أنتحر.. وما دمت حيًا فمعنى ذلك أنني راضٍ عنها. وما دمت أزورك فمعنى ذلك أنني أجد عندك شيئًا من الأمل على احتمال الحياة.. فأنا – إذًا شخص متفائل.. ولكن أحيانًا أريد أن أقول: آه.. أن أقولها وأراها على وجه صديق ولو لحظة!!

كان هذا صديقي منذ سنوات.. هذه السنوات غيرته.. بدلته. ألبسته ملابس أخرى.. وقبل أن تغير الأيام ملابسه غيرت ما في داخل الملابس حتى يليق بها وتليق به.. الآن يدخل وفي يده ورقة. عنده مطالب.. ويريد مني أن أعاونه على إنجازها. وأفعل ذلك.. ويجيء يوم آخر. وفي يده ورقة وأعاونه وفي يوم ضقت به. ولكن لم أصرح بذلك.. فهو صديق.. أو كان صديقًا.. وكدت في لحظة أن أثور عليه.. وضبطت نفسي وتحفظت على أقوالي واعتقلت لساني. وخرج وسألت نفسي ولكن ما عيبه؟ أيٍ غلط في سلوكه. إنه رجل واضح صاحب مصلحة.. فإن كنت صديقه حقًا فلماذا لا أساعده.. فهو لم يكن يطلب معاونتي يوم لم يكن يحتاج إليها.. فإذا احتاج إليها فكيف لا أؤكد له صداقتي..

إنها صورة العلاقات الإنسانية الحقيقية الواقعية.. ونحن – أنا وغيري– نضيق بها لأننا لا نحب الصراحة.. وإنما نحب أن نكذب على غيرنا وعلى أنفسنا.. وسلوكه الجديد هو امتحان لصداقة قديمة.. فإذا نجحت في الامتحان فهي الصداقة الحقة!

من غير بنطلون في حفلة كبرى؟!

كانت السماء تمطر والليل أسود قاتمًا ومعالم شارع سان جرمان ليست واضحة. ولكني رأيت أمامي من يمشي بطريقة ذكرتني بأستاذنا الدكتور لويس عوض، واندهشت. ثم اقتربت منه فكان هو.. أهلاً يا دكتور، حمد الله على السلامة. أين تسكن في باريس.

فأجاب بدون أسف: أنا كنت في طريقي إلى نيويورك وهبطت في باريس خطأ. وفي الطائرة كل أمتعتي.. أريد أن أتناول العشاء. فأين اعتدت أن تأكل؟

وذهبنا إلى أحد المطاعم الرخيصة في باريس. وامتدحت المطعم والطعام ووقف على الباب يقرأ ما يقدمه المطعم من طعام. وسألني منذ متى تتردد على المطعم، فقلت منذ ستة شهور. فضحك وقال: ياه.. أنت أكلت إسطبلا من الخيول والحمير.. ولم أفهم.. فقال: إنهم هنا يقدمون لحم الخيل!

فضحكت وقلت له: ولكنني نباتي. فأنا أكلت سمكًا فقط!

ونحن طلبة اعتدنا على «سرحان» الدكتور لويس عوض؛ كان يدخل قاعة غير قاعتنا ويلقي محاضرة على غير تلامذته.. أو ينسى الجاكتة أو منظاره الطبي.

وتذكرت الأديب الألماني لسنج الذي راح يدق باب بيته فنظر إليه الخادم من الطابق العلوي وقال له: البروفيسور لم يأت بعد. فشكره وقال: قل له سوف أمر عليه غدًا! وكذلك الموسيقار الروسي برودين الذي ذهب إلى إحدى الحفلات الكبرى وقد نسي ارتداء البنطلون.. واندهش جدًا كيف كانوا يستقبلونه بالابتسام والضحك.. ولم يفهم!

وكان أستاذنا المستشرق الألماني باول كراوس أستاذ اللغات الشرقية يختار أكبر القاعات في كلية آداب القاهرة ليلقي الدروس على ثلاثة من الطلبة؛ منهما اثنان لا يحضران وأنا وحدي الذي يذهب. ولم أكن من طلبته وإنما كنت معجبًا به.. وفي إحدى المرات ذهبت متأخرًا.. فأشار بيده ألاَّ أدخل. فقد تأخرت.. ومضى يحاضر بصوت مرتفع، فنظرت إلى القاعة ولم يكن فيها أحد، ولكنه لم ينتبه إلى ذلك.

وواريت باب القاعة لكي أستمع إليه. ونسي أنه منعني من الاستماع إليه وسألني: ما رأيك في المحاضرة فقلت: رائعة يا أستاذ!

شيء على الأرض!

من المناظر المألوفة أن تجد أناسًا في الشارع أو على الرصيف قد التفوا حول «شيء» مغطى بورق الصحف.. أو أن أحد الواقفين قد خلع عليه جاكتة.. هذا الشيء هو إنسان سقط على الأرض بفعل سيارة أو بفعل طوبة تدحرجت فوق دماغه أو بالوعة سقط فيها.. ومن الممكن أن يستمر هذا المشهد الصامت ساعة أو أكثر. وباستمرار هذا المنظر يتأكد معنى سخيف هو أنه لا أحد يدري ما الذي يفعله إذا أغمي على إنسان في الشارع، من الذي يستدعيه، ما هو الرقم الذي يطلبه، وأهم من ذلك أن أكثر الناس لا يعرفون الإسعافات الأولية.. أنا مثلاً!! ما الذي تفعله لكي يعاود إنسان تنفسه، ما الذي تفعله لكي يتوقف نزيف الدم؟ هل تترك هذا «الشيء» في مكانه.. أو تتعاون على حمله إلى جانب من الشارع؟ ما هو دورنا وما هو دور رجل الشرطة؟ إذا كان رجل الشرطة موجودًا فلا بد أن لديه معلومات عن مثل هذه الإجراءات أو من الضروري أن يكون مزودًا بها.. ولكن المشكلة هي عندما لا يكون هناك رجل شرطة.

معلوماتنا جميعًا ناقصة. وهمتنا خامدة.. وإحساساتنا بالغير ميتة. وربما كانت الخدمة الوحيدة التي يؤديها لنا هذا «الشيء» الذي سقط أنه ينقذنا من حالة السرحان التي عندنا.. فنجد فيه شيئًا يبلور تفكيرنا

أو انتباهنا أو يسحب عيوننا إلى شيء على الأرض.. ودون أن نفعل أكثر من ذلك.. وهذه هي المشكلة!! بمثل هذا الأسلوب نعامل سيارة الإسعاف عندما تصرخ وراء السيارات فعندنا كل واحد ينزعج من صوت سيارة الإسعاف.. من الإنذار الطويل ومن أجراسها. وكل واحد يقول في نفسه.. الحمد لله.. أي الحمد على أن مكروها لم يصبنا ولم يلق بنا في هذه السيارة.. ولكن في نفس الوقت لا نشعر بأن مكروهًا أصاب أحدًا غيرنا وأنه من الممكن أن يكون بينه وبين الموت لحظات قصيرة.. وأن إنقاذه على أيدينا، إذا نحن أفسحنا الطريق لسيارة الإسعاف، وإذا تحول انزعاجنا إلى عمل إيجابي.. وإذا تصورنا ولو لحظة واحدة أننا في سيارة الإسعاف وأننا مهددون في حياتنا وإذا لم نصل إلى الطبيب في أسرع وقت ومن أقصر طريق.

إذا أحسسنا بهذا كله أفسحنا الطريق لسيارة الإسعاف لكي تتقدمنا جميعًا.. ولكن الذي يحدث هو نوع من لذة تعذيب الآخرين أو نوع من اللامبالاة الإجرامية لأنها تؤدي في النهاية إلى قتل المريض والجرحى الذين تصرخ سيارة الإسعاف بالنيابة عنهم.

يبدو أننا في حاجة إلى كثير من المعلومات الأولية لنساهم في مساعدة الناس وإنقاذهم.. وفي حاجة أكثر إلى أن نكون أكثر إيجابية وأميل إلى الخير العام!

لا كرامة لصحافي في وطنه!

نحن الصحافيين نتصور أن لنا معزةً خاصة عند أبناء هذه المهنة. فكلنا نعيش على الورق والحبر والكلام. ومثل كل أبناء الطبقة الواحدة في الهم شرق وغرب.. هكذا نتصور في بعض الأحيان، فإذا وقع لنا حدث وكان غريبًا، فهذه فرصة للإثارة أي نشر مثل هذه الأحداث حتى لو لم تكن صحيحة.. مع أن المفروض أن يسألونا أولاً إن كان الذي حدث صحيحًا أو أنه مبالغ فيه.. ولكن في الغالب لا يحدث.

مثلاً انطلق الرصاص على غرفة نومي.. ودخل الرصاص وحطم الزجاج.. وانتقلت أجهزة الأمن إلى غرفة نومي، كل الرتب الكبيرة بوزارة الداخلية، فيجيئون يتناقشون ويصورون ويتصورون، وبسرعة تناقلت وكالات الأنباء وقنوات التليفزيون هذا الخبر.. وذهبت التخمينات إلى كل الاتجاهات سياسية ودينية وعاطفية، فالسياسية أنني من دعاة السلام مع إسرائيل وأنني أرسلت في مهام رسمية برًّا وبحرًا وجوًّا.. والدينية أنني هاجمت الجماعات الدينية أيضًا.. قصة انتقام قديمة.. ومن لطف الصحف وظرفها أن أحدًا لم يذكر أن الرصاص كان ردًّا على اقتحام أحد البنوك ومحاولة سرقة ما بها من فلوس.

وكان من الممكن أن تنشر الصحف أكثر ولا أعرف ما الذي دفعها إلى الاقتصاد والاقتصار على هذه التفسيرات وقالوا: إن هناك تبادلاً لإطلاق النار بين غرفة نومي والشارع وإنني أطلقت النار وأن ردًا مؤكدًا هو الذي أصاب النافذة ولم يصبني!

وجاءت سيارة لوري محملة بعدد من الشبان أطلقوا الرصاص على الحارس لبيت صغير لنا في منطقة الهرم. وأصابوه في ساقه.. أما هؤلاء فهم من «حزب مصر» الذي يرى أن الكتابة عن الرئيس عبد الناصر قد أغضبتهم.. وقد أطلعني وزير الداخلية على خريطة وجدوها عند أحد أعضاء هذا الحزب لاغتيالي؛ لولا أنهم اعتقلوه وأنه توفي بعد ذلك.

كل هذا ممكن أما الذي ليس ممكنًا فهو أن إحدى الزميلات قالت عن لساني إنني على يقين من أنه قبل خلق هذا الكون كان هناك كون آخر.. وأهم معالم هذا الكون كذا وكذا؟!

حاشا لله.. فأنا لا أستطيع أن أدعي هذا العلم. فالذي أعرفه في عالم الفلك قليل جدًا. صحيح أن حبي للفلك كبير جدًا. وحرصي على أن أعرف وأن أفهم هو من أقوى رغباتي ولكن مهما حاولت وفهمت، ومهما فهمت وتخيلت، ومهما تخيلت وعبرت فإنني لا أجرؤ أن أقول إنني «على يقين» فمن أين يأتيني هذا اليقين.. وهذا لا يجرؤ أن يقوله أكبر العلماء، بل إن هناك نظريات علمية لا تجرؤ أن تقول: من المؤكد.. وإنما فقط.. ربما ومن المحتمل ولعل، فلا توجد في الكون حقائق مؤكدة فأكبر الناس علمًا، وأكثرهم استعانة بالأدوات الحديثة في الرؤية والتصوير يبهره ويذهله الكون الذي لا نعرف له أولاً ولا آخرًا.. ولا إن كان الكون واحدًا ممتدًا أو هو

ما لا نهاية له من الأكوان. أما القول بأن هناك أكوانًا أخرى، فهذا مجرد احتمال. وقد عثر العلماء على نجوم تبعث بضوء سابق على الانفجار العظيم الذي يكون منه الكون الذي نعرفه.

وهكذا ترى أن من بين الصحافيين من يقسو على الزملاء أيًّا كان طولهم وعرضهم وعمقهم – مع الأسف!

أنا مغرور وأنت أيضًا!

الفنان مغرور بطبعه لأن أحدًا لا يقدره. ولذلك يتولى هو تقدير نفسه وتكريم نفسه.. فهو بالنيابة عن كل الناس يقول: أنا أصيل!!

وفي الشعر يجد الفنان حريته فهو يصف نفسه بأنه الأول والأخير، وأنه الأجمل من الجمال والألمع من النجوم.. ويقرأ الناس ما يقوله ثم يعلقون على ذلك بقولهم: إنه الشعر.. ضرورة القافية!

ولكن الفنان الذي لا يقول شعرًا يحدث نفسه بكل ما يقوله الشاعر إلى حد ما.. وهو ليس غريبًا حتى يوصف بالجنون وليس متزنًا حتى يوصف بالحكمة.. إنه بين الحكمة والجنون، إنه الشيء الصعب!

والذي يقرأ ما كتب د. زكي مبارك عن نفسه من عشرات السنين في كتابه «النثر الفني» يجد هذا المعنى واضحًا.. فهو كاتب مليء بالحيوية والاضطراب ولكن غروره الشديد جعل الناس لا تنتبه إلى عبارته السريعة الخاطفة الصحفية في الدرجة الأولى. ولا بد أن يكون د. زكي مبارك معذبًا في حياته.. يحتاج إلى التقدير. ولكنه لم يجده.. فهو في مقدمة هذا الكتاب يقول: إنه هو الذي اكتشف، وهو الذي شق الطريق أمام الباحثين. وأن أحدًا لا يستطيع أن ينكر فضله.. وأنه هو الذي وضع المشاعل وأنه أنفق عشرين عامًا من عمره في الدراسة والقراءة وأن نصف هذه السنوات كان في

البحث عن الرزق.. وأنه ألف هذا الكتاب في أيام سوداء وأن الناس لا يستحقون كل هذه التضحيات.. وأن الناس نصحوه ألا يشتم أساتذته في باريس.. ولكنه لم يستطع وأن الناس نصحوه ألا يهاجم طه حسين الذي أعطاه صفرًا في امتحان الجغرافيا.. ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الهجوم عليه وعلى غيره وأن يجعل نفسه في النهاية هدفًا لكل الأقلام!

ولكنه رغم أنف الناس جميعًا يقول عن نفسه: أنا المنارة التي أقيمت لهداية الباحثين في غياهب الأدب، أنا وحدي..

إنه فنان ولكنه لم يخطئ كثيرًا في تقدير نفسه وتحقير الناس!

لا يحب.. لا يضحي؟!

عندما سئل المؤرخ الكبير أرنولد توينبي عن الأسباب التي جعلته يهتم بتاريخ الإنسانية، أجاب في 150 صفحة ظهرت في كتابه المعروف باسم «تجاربي من حياتي».

فمن الضروري أن تكون هناك دوافع قوية له ولأي إنسان يريد أن يحقق شيئًا إيجابيًا في حياته.

فهو إنسان قلق، ومن الضروري أن يكون الإنسان قلقًا مضطربًا يلتفت يمينًا وشمالاً بعقله وقلبه وبقية الحواس.. ولكن القلق دافع إلى شيء وليس في جميع الأحيان شيئًا مفيدًا.

ولذلك يجب أن يكون هناك إلى جانب القلق: ضمير.. فالضمير يدفعنا إلى فعل ما هو نافع وما هو مفيد لنا ولغيرنا.. فإذا وضعنا القلق إلى جانب الضمير ظهرت أمامنا شخصية قوية من الناحية الأخلاقية.. ولكن ليس من الضروري أن تكون شخصية عالم كبير أو فنان عظيم.. وإنما شخصية إنسان جاد مهذب.

ولذلك لابد أن تكون هناك دوافع أخرى.. أي عوامل أخرى لا تكفي أن تدفعنا إلى الأمام، إلى أي هدف، وإنما تدفعنا إلى الهدف البعيد الذي

يكشف عن قدرتنا.. هذا الواقع هو حب الاستطلاع؛ أي الرغبة في أن نرى وأن نفهم ما نرى.

كان المؤرخ توينبي محبًا للمعرفة. أما لماذا اختار التاريخ بالذات؟ فلأن أمه كانت مؤرخة. وكانت تروي له كل قصص التاريخ الحديث والقديم قبل النوم وقبل الطعام، ولأن أمه كانت حريصة على أن يعرف ابنها التاريخ بصورة عملية، رفضت أن تجعله يسمع قصة واحدة من مربية أو خادمة. فلم تدخل بيتها خادمة أو مربية، وكانت أمه أيضًا تكتب له قصصًا تاريخية طويلة.

ولما سئل المؤرخ نفسه بعد ذلك. ولماذا التاريخ بالذات؟ قال: لأنني أريد أن أستمتع، فلا بد أن يكون الفن والعلم الذي يقبل عليه الإنسان شيئًا ممتعًا له عند قراءته وعند كتابته. وأن ننقل هذه المتعة إلى القارئ.

وأهم من ذلك أن يكون عاشقًا. فالذي لا يحب لا يضحي، والذي لا يعرف التضحية لا يفهم كل القيم الأخلاقية والجمالية.

ولذلك، فالتاريخ الذي أحبه توينبي هو صورة مضطربة صارخة منطقية أيضًا لحب الإنسان للقوة والجمال والخير والحرية، أي لحب الإنسان للدين، ولم يكن الإنسان في أي يوم من الأيام بلا دين – أيا كان هذا الدين – يعبد حيوانًا أو شمسًا أو آلهةً أو إلهًا.

قل لي كيف تقرأ أقل لك من أنت؟!

أنت لا تعرف كيف تقرأ ولا كيف تكتب!

لست وحدك ولكن كل الناس أيضًا.. فكل إنسان له طريقة في إمساك الصحيفة وتقليب صفحاتها وقراءتها.. هناك أناس يقرأون الصحيفة بعيدة عن عيونهم. وأناس يلصقونها بعيونهم. وأناس يقرأون بالجنب.. وآخرون يقرأون بالطول كأن الصحيفة مكتوبة باليابانى. وبعض الناس يقرأون بعين واحدة كأنهم يتجسسون على الناس.. أو كأنهم يريدون أن يقرأوا دون أن يشعر أحد من الذين يقرأون عنهم أو يرونهم في الصحف. والذين يقرأون وقوفًا ونيامًا ويقرأون الصحف التي في أيدي غيرهم من الناس..

فأين الخطأ في هذا كله؟

لا أريد أن أذكر عدد الأطباء الذين أيدوا هذه الملاحظات في مؤتمر العيون العالمي.. ولكن أؤكد أن هذه ملاحظات الدكاترة على الناس.. والخطأ هو أن كل إنسان يجب أن يذهب إلى الطبيب ويسأله عن المسافة التي تبعد بها الصحيفة عن وجهه.. وهل يقرأ تحت النور أو بعيدًا عنه.. هل يقرأ الكتب العلمية.. أو هل يقرأ القصص الطويلة أو القصيرة وكم يكون حجم الحروف، كل إنسان يجب أن يفعل ذلك.. فإذا لم يفعل فإنه

معرض لضعف مستمر في عينيه.. وأنواع من الصداع لا يعالجها الأسبرين.. بل كثيرًا ما أدَّت القراءة المرهقة إلى اضطراب نفسي.. وأحيانًا اجتماعي دون أن يكون هناك أي سبب غير تعب العيون!

ومعنى كلام الدكاترة أنه لا يوجد إنسان واحد في الدنيا يعرف القراءة وأصولها.. ولا يستطيع ذلك إلا إذا أمسك الإنسان في يده مسطرة ووضعها تحت ذقنه كلما فتح صحيفة أو كتابًا.. والمسطرة يجب أن تكون في طول المسافة المسموح بها طبيًّا!

ولا نعرف كيف نكتب أيضًا!

فلا يوجد اثنان من الناس يمسكان القلم بطريقة واحدة، ولا يضغطان عليه بصورة مريحة.. ولذلك اختلفت أشكال الحروف وأبعادها وأطوالها ووضوحها.. واختلفت الأصابع النحيفة عن الأصابع الغليظة.. واختلفت درجات الضغط على القلم.. ويفسر علماء الخط أن الكتابة السريعة والبطيئة لها علاقة بالطريقة المريحة لمسك القلم.. وسبب ذلك أن أحدًا لم يعلمنا أن نمسك القلم.. وإنما علمونا أن نكتب فقط.. أما لون الحبر أيضًا فله علاقة بالمزاج الخاص وله علاقة بالعين.. وهناك أناس يكتبون بالحبر الأحمر والأخضر والأزرق وقليلون الذين يختارون الحبر الأسود.

وإن كان العلماء يرون أن الحبر الأسود يدل على التشاؤم العميق وهذه الملحوظة الوحيدة التي تنطبق على كاتب هذه السطور، فأنا أكتب بالحبر الأسود منذ خمسين عامًا. وليس ذلك لمزاج شخصي وإنما سببه أن أصدقاء لي من الكويت والسعودية أهدوني كمية تكفي لنهاية هذا القرن.

أحيانًا كثيرة لا يهم الشكل!

ربما كان هذا عدلاً سماويًا: كل أصحاب الأصوات الجميلة ليست لهم وجوه جميلة!

وفي استطاعتك أن تستعرض في ذكرياتك كل أصحاب الحناجر الذهبية عندنا وفي العالم كله..

وهذا معناه أن الصوت الجميل يجعلنا ننسى الوجه أو الجسم الذي يصدر عنه. إن هذا الصوت يرفعنا ويرتفع بنا إلى درجة أعلى من الشكل والشكليات ومن الجسم والماديات ومعنى ذلك أن الصوت الجميل يتحدث إلى أرواحنا وينسينا أجسامنا.. وأنه يهز القلب.

والقلب يدق فينا ويدقنا ويسحقنا حتى نصبح ذرات تتطاير مع النغم إلى السماء..

وعندما نقول: إن هذا الصوت ملائكي، نقصد أنه صوت من السماء وأن الصوت نفسه قد حولنا إلى ملائكة نحن أيضًا.. فالصوت فوق ونحن وراءه أيضًا..

وكثير من أصحاب المواهب الفنية ليست أشكالهم جميلة.. على سبيل المثال الممثلة كاترين هبورن والحاصلة على ثلاث جوائز أوسكار في

التمثيل ليست جميلة لا شكلاً ولا صوتًا.. ولا جسمًا. ولكن انظر إليها كيف تقول ما تقوله.. استمع إليها وصوتها الغليظ يتمزق ويتقطع ودموعها تنزل بالحساب الدقيق. انظر إليها وهي لا تقول أي شيء.. وفي نفس الوقت تقول كل شيء. لقد شاهدتها في أحد الأفلام، كانت قمة الجمال الفني. كانت نموذجًا، عملت بقاعدة تقول: ليس الوجه ولا الجسم ولكن البلاغة، ليس المبنى ولكن المعنى؟!

الموسيقار العظيم بيتهوفن قصير مكلبظ منكوش الشعر، في عينيه قسوة، وفي شفتيه مرارة الإصرار. وإذا دنوت منه أكثر انبعثت منه رائحة كريهة ليست رائحة العرق فقط. وإذا نظرت إلى أظافره دون أن تعرفه أدركت أن ألمانيا لم تخترع شيئًا لنظافة أيدي عمال مناجم الفحم!

ومنذ سنوات كنت أتطلع إلى وجه الأديب السويسري ديرنمات، وأتمنى لو ألمس رأسه الكبير وأفتش تحت منظاره عن هذا الينبوع المتدفق من النكت.. وعندما رأيته وجدت أن له رأسين: رأسه وكرشه.. وأنه يتلعثم، وأن العنف الذي في عينيه ليس إلا غيظًا؛ لأن أنفه المزكوم دائمًا لا يسعفه بالأوكسجين اللازم!

ليس الوجه أو الجسم.. وإنما شيء آخر من عند الله!

هواياتهم الغريبة!

هل من الضروري أن تكون لك هواية؟

كثيرون يرون هذا ضروريًا لأن الراحة ضرورية. ولأن من أهم معاني الراحة أن تبعد نفسك بالقوة أو الذوق عن العمل اليومي الذي يشدك من كل حواسك ويحطمك أولاً بأول.. وأنا أستبعد من عالم الهواة الذين يجدون الأكل والشرب والنوم هواية، لأنها هوايات مرهقة.. والهواية هي التي تريح؟!

ومن أشهر الهواة الزعيم السياسي تشرشل، فقد ألف كتابًا عن الرسم كهواية. وكان تشرشل في أقصى ساعات المعارك الحربية، يهرب ومعه صندوق الألوان وإحدى اللوحات ويرسم السماء الصافية أو الرمال والبحر أو بعض الأصدقاء.. وكان يستغرق في هذا العمل تمامًا كأنه ليس قائدًا عسكريًّا أو زعيمًا سياسيًّا.. أو كأنه أحد المتفرجين على لعبة الحرب بين ألمانيا وبريطانيا.. وبعد ذلك يعود إلى عمله. وقد استراح تمامًا أو إلى حد كبير.

ولا يهم ماذا يكون نوع الهواية.. كما أنه لا يهم أن تمدد رجلك أو أن تشم الهواء النقي. فهناك أناس يجمعون أغطية الزجاجات الفارغة أو علب الكبريت، وهناك هواية – ظاهرها الهواية – وهي جمع ملاعق وشوك

وسكاكين الفنادق والمطاعم.. وبعض الناس عندهم هوايات - مثل جمع مفاتيح الغرف التي ينزلون بها في الفنادق، ولذلك وجدنا الفنادق تضع مفاتيح الغرف في كرات من الحديد أو من الخشب حتى لا يدَّعيَ الزبون أنه نسي المفتاح وحتى إذا أراد أن ينساه فإن هذه الكرات تفضحه..

ومن هوايات الأطفال جمع التوقيعات.. وإن كان تشرشل في مذكراته عن الحرب العالمية الثانية يروي لنا مفاجأة.. مفاجأة له هو أيضًا.. أنه أثناء انعقاد مؤتمر يالتا فوجئ تشرشل وروزفلت بأن ستالين نهض واقترب من كل منهما وطلب التوقيع في أتوجراف معه وكانت هذه إحدى هوايات ستالين.. وقد أعلن الفيلسوف الفرنسي أن هوايته هي أن ينظر إلى وجوه الناس - سارتر نظره ضعيف جدًا- ولابد أن يكون المقصود ليس مجرد النظر إلى وجوه الناس وإنما التأمل في الناس - في الوجه والقفا أيضًا!!

وحاولت أن أتذكر إن كانت لي هواية واحدة فلم أجد، فقد كانت لي هوايات وضاعت وتحولت إلى حرفة أو نوع من الحرف، كنت أهوى القراءة فأصبحت أحترفها.. كنت أهوى الكتابة فأصبحت أحترفها.. كنت أهوى أن أتابع أصحاب الهوايات فأصبحت أحترف معرفة هوايات الناس ولذلك استراحوا ولم أسترح!

أعطته وأخذت كثيرًا

لا بد أنك استمعت إلى الموسيقار العظيم بيتهوفن، فقد اقتبس منه كل المؤلفين والملحنين في مصر. ولا أستطيع أن أحصي لك العبارات الجميلة التي نقلوها كما هي. ولكن هذا الرجل الألماني أعجوبة بين الرجال وبين الفنانين.

فهو أولا يؤمن بأن الفن فوق الجميع.. وأن الملوك والأمراء في عصره زائلون.. وأنه هو الباقي ولذلك يشعر دائمًا أنه مندوب الأبدية في كل مكان يذهب إليه.. ويطلب من الجميع أن يعاملوه على هذا الأساس.. ولذلك لم يكن مجاملاً ولا متواضعًا.. فقد عاملته الطبيعة معاملة خاصة. أعطته العبقرية والإبداع.. وأعطته أشياء أخرى لا ضرورة لها، كالفقر والمرض.. وثانيًا يعتقد أن الذي يعيش من أجل الفن يجب ألا يهتم بأشياء أخرى.. وأن الفن قضاء وقدر. وأنه محكوم عليه بأن يعبر وأن يموت وهو يعبر، وأن حياته هي هذا النوع من الاستغراق المميت.

والموسيقار بيتهوفن قصير القامة، ممتلئ كبير الرأس وشعره ثقيل ضخم، وفمه كبير، وأسنانه منفرجة بارزة.. ولأسباب صحية أو نفسية لا نعرفها الآن نجد الموسيقار العظيم يبصق على الأرض في أي مكان.. هل لأن المنديل لم تكن له شعبية؟! أو هل لأن الشوارع في ألمانيا منذ

قرنين كانت في قذارة شوارع القاهرة والجيزة هذه الأيام؟ هل لأنه يتذكر بعض المعاني أو الألحان لا أحد يعرف بالضبط.. وأغرب من ذلك أن الموسيقار العظيم لم يكن قادرًا على أن يمسك شيئًا بيده، وكل شيء يمسكه بيده يقع منه.. الورق والقلم والطعام والملاعق والشوك..

فأصابعه ممدودة إلى الأمام معظم الوقت.. إنها في حالة استعداد للعزف على البيانو فقط.. ولكن ليس لديها أدنى رغبة في أن تمسك شيئًا.

هذا العبقري الذي هز الآذان والقلوب في العالم، هذا البركان الموسيقي، لم يكن قادرًا على الرقص، حاول أن يتعلم الرقص ولكنه لم يفلح. إن ساقيه لا تطاوعانه أيضًا أن يتحرك على أي إيقاع آخر غير موسيقاه السيمفونية، وسيمفونياته لا تشجع على الرقص وإنما على الثورة والسمو!! وقد وجد الموسيقار بيتهوفن حلاً لمشكلة الخدم في عصره، أنه لم يستعن بواحد منهم قط.. ولذلك كان بيته نموذجًا للقذارة والفوضى.. الأطباق على المقاعد والسرير، وإلى جوار البيانو كانت توجد «قصرية» دائمًا!! وعندما مات بيتهوفن وضع يديه على المصران الغليظ الذي أوجعه طوال حياته ونظر إلى السماء بعد أن أصابه الصمم تمامًا ثم شد أذنيه بيديه ورفع يديه يهدد أحدًا في سقف الغرفة ثم ارتد بعنف وسال لعابه.. لا بد أنه أراد أن يبصق ولكنه لم يستطع هذه المرة!

وكان العقاد على حق!

شكا أحد الفنانين من أن «الصحف» عندما تنشر كلامًا عنه فإنها تضع علامة التعجب في نهاية السطر! وأن هذه العلامة تضايقه. لأن معناها أنه شيء مدهش أو شيء محير..

مثلاً إذا قيل عاد فلان من لبنان ومعه ست شنظ بها أسطوانات، واحدة فيها أسطواناته هو. وعلامة التعجب بعد ذلك.. ويسألني ما معنى هذه العلامة. لا بد أنها للسخرية منه.. ولا يعرف لماذا يسخرون منه.. أليس من المألوف أن يأتي أي مطرب بأسطوانات له قد سجلت في بيروت.. تمامًا كما يفعل أي مؤلف عندما يحمل معه نسخًا من كتاب صدر له في الخارج؟

وأذكر أن المرحوم العقاد غضب جدًا عندما نشرت عنه الصحف أنه تقاضى مبلغ 200 جنيه عن حلقة في برنامج «نجمك المفضل»، وعاتبني بشدة ولامني وحملني مسئولية وضع علامة التعجب بعد المائتي جنيه. وقال العقاد: هل معنى ذلك أن الذي كتب الخبر يستكثر على رجل مثلي أن يتقاضى هذا المبلغ التافه.. مع أن التليفزيون يعطي راقصة مثل هذا المبلغ وأحيانًا أكثر.. هل «أنتم» ترون أن رجلاً مثل العقاد قرأ عشرات الألوف من الكتب وألف عشرات الكتب في خمسين عامًا لا يستحق هذا

المبلغ الذي أعطي قبل ذلك لطه حسين.. ثم ما هي مقاييس القيمة الإنسانية عندكم.. إلخ.

والمرحوم أحمد حسن الزيات سألني أيضًا عن السبب الذي من أجله نشرت الصحف أنه أعاد طبع كتبه.. وأن أحدَ كتبه قد طبع قبل ذلك 15 مرة – وعلامة تعجب!

وسألني المرحوم الزيات برقته المعروفة: هل ترون أن هذا الرقم قليل؟ فعلاً قليل جدًا لأنه كان في الإمكان طبعه عشرين مرة لولا أنني حريص.. ولذلك أشكركم على حسن الظن!

وليكن معلومًا لدى كل الناس الطيبين – أي غير الصحفيين – أن علامات التعجب هذه لا تدل على أي معنى خاص.. وإنما هي عادة في الكتابة، وأن شكلها أجمل من شكل النقطة الواحدة.. أو النقطتين.. وأن علامات التعجب هذه لا توجد بهذا الإسراف إلا في الصحف المصرية، وأنه من النادر جدًا أن يجد الإنسان في الصحف الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية مثل هذه العلامات.. لماذا؟ لأن التعجب له معنى عند غيرنا.. أما نحن فنتعجب من الفاضي والمليان– أي أننا لا نتعجب لشيء!

وقديمًا قال أستاذنا العظيم أرسطو: إن التعجب بداية المعرفة.. فقط بداية ولكنه ليس المعرفة!

وقد وقفنا فقط عند البداية!

من ندم إلى ندم: حياتنا!

في مذكرات الفيلسوف الراحل برتراند راسل يقول: ندمت على أشياء كثيرة في حياتي.. وندمت على أنني لم أسأل كثيرًا.

مع أن الفيلسوف كان كثير التساؤل لدرجة أن مربيته كانت تقفل فمه بالقوة.. وكان يغيظها بأن يتظاهر بالنوم ويحلم بصوت مرتفع.. وفي نومه يسأل نفس الأسئلة!!

أما الشيء الذي ندم عليه حقيقة فهو أنه رأى سيدة تضرب زوجها بالقلم وانزعج.. وتمنى أن يمد يده ويضرب الزوج قلمًا آخر.. لأن الرجل الذي يقبل أن تصفعه سيدة مرة واحدة ولا يتحرك يستحق أن تمتد إليه الأيدي.. كل الأيدي!

ولم يشأ الفيلسوف أن يسأل إن كان هذا الرجل قد تلقى الإهانة لسبب وجيه.. أو بلا سبب! إنه استنكر الموقف.. ورفض أن يراه أو يقترب منه أو يسأل عن حقيقة الأمر.. لو فعل ذلك رجل شرقي لقال الناس: إنه شرقي.. أحس بإهانة في رجولته.. وعطل عقله.. ولم يفكر في هذه القضية.. ولكن الذي فعلها غربي وأعظم فيلسوف!

ويقال إن الأديب الفرنسي فلوبير قد ندم على أن الله لم يخلقه امرأة.. ويقال أيضًا إنه يتمنى أن يحوله إلى امرأة ولو عشر سنوات.. لأنه أراد أن يعرف بالضبط كيف تفكر المرأة.. أراد أن يعرف الجانب الآخر من هذه الدنيا.. فهو لا يعرف إلا ما يدور في رءوس الرجال.. ويتخيل الباقي مع أنه عندما فرغ من روايته «مدام بوفاري» قال عن نفسه: أنا هذه السيدة!!

أما أديب إيطاليا ألبرتو مورافيا فقد أصيب بشلل الأطفال وهو صغير ولم يذهب إلى المدرسة.. وتعلم أربع لغات في سريره.. وقرأ آلاف الكتب نائمًا على ظهره معظم الوقت.. وهو يندم على أنه لم يشتغل بتربية الدواجن وهو صغير، فقد اقترح عليه أحد أقاربه أن يشغل فراغه ويحرك ساقيه.. ولو فعل ذلك لاستطاع اليوم أن يمشي بدون أن يعرج.. وبدون أن يكون ضعيف السمع!!

أما الأديب الإنجليزي نويل كوارد فقد أعلن في إحدى الحفلات أنه لم يندم على شيء في حياته، وأن هذا هو الشيء الوحيد الذي يستحق الندم.. إذ كيف يعيش الإنسان مؤلفًا وممثلاً وسكيرًا وفاجرًا وأراجوزًا وساخرًا وكافرًا دون أن يشعر بالندم مرة واحدة.. كان يجب أن يندم على أنه بدد حياته فيما ينفع الناس.. وكان الأفضل أن يشغل نفسه بنفسه فقط.. أما الناس فلا يساوون هذا العذاب!!

أما نحن أبناء الريف المحافظ الخائف فقد ربينا على الندم.. أن نندم على ما فعلنا وعلى الذي لم نفعله أكثر!

لا بد من «سفينة نوح» مرة أخرى!

أنشأ العلماء «سفينة نوح» أخرى.. أما السفينة الأولى فقد أوحى الله إلى نوح عليه السلام أن يصنعها وصنعها على الشاطئ. والناس يسخرون. وهم يسخرون لأنهم لا يعرفون أن الطوفان سوف يجتاح كل شيء ولن ينجو إلا ركاب السفينة. وقد حمل نوح في سفينته من كل زوجين اثنين، من الإنسان والحيوان والنباتات أيضًا. ولما انحسر الطوفان استقرت السفينة فوق جبل «الجودي» كما جاء في القرآن الكريم: «واستوت على الجودي» – وهذا الجبل اسمه أرارات أيضًا على الحدود الأرمنية – التركية. وبدأت الحياة من سفينة نوح!

ولاحظ العلماء أن الجليد هو أعظم ثلاجة لحفظ التاريخ. ففي الجليد وجدوا بقايا الإنسان القديم والحيوانات أيضًا. فالجليد الجاف مثل الرمال الجافة قد احتفظ بوقائع التاريخ. فنحن في مصر نكتشف كل يوم مقبرة وتابوتًا.. احتفظت بها الرمال الجافة.. ومنذ ثلاثة أعوام عثر العلماء على قطعة حجر غريبة الشكل واللون وجدوها في القطب الشمالي. الحجر سقط من 59 ألف سنة وجاء من كوكب المريخ الذي عمره ثلاثة آلاف مليون سنة!

إذن.. لا بد من صناعة سفينة نوح أخرى. وفي هذه السفينة يحتفظ العلماء بكل بذور النباتات، فإذا ما حدثت كارثة أرضية أو فلكية وانعدمت النباتات خرجت ملايين البذور من السفينة الجديدة.. وقد اختاروا لها مكانًا في منطقة القطب الشمالي. وقد أقام العلماء مخزنًا حديديًّا على سطح أحد الجبال في منطقة لا تنقص درجة حرارتها عن ثلاث درجات مئوية تحت الصفر. وهو مخزن محكم تمامًا مكيف أطلقوا عليه اسم «سفينة نوح» طوله 150 مترًا وبه صناديق مفضضة لملايين البذور، والصناديق سوداء من الخارج. وللمخزن ستة مفاتيح واحد عند أمين عام الأمم المتحدة، وبقية المفاتيح عند هيئات دولية.

وقد حدثت كوارث إنسانية انعدمت فيها الحياة كالحروب الإفريقية التي أبادت ألوف البشر والحيوانات والحقول. وكذلك ما حدث بسبب الحرب العالمية الأولى والثانية. لقد طغى الدمار على الحقول والغابات ومن الممكن أن تقع كوارث فلكية كما حدث من ستين مليون سنة عندما اقترب أحد النيازك من الأرض وأحدث تجويفًا مروعًا في أمريكا. وقضى النيزك على كل الحيوانات الضخمة مثل الديناصورات التي حكمت الأرض ستين مليون سنة، كما تلاشت الأشجار والحيوانات الصغيرة. ولذلك كان لابد من التفكير في إنقاذ البشرية مرة أخرى عندما تنعدم البقول والفواكه والبذور وكل ما يحتاجه الحيوان والإنسان.

وقد تمكن العلماء من توفير الحماية والأمان لسفينة نوح هذه بأن تبقى صالحة للطعام الآدمي عشرة آلاف سنة.. ومن يدري ربما أشعلت إحدى الدول القوية حربها على البشرية بنسف سفينة نوح!!

من حاكم إلى حكيم: يا قلب احزن!

إذا كان لك رأي فأنت تحاول أن تقنع به الآخرين.. أي تحاول أن تنشره لعله يكون رأيًا عامًّا.. وبعض الناس لا يتمسكون بأفكارهم وبعض الناس يموتون من أجل أفكارهم..

ولكن ليس من الضروري أن يكون صاحب الرأي هو أحسن من يطبقه أو ينشره على الناس.. لأن تطبيق الرأي محتاج إلى مؤهلات من ضمنها: أن يكون قادرًا على إقناع الناس ومواجهتهم والرد على كل اعتراض ومواجهة كل مقاومة والنجاح الدائم بعد ذلك.

والفيلسوف الإغريقي أفلاطون كان يدعو إلى مجتمع تسوده العدالة والمساواة المطلقة بين الناس.. وقد أعطى إحدى الجزر ليطبق فلسفته كما يجب.. وحاول وفشل.. ومع ذلك بقيت فلسفته محترمة.. وجاء هذا الفشل دليلاً على أن الفيلسوف ليس من السهل أن يصبح حاكمًا أو ملكًا؟

ولذلك اعتذر فيلسوف إيطاليا بندتو كروشته عن أن يكون أول رئيس جمهورية لإيطاليا.

واعتذر العالم الكبير أينشتين أن يكون أول رئيس لإسرائيل.. ولكن أفلح آخرون في أن يكونوا الفيلسوف والحاكم في وقت واحد مثل لينين في

روسيا وماوتسي تونج في الصين.. فكلاهما حاكم مقتدر.. وكلاهما فيلسوف خطير.. وقادر على أن يواجه كل الناس ويوجههم أيضًا.. وقد نجح لينين وماوتسي تونج بينما فشل الفيلسوف العظيم كارل ماركس.. فهو مفكر عميق.. ولكنه إداري فاشل. بل إنه عاجز عن أن يدير أبسط شئونه.. شئون بيته مثلاً!! وفي نفس الوقت أيضًا يحاول كل صاحب سلطة أن يكون إلى جانب ذلك صاحب رأي.. صاحب فن.. وبذلك يجمع إلى السلطة قدرة أخرى على الفكر.. وقدرة على فكرته بصورة أخرى.. أي على أن يكون له وزن آخر..

ومنذ أقدم العصور والحاكم يحاول أن يكون فيلسوفًا أو أديبًا أو فنانًا.. فتشرشل رئيس وزراء إنجلترا أديب مؤرخ وديجول رئيس جمهورية فرنسا أديب ومفكر وكثير من الأدباء وزراء في كل الدنيا.. وهذه المناصب الكبيرة تجعل للفكر أو الفن وزنًا خاصًّا.. وتضيف إلى صاحبه مسئولية أدبية وخطرًا اجتماعيًّا.. ولكن يظل دائمًا من حق الإنسان أن يتساءل: هل هذا الذي نقرأ لهم عمل أدبي أو عمل ليس أدبيًّا أو فنيًّا؟!

والمهم دائمًا أن يكون عملاً أدبيًّا، ولا يهم أبدا الصفات الأخرى لصاحب العمل الأدبي.. ربما كانت هذه المناصب هي التي سهلت نشر العمل الأدبي على أوسع نطاق.. ممكن.. ولكن في هذه الحالة يكون «كلامًا» منشورًا وليس أدبًا منتشرًا.

إنه الحلم القديم لكل الناس.. أن يكون الحاكم حكيمًا وأن يكون الحكيم حاكمًا!

من الكفران إلى النكران!

هل اختفى الحب العظيم؟ هل تلاشى الإخلاص حتى الموت؟ هل الحياة أقوى من الموت.. والحرص على الحياة أقوى من ذكريات الموتى؟ ألم يعد هناك شيء يساوي أن يتعذب الإنسان من أجل إنسان آخر أحبه ومات؟ هل ضعفت ذاكرة الناس أو تصلبت قلوبهم!! هل من السهل على أي إنسان أن ينسى لحظات عميقة في حياته أو سنوات غالية في عمره.. هي حياته وهي عمره؟

إن الكثير من القصص والمسرحيات والأفلام التي نراها تؤكد أن الحياة قطار أو طائرة، أو سيارة.. وأننا نلتقي بعض الوقت ونفترق لأي سبب.. ولكن علينا أن نكمل الرحلة وحدنا أو مع آخرين.. فكل إنسان قد أخذ نصيبه من الحياة.. وليس من العقل أن يبيع الإنسان عمره على أناس انتهت أعمارهم.. فلا شيء يساوي هذا العذاب أو هذا الألم.

ومعنى ذلك أن العلاقات الإنسانية هينة رخيصة.. عابرة.. وأن الإنسان يجب ألا يفرح بشيء لأنه سيفقده ويجب ألا يبكي على شيء لأنه لا أمل من وراء البكاء.. فما راح راح.. وما جاء سوف يروح.. وما دامت الدنيا كلها إلى نهاية.. فلماذا نتعجل هذه النهاية ولماذا نعيشها قبل الأوان؟

ولكن يبدو أن تيارًا عكسيًا بدأ يظهر على الشاشة يرد إلى الإنسان أمله في الحياة وتمسكه بالقيم الأخلاقية.. ومقاومته للموت والفناء.. فالذكريات والحياة على الذكريات معناها: أن الذي مات لم يمت.. بل في استطاعة الموتى الأعزاء أن يستولوا على حياتنا.. ونحن سعداء بهذه التضحية.. وأتذكر فيلمًا لصوفيا لورين اسمه «عباد الشمس» هو البداية الحقيقية للحب الكبير العميق.. فهي تقوم بدور زوجة مات زوجها في الحرب العالمية الثانية تحت الجليد في روسيا.. ولكنها لا تستطيع أن تصدق ذلك.. فذهبت إلى روسيا تبحث عن الزوج.. تنتقل بين المدن والقرى.. وتقف على أبواب المصانع تنظر إلى وجوه العمال ذوي الملامح الإيطالية.. إن شيئًا في داخلها.. في قلبها.. في أحلامها يؤكد لها أن زوجها لم يمت وأنه حزين عليها.. وأنه في حاجة إليها.. كما أنها في حاجة إليه.. وتنتقل صوفيا لورين إلى مقابر الشهداء وتتمشى بين الموتى، بين قصص حب تحولت إلى تراب، بين أحلام تكسرت وآمال تهشمت!

وسجلت بداية إنسانية.. أو بداية لتصحيح الضياع الإنساني.. أو الضياع العاطفي.. ومعنى ذلك أن الإنسان بعد أن يموت يمكن أن يعيش في قلوب الذين يحبهم.. إنه بعد موته لا يدري بشيء.. ولكن الأحياء يعودون إلى حياته مع مزيد من الامتنان..

الجديد هو شعور الإنسان بالامتنان في عصر من أهم معالمه: الجحود والنكران والكفران أيضًا!

الأحاديث فقط هي الأحسن!

هناك عيوب في الكلام مع الناس. من ضمن هذه العيوب أن تتكلم أنت وتظل تتكلم.. والناس يستمعون أو يضحكون، ويكون سكوت الناس دعوة إلى مزيد من الكلام.. ويكون ضحكهم تشجيعًا على الاستمرار مع أن العكس ممكن.. فيكون سكوت الناس نوعًا من الاستسلام للقضاء والقدر..

ويكون ضحكهم عليك.. أو على أشياء أخرى خطرت على بالهم.. كأن تذكرهم أنت بإحدى الشخصيات المسرحية، هذا فيما يتعلق بالرجال.

أما النساء فلهن طريقة عجيبة فريدة.. فهن جميعًا يتكلمن في وقت واحد كالطيور أو الدجاج إذا تسلل بينها قط - مثلاً.. ومن الغريب أن النساء قادرات على الكلام والاستماع والفهم في وقت واحد!

أما سبب هذا العيب عند الرجال.. فهو أن يكون الرجل مدرسًا ابتدائيًا أو ثانويًا.. فقد اعتاد أن يقول. واعتاد من الذين أمامه أن يسكتوا.

فإذا قاطعه أحد من الناس انزعج وتضايق.. وقد يسكت بالقوة.. فهو مدرس والذي يقاطعه تلميذ.. والمقرر طويل. والحياة مقرفة. والحصص كثيرة. والمفتشون سخفاء.. والكراريس كثيرة. والدروس الخصوصية.

وزوجته وأولاده قد أنهكوه نفسيًا وجسميًا؟ ولذلك فهو لا يطيق أن يستوقفه أحد لأي سبب!

أما إذا كان مدرسًا جامعيًا فإن تلامذته بالمئات وأحيانًا بالألوف في وقت واحد. وقد اعتاد أن يتكلم. واعتاد أن يسمع المقاطعة والضوضاء في الميكروفون أو من غير ميكروفون.. ثم لا يبدي أي اهتمام.. وإنما يمضي في الكلام كأن أحدًا ليس حوله.. أو كأنه يتحدث إلى نفسه!!

وهذه عيوب المتحدثين في الإذاعة والتليفزيون أيضًا. وعيوب الناس الذين يشغلون مناصب كبيرة: لهم أفواه وليست لهم آذان– يقولون ويقولون ولا يسمعون!! ولكن الغريب أنني لاحظت أن أكثر الناس كذلك.. أي أن أكثر الناس يتكلمون فإذا قاطعتهم لتبدي رأيك أو لتستوضح لم يستمعوا إليك مع أنهم لا مدرسون ولا أساتذة ولا قياديون. إذن ما هي الحكاية؟!

الحكاية: أن كل إنسان يشعر بنفسه ولا يشعر بغيره.. وكل إنسان يريد أن يقول ولا يهمه أن تسمعه أو تفهمه!

إذن.. فالنساء وأحاديثهن أحسن!

عنيف كل ما في حياتنا!

في الصحف البريطانية مناقشة حول أضرار العنف في البرامج التليفزيونية على الأطفال.. وضرورة التدخل حتى لا يفسد هذا الجيل كله..

رأي يقول: إن الشر أكثر إغراء من الخير، خصوصًا إذا عرفنا أن الشر جميل ولذيذ.. وأن المسلسلات التليفزيونية تتفنن في الضرب وإطلاق الرصاص والقتل: مسلسلات رعاة البقر.. والقصص البوليسية، ويكفي أن ننظر إلى حادثين هامين جدًا: أحدهما إعادة صياغة «الكتاب المقدس» في عبارة سهلة، هذه المحاولة تعتبر ثورة في التعاليم الدينية.. والحادث الثاني هو سرقة القطار المشهور.. من المؤكد أن الأغلبية الساحقة من الأدباء الشبان والصغار يقرأون حادث سرقة القطار.. ولابد أن هذا العنف يترسب في نفوس الأطفال ويغريهم بالتقليد.. والأطفال حيوانات تقلد ما حولها من البشر.. وإذا نحن أعطينا مجموعة من الأطفال بعض اللعب فإنهم يتقاسمونها ويلعبون بها في هدوء.. وإذا عرضنا عليهم فيلما يرون فيه الكبار يستخدمون هذه اللعب نفسها في تكسير الزجاج والنتيجة تحول الأطفال بسرعة إلى مجرمين!

رأي آخر يقول: نوع آخر من العنف يقدمه التليفزيون أيضًا مثل صور الحروب المنتشرة في العالم. النار حقيقة.. والدماء حقيقة. ولكن الطفل لا

يستطيع أن يفرق بين دماء رعاة البقر ودماء ضحايا فلسطين والعراق.. إنها جميعًا أفلام.

بل إن الطفل ينظر إلى النار والدم على أنهما نوع من التمثيل، وبذلك يبطل مفعول العنف. فاعتياد الطفل على العنف يفقد العنف قوته وأثره.. ومعنى ذلك أن العنف في التليفزيون وفي السينما أيضًا لا أثر له.. فلا خوف على الأطفال من أفلام رعاة البقر أو المذابح البشرية في كل أنحاء العالم..

رأي ثالث يقول: إن الحياة مملة.. خامدة..جامدة.. وكما يلجأ الناس إلى استخدام الملح والشطة في الطعام.. فإنهم محتاجون إلى الدم والنار في أفكارهم حتى تصحو عقولهم وتنشط أفكارهم وتهتز حياتهم وينهضوا من البلادة النفسية والعاطفية أيضًا.. وحتى ينهضوا لكي يقاوموا العنف أو ليستغرقوا فيه!!

إنني أميل إلى اعتبار هذه البرامج العنيفة نوعًا من النكت العنيفة التي تهزنا لتضحكنا.. أو لتوجعنا ونعتاد على الاهتزاز وعلى التوجع.. ثم ننصرف كلما كبرنا إلى هموم أخرى جديدة؛ لأن الحياة هموم متجددة!

اجعلوها صغيرة وكثيرة

لا داعي لأن أذكر الأطعمة التي وضعت أمامنا قبل مدفع الإفطار.. فكلها معروفة.. ولكن كان عددنا خمسة.. والطعام الذي أمامنا يكفي لعشرة وعشرين.. والأسباب معروفة طبعًا، وبلهفة امتدت أيدينا وشربنا وأكلنا وشربنا أكثر.. وبسرعة شبعنا.. وواضح من تراجع كل منا في مقعده أن كرشه يحول بينه وبين ترابيزة السفرة.. ولذلك اعتدلنا جميعًا في مقاعدنا.. مع الميل قليلاً إلى الوراء وحل علينا جميعًا شيء من الهدوء والبلادة. كأننا لم نذق طعامًا.. أو كأننا حرمنا من الطعام. ولا بد أنه دارفي رءوسنا هذا السؤال: ما هذا العبط؟ لماذا لا نأكل على مهل؟ لماذا نلهث من الجري بالأيدي والعيون بين الأطباق والأكواب.. كأننا تصورنا أن هذه الأطعمة أشياء ممنوعة فأخفيناها في بطوننا؟!

ولا بد أن الحالة النفسية والمعوية لم تمكنا من مناقشة هذه الأسئلة والإجابة عنها.. فهناك أعمال أخرى أمامنا، لا بد أن نفرغ منها وبسرعة أيضًا.. لا بد أن ننتقل إلى كراسي أخرى بسرعة.. وأن نعطي للمعدة الوضع المناسب لكي تتمدد وتهضم.. إذا استطاعت على راحتها. وأحسن الأوضاع هو النوم على الجنب.. وهذا يفسر لنا صور «ألف ليلة وليلة» التي تجد فيها الملك جالسًا على جانب.. نائمًا تقريبًا؛ لأن هذا هو الوضع المناسب لراحة المعدة والمصران الغليظ.. بعد أكلة ضخمة دسمة كالإفطار في رمضان.

وبعد اتخاذ الوضع المناسب يجيء الحلو.. وبعد الحلو يجيء الشاي.. ضروري الشاي.. ولكن أين يذهب هذا كله؟ أين يستقر في الجسم؟ لقد أصبحت أؤمن بما كان يقال لنا في الريف من أن الماء ينزل في الساقين والقدمين.. ولا بد أن السوائل تفعل ذلك لأن المعدة لا يمكن أن تتسع لهذا كله؟!

ويجيء بعد ذلك دور الإذاعة والتليفزيون.. تلك البرامج المرحة.. وأهمية المرح في رمضان أنها فرصة للضحك.. والضحك يهز الجسم.. ويهز المعدة ويقلب الطرشي على الكنافة على الفول على الأرز على الشاي.

ولو نظرنا إلى المائدة قبل أن ننهض لوجدنا معظم الطعام على كل مائدة، فالصائم يجب أن يفطر في جو أطباق كثيرة وألوان كثيرة وزحمة وكلها مشهية أو تفتح الشهية وهذا طبيعي.. ولذلك أتقدم باقتراح من عندي وهو أن نجعل الأطباق أصغر وأن نطهو نصف الكمية ونضعها في أطباق كثيرة.. تمامًا كما يفعل أهل سوريا ولبنان عندما يقدمون العشاء والإفطار.. عشرات الأطباق الصغيرة في كل واحد منها ملعقة زبدة وملعقة لبن وحبتان من الزيتون.. أو كما يفعل أهل اليابان. يقدمون عشرات الأطباق التي يمكن تفريغها في سلطانية طرشي واحدة.

وبذلك يتحقق لنا الجو.. والاقتصاد أيضًا!

أشعة سحرية لا نعرفها في أسوان!

الحكيم بقراط كان ينصح الناس بالسفر إلى مصر للعلاج.. والحكيم جالينوس أيضًا.

والمؤرخ هيرودوت لم ينس أن صحته تحسنت عندما جاء إلى مصر وقال إن العجائب التي في مصر قد أنعشت روحه.. والشمس قد أذابت الصلابة في عضلاته!

والفراعنة هم أول من عرف أن «الرطوبة» الموجودة في الجو هي التي تفسد أجسام الموتى. ولذلك كانوا يضعون الجثث في أماكن جافة بعيدة عن الرطوبة الموجودة في الهواء.. فأقاموا مقابرهم في الصحراء وفي جنوب مصر. والفراعنة هم أول من نصح المريض بأن يبعد عن البيت والأسرة ومكان العمل ويذهب إلى الجنوب حيث الهدوء والدفء والجفاف وصفاء السماء..

والطب الحديث يؤكد أن حكمة الفراعنة صادقة وأطباء السويد الذين جاءوا إلى مصر في رحلات للعلاج السياحي يرون أن مصر كلها -وليس جنوب مصر فقط- هي أحسن مكان للعلاج من أمراض الشيخوخة والروماتزم واضطراب الدورة الدموية وكثير من الأمراض الجلدية.

وقد قرأت تقريرًا لبعض أطباء السويد يؤكدون فيه أن عشرات من المرضى من السويد والنرويج وفنلندا والدنمارك جاءوا إلى مصر لا يقدرون على المشي، وبعد أيام استمتعوا بركوب الخيل إلى جوار الهرم! وبعض المرضى كان لا يقوى على الجلوس على مقعد له عجلات، وبعد أيام كان يساعد المرضى الجدد في الجلوس على هذا المقعد ويدفعهم إلى الأمام.. كل هذا قرأته.. ولولا أنني قرأت ذلك ما صدقته.

وزارني الدكتور مورسنج أحد المشرفين على «السياحة العلاجية» وقلت له إن أسوان لم تكن تعرف الرطوبة ولا السحب ولا المطر وهي الآن أصبحت معتدلة الجو مثل الإسكندرية.. فهل هذه الرطوبة تعوق العلاج؟

وأكد لي الدكتور مورسنج بالأرقام والتقارير الطبية أن أسوان تشفي العليل.. وأن هناك سرًا أو سحرًا إشعاعيًا في جنوب مصر وشمالها.. وأن هذا السر جعل مصر هي أصح بلد في العالم كله لعلاج كل الأمراض التي يشكو منها أهل السويد والنرويج وكل الدول الشمالية.

وشعرت بالارتياح وتمنيت أن أجد نفسي في أسوان بسرعة، وأن أعرض نفسي لهذا السحر الإشعاعي الذي عرفه المؤرخ هيرودوت ولم يعرف اسمه.. ولما سألني الدكتور مورسنج عن الأمراض التي أشكو منها وسوف تشفيها أسوان.. قلت: مرض واحد اسمه القاهرة!

رمضان جديد والقاهرة قديمة!

رمضان جعل من مدينة القاهرة مدينة أخرى.. لم نكن نعرفها قبل رمضان.. أين كانت هذه الألوان.. وهذه الأطعمة وهذه الأصوات.. وأين كان هؤلاء المؤمنون الذين يتزاحمون على مسجد الحسين ظهرًا وعصرًا؟ ويحرصون على أن يشتروا الخبز الساخن من حي الحسين.. والفجل والفول والطعمية من حي الحسين.. وأين كانت محلات الطرشي هذه.. وهذه الكميات الهائلة من البخور واللبان.. وهذه المسارح وهذه المعارض الكبيرة لبيع الكتب بأسعار مخفضة.. وهذا العدد الهائل من الذين يقرأون.. وما الذي يقرأون أيضًا.. إن الإقبال على شراء الكتب الدينية هائل.. وإقبال الشبان على قراءة القرآن وكتب التفسير والأحاديث الدينية وقصص السيرة النبوية كل هذا يبعث على الدهشة والإعجاب.

أما في الليل، فالأنوار باهرة.. والعطور ساحرة. والزحام الهادئ حول المساجد وإليها وفيها.. وأناس في سيارات كبيرة وأناس يدفعون أمامهم عربات صغيرة وأناس كأنهم جاءوا وأتوا من العصر الفاطمي، وأناس كأنهم جاءوا من القمر.. ملابسهم بيضاء لامعة.. وأحذيتهم عالية.. ووجوههم مغسولة.. وقد أحاطوا أنفسهم بملابس مقفلة ملتصقة وبلا جيوب.. وأشقاء من ليبيا ومن السودان ومن الأردن ومن الخليج يشربون

قمر الدين السوري، ويأكلون اللوز التركي، والجوز الإسباني والزبيب القبرصي.. ويستمعون إلى الأناشيد والتواشيح الأندلسية.

وبين لحظة وأخرى يقترب منهم رجل يمسك مبخرة، وقد التفت حوله مسبحة، وطالت لحيته ولمعت عيناه.. ويستجير بالله قائلا: حي حي..

ويدور السائحون بين الناس في سعادة واضحة.. تمامًا كما كنا نفعل في الأعياد الدينية في اليابان في مدينة كيوتو.. أو في مدينة الفاتيكان.. أو في مدينة أسيزي التي ولد فيها القديس فرانشيسكو.. وكان كل واحد منا يحمل حيوانًا صغيرًا على صدره: قطة.. كلبًا.. عصفورًا.. فقد كان القديس يحب الحيوانات، يحب كل مخلوقات الله.

لا بد أن الزائر الأجنبي سعيد بما يراه في القاهرة، فلا هو رأى ذلك في بلاده.. ولا نحن رأينا ذلك قبل رمضان؟

مثلهم الأعلى: سميراميس!

إنها قصة الأسد العجوز، أو الأسد العاجز أن يكون أسدًا.. فالأسد عندما يكبر في السن فإنه لا يطارد ضحاياه، وإنما ينتظرها حتى تقترب ويفترسها. ويقال في قصص «كليلة ودمنة» إن الأسد المريض العجوز قد لزم العرين يلتهم كل من جاء لزيارته، ويقال إن الذئب قال للثعلب: إن كل حيوانات الغابة قد ذهبت لزيارة الأسد إلا أنت.. والأسد قد شكا من ذلك! وذهب الثعلب يراقب الذين يزورون الأسد فلاحظ أن الأقدام تتجه إلى عرين الأسد ولكنها لا ترجع وقد كذبه الذئب وذهب الذئب إلى عرين الأسد. وبعد دقائق طارت رأس الذئب واستقرت عند قدمي الثعلب. فلم يزر الأسد قائلا العبارة الخالدة: تعلمت الحكمة من رأس الذئب الطائر!

وكذلك يفعل الكثير من الأسود العاجزة أي من الكبار الذين يعجزون عن الصيد والمجاهرة والمطاردة. وأخيرًا اتهموا رئيس إسرائيل كاتساف بأنه عاكس سكرتيرته وقال لها إذا لم تعطني كذا حرمتك من كذا! وذهبت واشتكت وجاء البوليس يفتش بيت رئيس الدولة، ورأى أعضاء الكنيست أن الرئيس يجب أن يغادر منصبه.. فقد أهان المنصب! والرئيس كلينتون هو الآخر لا يستطيع أن يذهب إلى مكان ولا أن يكون على حريته فكانت حادثة الفتاة مونيكا وقد رواها في التليفزيون على مسمع ومرأى من ستة

مليارات هم سكان الأرض. وأفلت كلينتون من الطرد لأنه لم يكذب. وكانوا يضيقون عليه، فقال العبارة التاريخية التي هي طوق نجاته. فسألوه إن كانت له علاقة جنسية فقال: علاقة غير لائقة!

وقبله كان الرئيس كنيدي يأتي بمن يشاء من جميلات أمريكا لكن واحدة منهن لم تعترف! والرئيس أيزنهاور قد أحب سائقة سيارته في أوروبا وهي إنجليزية وكاد يطلق زوجته ويتزوج هذه الفتاة، لكن الحزب منعه.. فكان يلتقي بها في أماكن لا تخطر على البال؛ خوفًا من الناس! والرئيس الفرنسي ميتران هو أشجع الجميع فقد عرف الكثيرات. بل كانت له عشيقة ومن العشيقة ابنة هي حارسة تركته الأدبية.. ولم تنشر الصحف هذا الخبر. لأنه لا يصح الخوض في المسائل الشخصية. حتى أولاده كانوا يعرفون أن لهم أختًا.. وعندما قدمها ميتران لهم صافحوها كأنهم لا يعرفون ذلك، ولما توفي ميتران اعترفت العشيقات واحدة وراء الأخرى!

فالرئيس ميتران أسد ولم يكن عاجزًا – وهو مثل كل الفرنسيين لا حدود لحريتهم! وكان أستاذنا العقاد يقف وراء الباب بالساعات في انتظار الفتاة السمراء القادمة مشيًا إليه وكانت أحيانًا لا تجيء. لقد كان الأسد الهصور على خصومه، ولكنه العاجز العجوز أمام هذه السمراء الجميلة!

كيف تضحكين وعلى كيفك؟!

ما هي النكتة؟ إنها صورة مضحكة.

ولكن ما الذي تضحك منه..؟ إننا نضحك من الشخص الأقوى منا، ونضحك من المرأة.. ومن المرأة باعتبارها في مركز القوة من حياة الرجل.

والنكتة عبارة عن سلاح يشهره الضعيف في وجه القوي.. ثم يختفي بين ملابس الناس.. والنكتة عبارة عن عيار ناري أطلقه مجهول.. أما النكتة الجنسية فلها معنى آخر..

فمن الحوادث الغريبة أن الكاتب الفرنسي «الماركيز دي صاد» ألَّف كتابًا اسمه «مائة وعشرون يومًا في مدينتي سدوم وعمورة».. وهذا الكتاب سجله على شريط من الورق يبلغ طوله المائة متر، في داخل زنزانة قذرة في أحد سجون باريس.. وفي هذا الجو الفظيع القذر، أخرج المؤلف أقذر ما في نفسه ونفوس الرجال.. وألقى به على المرأة.. على كل امرأة.. فمن شدة القرف والغيظ والحقد والرغبة في الانتقام، ألَّف هذا الكتاب ضد المرأة – ألف هذه النكت العارية.

والنكت الجنسية ضد المرأة تخرج من مثل هذا الجو، أي من الضيق من المرأة والحقد عليها.. والنكتة الجنسية ما هي إلا محاولة لتعرية المرأة أمام الرجل بالقوة، ثم السخرية منها والاستهانة بها.. وإذا كانت المرأة تحب النكت الجنسية أكثر من الرجل فلأنها تحب أن تبدو عارية.. أن تبدو ذليلة أمام الرجل القوي.. ولأنها تحب أن ترى نفسها بعين الرجل..

والرجال يحبون أن يسمعوا النكت الجنسية من المرأة.. ومعنى ذلك أن تتعرى المرأة من تلقاء نفسها أمام الرجل.. وأن توفر عليه أي مجهود في احتقارها وإذلالها.. والانتقام منها..

ومن الحوادث التاريخية المعروفة، أن جوزفين زوجة نابليون الثالث استأذنت، يوم تتويجها، من الإمبراطور لحظة، وخرجت، وبعد دقائق عادت، ولم يفهم أحد ما حدث.

وبعد سنوات سألها الإمبراطور. فقالت له: إنها كادت تنهار من الضحك.. فقد تصورت الإمبراطور نفسه عاريًا وسط هذه الحفلة، وهي تعلم أنه لا يرتدي ملابسه الداخلية عادة – كأن الإمبراطورة أطلقت عليه نكتة. وانتقمت منه بأن أضحكت عليه الناس جميعًا في خيالها.

وفي هذه النكتة بالذات عرف المؤرخون إلى أي حد كانت جوزفين تكره زوجها وتفكر في خيانته.. وفي تعريته وفضحه في خيالها وفي الواقع.

فالنكتة ليست إلا نوعًا من الخيال الذي يضحكنا. نتمنى أن يكون محزنًا لشخص أقوى أدبيًا أو ماديًا.. أو للمرأة!

البحث عن مريم في السعودية!

كان من عادة صديقي محمد عبد المطلب، مطرب الشعب في زمانه، أنه قبل أن يسافر يسألني ماذا أريد. فكنت أطلب منه نوعًا من القطرة في عبوة من البلاستيك الأصفر. جميلة، صغيرة. محندقة توضع في الجيب.

وكنت أنتهز هذه الفرصة سنوات وأغلق الباب علينا وأقول له: غنِّ لي.. ساكن في حي السيدة وحبيبي ساكن في الحسين وعلشان أنول كل الرضا.. يوماتي أروح له مرتين من السيدة لسيدنا الحسين..

أما الصوت فقوي جميل يطربك ويهزك ويسعدك. والنكتة: أن المسافة بين حي السيدة وحي سيدنا الحسين صغيرة.. لا تحتاج إلى أن يفاخر بها العاشق.. ليقول إنه تكبد هذا المشوار مرتين كل يوم.

وكان محمد عبد المطلب إذا غنى لك في المكتب أو في السيارة فهو يغني بأعلى صوته.. حتى لو لم يكن هناك جمهور.. ولذلك لا يكاد يصل إلى مكتبي حتى يقف أمام المكتب تلقائيًّا كل السعاة وعدد من المحررين والضيوف يسمعون عبد المطلب وكأنه عرف أن العشرات يقفون ينتظرون.

وكنت أحكي للأستاذ الكبير على أمين نوادر محمد عبد المطلب.. والتقينا في الأسانسير. وكان على موعد مع الرئيس عبد الناصر. وأشرت

إلى عبد المطلب فرفع صوته: ساكن في حي السيدة.. وصفق له المحررون في الأسانسير ووقف آخرون يعترضون على أمين العصبي جدًا حتى يكمل عبد المطلب أغنيته – ببساطة وتلقائية وفن!

وفي يوم فوجئت بالسفير المصري في السعودية يسألني: محمد عبد المطلب يبحث عن مريم في كل مكان فلم يجدها. وللأمانة أنا كنت معه..

وسألت: مريم مين؟

وقال السفير: أنا لا أعرف ولكنه هو الذي طلب مني ذلك.. فهو سوف يسافر غدًا..

ولم تكن (مريم) هذه التي يبحث عنها في كل الصيدليات بالرياض وجدة ومكة والمدينة سوى قطرة اسمها (ميورين). شكرًا يا طلب!

أستاذنا ومولانا الشيخ دهليز!

من قصص الطفولة والشباب حكاية الشيخ دهليز – أعمى ظريف كان يجرجرنا وراءه في حفلات الطرب في مدينة المنصورة. هل نفهم ما نرى؟ لا أظن ذلك.. ولكن أينما ذهبنا كانت الراقصات والأغنيات. وكان الشيخ دهليز لا شيخًا ولا حاجة، وإنما يرتدي العمامة، وكان يطبل ويزمر ويرقص، ولا أعرف الآن بالضبط ما هي الظروف التي جمعتنا به، لقد كان موجودًا معروفًا ومشهورًا، وابن نكتة وابن حظ.. وكان هو البصير وكنا نحن العميان، نمشي وراءه ليلاً ونهارًا أينما ذهب، جلس وأكل وشرب.. ونغني ونردد. وأهالينا يسألون عنا فلا يجدوننا وأخيرًا عرفوا أننا قطعان الشيخ دهليز.. وبدأوا يمنعوننا، ولكن جاء ذلك متأخرًا جدًا، فقد ارتبطنا به. ووضعنا في السلاسل وسرنا وراءه سعداء بذلك – على الحافة بين الفن والجنس.. أو بين الطرب الخشن والخروج عنه. وفي مثل هذه السن الصغيرة كان حب الاستطلاع هو الذي يسيطر علينا. فكان الشيخ دهليز يقول: يا واد يا أنيس انهض واربط حزام الست منعشة – وهو اسم إحدى الراقصات. وأفعل وهي تضحك كثيرًا.. ولا أفهم..

أو أن يقول: يا عم أنيس.. يا أخي دق الباب وقل للست وطنية، الرجال كلهم في انتظارها..

أما الست وطنية فهي أشهر راقصة في بلدنا. وهي التي رقصت وغنت في معظم الليالي الملاح والأفراح. ولا أحد من عرسان الأربعينيات إلا له صورة مع الست وطنية. وكنت أنظر من ثقب الباب وأطيل النظر. وأدق الباب: مين؟ فأقول: أنا..

وانت كمان مين؟ وأقول: أنا تلميذ الشيخ دهليز.

ويجيء ردها: قطع - بضم القاف وكسر الطاء - هوه المتنيل بره؟! فأقول: أيوه يا ست.

وانت مين يا واد.. تعال خد إيدي..

ولسبب ما كنت أجلس إلى جوار الست وطنية والست منعشة وأطيل النظر والدهشة. ولكن كنت مبسوطًا جدًا بهذا الجو الغريب الذي ليس له نظير لا في البيت ولا في المدرسة ولا في أي مكان آخر.. وحاولت كثيرًا أن أرافقها على الطبلة وهي ترقص. ولكن لم أتقدم في فن الطبلة أو الرق أو الصاجات رغم محاولات الشيخ دهليز.

وحمدًا لله أنني اكتفيت بالفرجة حتى اليوم!

من الذي لا ينام هنا؟!

لا خلاف بين الناس على أن فريد الأطرش موسيقار وأنه أعظم عازف عود في التاريخ بعد رياض السنباطي، وأنه إنسان طيب جدًا، وأنه لا يفكر وإنما يندفع، وأنه سريع الغضب، وأنه لا يتوقع الإساءة من أحد؛ لأنه لا يسيء إلى أحد.. وكل هذا صحيح..

ومن عيوب أو من مزايا فريد الأطرش أن طعام الغداء أو العشاء يجيء عادة بعد أو قبل أي حفلة غنائية.. فهو يأكل السندويتش والفرقة كلها قبل البروفات.. أكل خفيف.. وبعد أن يفرغ من البروفات يجيء أكل ثقيل. وينصرف العازفون على أمل لقاء سندويتش في اليوم التالي.. وكان الاتفاق بيني وبين فريد الأطرش أن نلتقي على حوار بيننا أنشره في مجلة «الجيل» التي كنت أرأس تحريرها. وفجأة اختفى فريد الأطرش. وسألت: أين؟ قالوا: لا نعرف. سألت: هل خرج ؟ هل دخل إلى غرفة النوم؟ لا أحد يعرف ففي بيت فريد الأطرش غرف كثيرة للنوم، ولا يجرؤ أحد على أن يدق أي باب ليسأل إن كان الأستاذ في الداخل.. خصوصًا أن ضيوفًا كثيرين من سوريا ولبنان احتلوا هذه الغرف.

وقررت أن أعود إلى مكتبي، وعندما ظهر فريد الأطرش قال لي: كنت باتخانق مع سامية جمال.. يا أخي الستات دول!! ما أنت عارف.. ربنا

ياخذهم ويريحنا منهم. تعال.. أنا عاوزك تسمع المقدمة الموسيقية.. تسمعني كويس.. وتقول رأيك..

وتغيرت ملامح فريد الأطرش، وامتدت يده إلى العود.. الله يا فريد.. الله .. وسألني : أعجبك اللحن؟ قلت: جدًا.

فقال: مكافأة لك على ذلك تسهر الليلة عندها.. وذكر اسمًا لا أعرفه. ولكن الأسماء لا تهم إنها واحدة عندها طرب ورقص وفرفشة وضحك حتى الصباح.

وكان بيتها في الزمالك، في الطابق العلوي.. أما الحفاوة بفريد الأطرش فلا حدود لها.. وكان ما كان مما لست أذكره – كما يقول الشاعر القديم.. وطلعت الشمس وليتها ما طلعت. وسألني: تعود إلى البيت قلت.. أنام هنا!

في البداية كان شارع محمد علي!

من ألطف الفنانين الذين صادفتهم الموسيقار محمد فوزي. كان ظريفًا خفيف الدم. وكان إذا غنى كأنه يتكلم وإذا تكلم كأنه يغني. ولذلك ألحانه كأنها كلام عادي جدًا ترافقه الموسيقى.. والفاهمون في الموسيقى يرونه من الرواد الكبار وأنه أحدث في الأغنية تطويرًا لم يسبقه إليه أحد.. وله عبارات ترددت بقوتها وجمالها في موسيقى غيره من أبناء جيله.. وهو أكثر أبناء هذا الجيل تواضعًا..

وفي يوم حدثني محمد فوزي عن شركة أسطوانات يريد أن يكونها. لم أفهم. وأنه يريد أن يقدمني لأنور وجدي. لم أفهم. وكنت في ذلك الوقت لم أر أفلامًا كثيرة. ولذلك لم أعرف القيمة الحقيقية لأنور وجدي وآسيا وعزيزة أمير. ولكنه أصر. وأخذني من يدي وذهبنا لأنور وجدي. ولم يعجبني اللقاء. فأنور وجدي أطال النظر إلى كل شيء في وجهي وجسمي ويبدو أنه ظن أن محمد فوزي يعرضني كممثل مع أنور وجدي.. ولما أكد له أن ليس هذا هو المقصود انفرجت شفتا أنور وجدي ورحب بي قائلاً: إذن أنت جئت في الوقت المناسب أنا عاوزك تكتب ملخصًا لمسرحية الكاتب الفرنسي جان إنوي.. وأخرجها من درج المكتب. ولكن بسبب الاستقبال البارد. تركت المسرحية في مكانها حتى اليوم.

وبسرعة خبطني محمد فوزي على ظهري وقال لي: أنا عازمك.. تعال بقى.. علشان ننبسط سوا..

وفي سيارته ذهبنا إلى أول شارع محمد علي – وهو شارع الراقصات والمطربات.. شارع العوالم والفن المصري القديم.. وقال لي: أنا سوف أقدمك على أنك قريبي وجئت إلى القاهرة تدرس الطب ولا أنت صحفي ولا حاجة. لأنهم يخافون من الصحافيين..

ولم يكد يقول للسيدة (كنوز الدنيا) أنني تلميذ في كلية الطب حتى وجدتها في لحظة واحدة وضعت يدها على جانب من بطنها وهي تقول: هنا يا روح قلبي. وجع من أول امبارح.. إيدك يا دكتور.. ربنا يجعل الشفا في ايديك.. اقعد يا سي محمد.. والنبي أنت جيت في الوقت المناسب.. يا فتحية.. يا فتحية.. يا بنت!

وجاءت فتحية وأشارت (كنوز الدنيا): الكلبوز اللي قدامك دكتور يا بنت..

وقالت لي: ايدك هنا يا روح قلبي..

وتلفت حولي فلم أجد محمد فوزي. ولم أنس له هذا المقلب، هو الذي أعادني إلى شارع محمد علي مئات المرات!

مومياء محمد عبد الوهاب مع كل لحن!

أنا أحب الموسيقار محمد عبد الوهاب.. كل ألحانه.. وكل الذين لهم لحن، فيما عدا وردة الجزائرية.. ولا أحب أن أذهب لمشاهدة بروفاته الموسيقية – السبب أنه يجعلك تشعر ساعتها وقبلها أنها عملية عسكرية.. منضبطة جدًا.. في الساعة كذا يجب الحضور.. في الساعة كذا يمكن الانصراف.

وقبل البروفات هناك تعليمات مشددة: النوم مبكرًا لا أكل، لا شرب، لا مناقشة تؤثر على الحنجرة، عدم التعرض للهواء.. لا آيس كريم.. لا شيء من شأنه أن يؤثر على الحبال الصوتية.. هذه تعليمات نهائية. وواجبة الاتباع.

وفي الطريق إلى الاستديو – وقد رافقت عبد الوهاب كثيرًا – لا يتكلم.. وإنما هو سرحان تمامًا. وإذا حاولت أن أكلمه فلن يرد. وفي الاستديو الكل في انتظاره.. وينظر إلى الجميع واحدًا واحدًا. ويعيد ترتيب جلوسهم، ثم يطلب من كل واحد أن يسمعه صوت الآلة الموسيقية. أما المطرب أو المطربة التي جاءت لتغني لعبد الوهاب فتسمع كم كلمة في أذنها.

ثم يطلب من الموسيقيين أن يعزفوا.. وأن يعيدوا.. ثم يذهب إلى واحد منهم ويقول له: عندك نشاز.. اضبط العود.. اضبط الكمان.. اجلس في مكان آخر. ويطلب من الجميع قراءة الفاتحة. ويشير بيده أن يبدأوا.. وتتغير

ملامح عبد الوهاب ويتلون وربما يتصبب عرقًا. ولا يجرؤ أحد إلى جواره أن يقول: الله يا أستاذ.. ولا كلمة من أي أحد.

وبإشارة من يده يتوقف كل شيء.. ويطلب الإعادة بعد تغيير مواقع العازفين. وقد تعجبه الموسيقى ولا يعجبه الغناء. والعكس.. ولا يتوقف عن المحاولات من أجل الأجمل.. لقد طلب محمد عبد الوهاب من فايزة أحمد أن تعيد كلمة واحدة عشرين مرة. طلب منها أن تجاهر بحرف الخاء وأن تضغط على حرف الحاء.

ولا تملك ولا أملك إلا أن نصفق للفنان العظيم الذي يحب فنه ويخلص له مهما كلفه ذلك. ويرى عبد الوهاب أن الفن أطول عمرًا من الفنان.. ويكرر ما سمعه من أمير الشعراء شوقي إذا انتقده الناس.. كما انتقد الأستاذ العقاد أمير الشعراء كثيرًا.. وكان يقول: هات الصحف التي شتمتك وضعها تحت قدميك.. سوف تجد أنك ارتفعت عن الأرض بضعة سنتيمترات! وفي إحدى المرات دعاني عبد الوهاب إلى العشاء فاعتذرت بشدة.. لأنني أعرف أن عبد الوهاب بعد هذه البروفات يطلب مني ومن أصدقائه أمرًا صعبًا جدًا: أن يدفنوه في فراشه.. ويضعوا لحافًا فوق بطانية.. تمامًا كأنه مومياء فرعونية ثم يتركوه لينام.. أما العشاء ففي بيتك لا في بيت عبد الوهاب!!

وبسرعة طلع علينا النهار!

- صلى على النبي..

- اللهم صلى عليك يا نبي..

- قصدي.. «الحاج صلى على النبي»..

- مين هو؟

وسألني الشاعر الغنائي مأمون الشناوي إن كنت ما أزال مضربًا عن التدخين.

- إذن سوف تتعب الليلة.

- ولا يهمك.. أريد أن أتفرج.

وكانت هناك الراقصة المحبوبة (زينات علوي) أحببناها كثيرًا لمواقفها الشجاعة والنبيلة مع عدد كبير من الصحافيين في أزماتهم. ولما وجدتها ازددت سعادة بها.. ولكنها نظرت مندهشة وقالت: انت حتمشي ورا مأمون الشناوي.. دي أخرتك زي بعضها!!

وجاء رجل طويل عريض الوجه أبيض.. والشعر أبيض والذي في عنقه لا هي مسبحة. ولا هي عقد وإنما أشياء كثيرة.. أحجار ملونة ومفاتيح وهلال وصلبان وصافحني وقال لي: إنت عاوز تشتغل إيه يا واد؟

ونظرت إلى مأمون الشناوي فلم أجد على وجهه أي تعبير فقلت: أنا جاي أتفرج..

تتفرج على إيه يا روح أمك..

وتضايقت جدًا. ووجدت أنها إهانة. وغضبت واتجهت إلى الباب. وأمسكني مأمون الشناوي: جرى إيه.. مش فيه ناس بتتكلم إنجليزي وناس بتتكلم فرنساوي؟ الراجل بيتكلم قلة أدب.. ثم إنه لا يراك لأنه أعمى.. انتظر.. اثنان من أصدقائك سوف يصلان بعد لحظات..

وجاء يوسف إدريس. وفجأة جاء كمال الشناوي.. الآن يجب أن أبقى فلم أعد وحدي. ولا بد أنهم وعدوهم بأشياء كثيرة من الطرب والغناء والرقص..

وفجأة انفجرت الجدران والأبواب والنوافذ: طبل وزمر وموسيقى وزحام شديد كأنه طوفان من النغم وإعصار من دخان وزلازل من السعال والكلام غير مفهوم.. وبسرعة وسط هذه الظاهرة الفلكية جلس (الحاج صلي على النبي) لتقول: يا ليل.. يا عين يا ليلة أولها صلاة النبي وآخرها الحمد لله.. الله.. يا عم الحاج..

ثم جاءت الست (دم الغزال) بفستانها الباهر.. وشبابها وحيويتها وجمالها أيضًا.. تحيي الضيوف واحدًا واحدًا.. ومدت يدها لكي أقبلها فرفضت. فأخذت يدي وقبلتها..

وبسرعة طلع النهار!

كلمة واحدة يا ست!

من أمتع الساعات أن تحضر (بروفة) أغنية لأم كلثوم من تلحين رياض السنباطي.. يا سلام. قبل أن يجيء السنباطي وقبل أن تجيء الست يجلس العازفون فيقولون ويناقشون ويتضاحكون. فإذا ظهر الأستاذ السنباطي كان الصمت والإعجاب سيد الموقف. ويعتدل السنباطي ويجلس في جانب من القاعة، ثم يرفع يديه إلى السماء ويقول: رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري.. اللهم آمين. ويقول العازفون أيضًا.. ثم يطلب إليهم أن يقتربوا أكثر لكي يسمعهم واحدًا واحدًا وله ملاحظات، ثم يغير مواقع العازفين حوله وأمامه ووراءه، ويطلب بإشارة من يده البدء معًا. وفجأة يقول: حلو كده.. بس.. تعال أنت هنا.. وأنت أذهب إلى هناك.. توكلت على الله.. اللهم يسر لنا أمرنا.

وتمضي ساعة أو اثنتان. لا أحد يدري. وفجأة صمت تام. فقد سمعنا ما يدل على اقتراب الست أم كلثوم. وظهرت الست، وتطلعت في كل الوجوه: ازيك يا رياض النهار ده.. وأنت أيه اللي جابك؟ مين قال لك تيجي هنا؟ تقصدني أنا.. تقعد ساكت ولا كلمة! أنا قلت لك أهوه!

تقصدني أنا، فقد حدث مرة واحدة فقط والست بتغني أن قلت: الله.. فكان من نتيجة ذلك أن أعيد التسجيل.. واعتذرت كثيرًا وطويلاً!

وكانت الست أم كلثوم قد حفظت اللحن قبل ذلك وتريد أن تطمئن، ويريد السنباطي أن يطمئن أيضًا. وكان الصمت أعمق وتغيرت ملامح الوجوه تمامًا.. وجلست الست في مواجهة العازفين.. ورفعت صوتها الجميل.. وأعادت، وكان رياض السنباطي يقول: أيوه كده أحسن يا ثومة.. قولي تاني.. فتقول.. ويرد عليها: وكده أحسن.. قولي يا ثومة.. فتقول ويعود يقول لها: ما شاء الله وكده أحسن وأحسن ما شاء الله.. وتضحك أم كلثوم: طيب يارياض.. إذن نكمل الأغنية دي السنة الجاية.. هاها.. ولأنها لم تكد تقول عبارة واحدة بطرق مختلفة حتى أعجب بها السنباطي.. أعجب السنباطي بما أدخلته على اللحن الأصلي من إضافات وتنويعات جميلة.. وإذا مضى الحال على هذا المنوال، فلن تكمل الأغنية إلا بعد سنة.. ثم اعتدلت أم كلثوم ونظرت إلى الجميع وغنت اللحن كله مرة واحدة.. وأجلت الإضافات والتنويعات إلى مواجهة الجماهير.

ثم تساءلت أم كلثوم إن كان يمكن أن تستبدل كلمة بكلمة. وغنت بعد أن استبدلت الكلمة الجديدة بكلمة قديمة.. فقال لها السنباطي: والله هذا أفضل وأرق ومريح للأذن.. أيوه كده أحسن.. وانتهت إحدى البروفات لسيدة الغناء العربي وواحد من سادة الملحنين. ويظهر العرق على وجه السنباطي والإرهاق على وجوه العازفين.. فهذه البروفات جادة جدًا. ويجب أن تعاد بمنتهى الدقة.. ونهضت أم كلثوم. وأشارت لي: أن أتناول غدائي معها. فقلت: طيب عاوز أقول كلمة يا ست..

قالت: قل.

قلت: الله يا ست!

أذني التهبت وأشياء أخرى!

بعد ما حدث لي في الأيام الأخيرة من متاعب في أذني وحلقي ورأسي.. فإنني أعتذر لملايين الهنود الذين كنت أراهم في بلادهم وأضحك وراء منديل يخرج من جيبي بسرعة.

فقد رأيت الكثيرين في الهند يضعون شيئًا يشبه الكمامة على أنوفهم. وكنت أسأل. ويقولون إنهم جماعة من المؤمنين لا يريدون أن يقتلوا الجراثيم بالهواء الذي يخرج من أنوفهم، وكان آخرون يقولون: إنهم يريدون أن يحتفظوا لأنوفهم بدرجة حرارة واحدة، فلا يصابون بزكام أو التهاب..

وكان آخرون يقولون: بل إن هذه الكمامة عبارة عن مصفاة للتراب حتى لا يدخل الأنف!! ولكن المنظر كان يبعث على الضحك!

وفي اليابان من المألوف جدًا أن تجد الحلاق قد لف كمامة حول أنفه.. حتى لا يتنفس في وجه الزبون.. وإذا عرفت أنهم في اليابان يفطرون بالسمك – كما نفطر الفول بالبصل في مصر – لعرفت أن هذا العمل الذي يقوم به الحلاق الياباني إنساني إلى أبعد الحدود. وهذا ما لا يعرفه الحلاق المصري – وإذا كنت في شك في ذلك، فأرجو أن تحلق ذقنك في أي صالون في مصر..

وفي اليابان لا يضعون الكمامة على الأنف فقط، وإنما على الفم أيضًا، وبذلك تنعم بهدوء تام – فلا تشم ولا تسمع.. وتدفع ثمن هذا الهدوء طبعًا.. أما الثمن فهو سوء الفهم الذي يحدث بينك وبين الحلاق الذي لا يتتنفس ولا يفتح فمه.. فتطلب منه أن «يخفف» شعرك فإذا به يلمع جلد رأسك.. وأنا أعتقد أنها غلطة أهون بكثير جدًّا من رائحة السمك النئ والبصل الأخضر في الصباح.

ومنذ أيام وجدت أنه من الضروري أن أكون هنديًّا يابانيًّا ليلاً ونهارًا.. وأن أحمي أنفي من الهواء الذي يلهب حلقي.. وينتقل الالتهاب من الحلق إلى الأذن الوسطى.. أو الأذن الداخلية، فإذا التهبت الأذن انكسرت رقبتي – ليس هذا تعبيرًا شعبيًّا، وإنما هو تعبير علمي دقيق جدًّا.. فالتهاب الأذن الوسطى يؤدي إلى اختلال الرأس والجسم كله.. ويصبح الوضع المناسب للإنسان هو وضع المحكوم عليه بالإعدام شنقًا، قبل صدور الحكم بدقائق.. مع فارق واحد.. هو أن المحكوم عليه بالإعدام يتوهم الإفراج عنه.. ولا يجيء عادة.. أما أنا فلا أتوقع حكم الإعدام، وإنما أظل كذلك أنتظر من دون أمل في الراحة؟!

والأمل الوحيد هو أن أضع الكمامة على أنفي.. والقطن في أذني.. أستمع إلى نصائح الأطباء بمنتهى الدقة!

أستاذنا أبو قردان.. ولا يزال!

نحن لا نظلم الإنسان إذا قارنا بينه وبين القرود أو الحيوانات الأخرى. إننا نظلم هذه الكائنات المسكينة لأننا نحتقرها ونتعالى عليها.. مع أننا لا ندري حكمة حياتنا..

ولا بد أن تكون لحياتنا حكمة.. وإلا فكيف استطاعت أن تعيش هذه الملايين من السنين، ولا تنقرض، وأن يتزايد عددها. وإذا كان الإنسان قد عرف بعض حياتها. فهو لا يعرف حياتها كلها ولا حياته هو. وإذا كانت الحيوانات لا تتكلم لغتنا فليس من الضروري أن تتكلم لغة واحدة. فالناس لا يتكلمون لغة واحدة.. والخلافات بين الناس أقصى وأعمق من الخلافات التي بيننا وبين الحيوانات!

وفي العالم اليوم اتجاهات علمية جادة تعود إلى مقارنة الإنسان بالحيوان وبالطيور.. وتميل إلى وضع الحيوانات في مكان أعلى وأرفع..

فالنحل هو أبو التعاون وإنكار الذات.. والفراشات هي أمهات التخصيب الصامت. ولولاها ما أثمرت أشجار الفاكهة ولا أشجار الحقل أيضًا.. والوطواط هو أبو الرادار.. وجبلاية القرود هي نموذج للمجتمع السياسي وللقوة الجسمية والجنسية.. والصرصار أبو الكلاكس، والسمك أبو الغواصة!

وقد أعجبني كتاب أصدره عالم فرنسي عنوانه «أستاذي في الغابات» أي أن أساتذته جميعًا من الحيوانات. في أولى صفحات الكتاب تحية رقيقة بعث بها إلى الطائر المصري أبو قردان.. الذي اخترع الحقنة.. أو على الأصح الذي اخترع الحقنة الذاتية.. فهذا الطائر عندما يصاب بإمساك فإنه يملأ منقاره بالمياه.. ويفضل الماء المالح.. ثم يدخل منقاره في مؤخرته – إنها أول حقنة في التاريخ!

والصفحات التالية أهداها لطيور أخرى في أمريكا. من بين هذه الطيور واحد اسمه: الميكانيكي. فهذا الطائر يحدث أصواتًا غريبة بجناحيه كأنه ميكانيكي صغير يحاول أن يدق مسمارًا من الخشب في جدار من الحديد.. ويقع المسمار أو ينكسر ولكنه يعاود المحاولة.. هذا الطائر يضع لنفسه نوعًا من القطرة في عينيه.. وذلك بأن يذهب إلى إحدى الأشجار ويمرر جناحيه في أوراقها المغطاة بمادة مخاطية بيضاء ثم يذهب إلى الماء.. ويمسح بجناحيه على الماء ثم يضع رأسه تحت جناحيه وينتظر قطرات الماء في عينيه.. ويحرك رأسه في جناحيه بعض الوقت.. ثم يغسل عينيه..

وقد اكتشف الأطباء أن هذه القطرة الطبيعية هي أحسن ما عرف الإنسان.. وغير ذلك من الحكمة الحيوانية كثير جدًّا.. وكلها لا تبرر غرور الإنسان.. فما أقل ما نعرفه عن أنفسنا، وما أندر ما نعرفه عن غيرنا من الحيوانات!

نخوض في أخطاء لا ندري بها!

في سنة 1954 كتبت مقالاً جاء فيه: أن الثعبان من الطيور! واتخذها أستاذنا العقاد نكتة في جلساته وفي أحاديثه التليفونية. ولا أعرف ما الذي جعلني أكتب ذلك. فمن المؤكد أنني أعرف أن الثعبان من الحيوانات الزاحفة على بطنها: فلا جناحين ولا ساقين ولا يدين!

وفي سنة 1956 – ومن دون شعور واضح – كتبت أن الثعبان من الحيوانات مصاصة الدماء ونبهني صديق كبير إلى هذه الغلطة.. ولا أعرف أيضًا ما الذي جعلني أقع في هذه الغلطة.. وربما كان الثعبان هو الحيوان الوحيد الذي يبتلع فراشة من دون أن يحتاج إلى بذل مجهود في طحنها وتذويبها، وإنما يترك ذلك كله لعمليات كيميائية في داخله!

ولم يفت الأستاذ العقاد أن يجعل من هذه الغلطة نكتة أيضًا وأهداني كتابًا عن الزواحف.. وكتابًا عن الثعابين.. في العالم 2700 نوع من الثعابين! وبعدها بعشر سنوات وقعت في غلطة تعتبر إهانة للثعابين.. فقد نقلت عن المستشار البهنساوي من كتابه عن «النباتيين» أن الثعبان حيوان نباتي ولذلك طال عمره.

والثعبان ليس نباتيًا.. ولو كان العقاد حيًا لأغرق الدنيا ضحكًا على هذه الغلطة للمرة الثالثة.. ولكن قارئًا موظفًا في حديقة حيوانات الجيزة نبهني بعنف.. واقترح أن يكون لي قفص في الحديقة إلى جواره.. ومعه حق.. فليست هذه هي الغلطة الأولى..

ورحت أقلب في مذكراتي الخاصة.. ووجدتني قد سجلت المناقشة التي دارت بيني وبين العقاد حول هذه الغلطة. ووجدت أنني رددت هذه الغلطة إلى مشاكل في طفولتي.. وربما كان من بينها أنني نهضت من نومي وأنا صغير فوجدت ثعبانًا قد تكوم تحت غطائي، والثعبان جاء من الحديقة التي يطل عليها بيتنا.. وأعتقد أنني ظللت أحلم بالثعابين سنوات طويلة.. ولم أتخلص من هذه الأحلام إلا عندما ظهرت أحلام مفزعة أخرى!!

وتذكرت أن والدي رحمه الله، كان يطارد الثعابين.. وكانت عنده مقدرة غريبة على أن يلاحق الثعابين، وبسرعة مذهلة يمسك الثعبان من ذيله ثم يهوي به إلى الأرض ميتًا، وفي إحدى المرات تناثر الدم على وجهي وملابسي.. أما حالتي فكانت نوعًا من المرض القريب من الموت!

وعندما ذهبت إلى الهند أحسست وأنا في صالون أحد الحلاقين أن في السقف ثقبًا ينفذ فيه صاروخ من الهواء. ونظرت إلى أعلى لأرى، ولم يكن هذا الصاروخ إلا هواءً صادرًا من عنق ثعبان ضخم.. وهربت من المحل.. والحلاق يلاحقني بالفوطة والمقص.. والضحك!!

ربما كانت هذه حوادث تلخبط العقل وتجعله يقع في أهون المعلومات الثعبانية.. ربما!

عاقل؟ وسعيد؟.. غريبة جدًّا!!

جاءني سعيدًا ولكن في سعادته شيء من الخجل. والخجل واضح في أنه يحاول أن يجد مكانًا لنظراته تحت الأرض.. فهو لا يكاد يقول عبارة حتى ينظر إلى الأرض كأنه يريد أن يدفنها.. وروى لي تاريخ حياته.. وليست له حياة.. ولذلك فليس له تاريخ.. وإنما هو واحد من ملايين يزحفون على بطونهم من أجل لقمة العيش.. وليس عملاً بطوليًّا أن يعمل الإنسان ويتعب، فالحياة تعب سواء كان فيها عمل.. أو تعب أكثر إذا لم يكن فيها عمل.. ولكن الجديد في قصة هذا الشاب أنه كان فتاة ثم أجريت له عملية فأصبح فتى.. ويريد أن يكون رجلاً.. فقد ترك شعر رأسه على راحته، وهو يطمع في أن ينتقل شعر رأسه إلى الشفة العليا، لعل شاربًا ينبت هناك أو لعل لحية تظهر.

وعنده مشكلة – طبعًا – إنه يريد أن يكون رجلاً، ككل الرجال، ولكن الناس لا يتركونه في حاله.. أو هكذا يتوهم..

أقرب الحوادث أنه ذهب إلى أحد المقاهي وطلب فنجان قهوة.. وجاءت القهوة متأخرة. فاستعجل الجرسون. فما كان من الشاب «المحدث» الرجولة إلا أن شخط في الجرسون.. فوضع الجرسون الصينية التي معه، ووضع يده في وسطه وقال له: اسمع يا أخ.. أنا راجل.. راجل.. ولا أحب أن أسمع كلمة من واحد زيك..

ومن المؤكد أن الجرسون لا يعرف ماذا حدث لهذا الشاب.. ومن الممكن أن يقول الجرسون مثل هذه العبارة وأقسى منها لأي إنسان.. ولكن هذا الشاب لأنه – كما نعرف – أحس أن الجرسون يقصد أنه كان فتاة قبل ذلك.... إلخ.

والذي أضحكني أن هذا الشاب جاءني وهو سعيد جدًا لأنه أصبح رجلاً.. وأنه يريد أن يعمل كرجل، وأن يعيش كرجل – تمامًا كأنما قد قام بعمل عظيم جدًا.. ويستحق المكافأة على ذلك.

وهو سعيد برجولته.. ولكنه ينسى أن هناك ملايين سبقوه إلى التعاسة لأنهم رجال.. وملايين سبقوه إلى التعاسة لأنهن نساء، فلا هو كسب الرجال ولا هو خسارة على النساء، وإنما هو «واحدة» أو «واحد» كانت له صورتان، تلاشت واحدة وظهرت الأخرى.. وسوف يلقى من الناس ما يلقاه الناس من الناس.. منتهى التعذيب وإن أحدًا لن يستطيع أن يساعده لأن أحدًا لا يساعد أحدًا..

فالدنيا «ملاهٍ ودواهٍ» وعليه هو وحده أن يختار الصورة التي تعجبه.. وأن يدافع عنها.. وهذا الدفاع هو المعنى الوحيد للحياة: لحياته أو حياتها!

الحياة تساوي أو لا تساوي؟!

في لحظات قليلة جدًا من الحياة يسأل الإنسان نفسه: صحيح.. ما معنى هذه الحياة.. ما معنى ما حدث لنا.. أن نولد ونتعذب ونموت.. لم نفهم شيئًا.. لا عرفنا لماذا جئنا ولا عرفنا لماذا ذهبنا.. ولن نعرف ذلك. إذن ما معنى أن نحشر أنفسنا في قطار ليست له محطات؟!

ولذلك يقفز من القطار ومن الطائرة ومن البرج أناس يتعجلون المحطة أو يقيمون لأنفسهم محطات في خيالهم أو في شعورهم، ثم ينزلون عندنا ويموتون.. والموت بهذه الصورة انتحار.. والانتحار معناه عند مثل هؤلاء أنه إذا كانت هذه هي الحياة.. وهذا هو معناها فإني لا أريدها.. فأنا أرفض أن أذهب لمشاهدة فيلم وتمضي ساعة دون أن أفهم شيئًا.. فالخروج من السينما هو الشيء المعقول الوحيد!

والمنتحرون يعتقدون أنهم أشجع من غيرهم، وليس صحيحًا أنهم هاربون، لأن الذي لم يهرب ماذا عرف؟ والشجعان إلى أي شيء وصلوا.. النتيجة واحدة: لا معنى لشيء.. ولا حكمة لشيء.. وإنما هذه هي حياة وأنت حر في أن تعيش أو لا تعيش.

والحياة ليس لها معنى، وإنما نحن الذين نختار لها المعنى الذي يريحنا.. والحكمة التي تقنعنا.. ولا بد أنه الأمل الذي يخدرنا ويجعلنا

نتصور أن الأحسن سيجيء بعد قليل.. وقد يكون هذا القليل هو العمر كله.. ولا يجيء الأحسن.. وأكثر الناس ينسون أنهم سيموتون.. ويريدون أن ينسوا.. فإذا تذكرنا الموت في كل لحظة فسدت حياتنا..

ولم ينقذنا التفكير في الموت من الموت نفسه.. بل إن التفكير في الموت أقسى من الموت نفسه.. لأن التفكير فيه شعور به.. في حين أن الموت هو فقدان التفكير والشعور.. ويبدو أننا لا نعرف معنى الحياة.

فمثلاً إذا جاء طفل صغير في السابعة من عمره وقال: ما معنى هذه الحياة.. ما معنى حياتي أنا.. وما شكلها وما هدفها؟ ولم يهتد الطفل إلى معنى وقرر أن ينتحر.. فإننا نقول عنه إنه صغير جاهل.. إنه لا يعرف أنه سيكون شابا.. ثم يكون رجلاً ثم شيخًا. وبعد ذلك يموت.. إنه استعجل النهاية!

ولكن لو سألنا نحن الكبار: وما معنى حياتنا نحن.. وحياة البشرية كلها من أولها لآخرها.. لكان الجواب: إننا مثل هذا الطفل أيضًا.. فنحن ما نزال في طفولة البشرية. فمن يدري كيف يكون شباب البشرية وكيف تكون رجولتها ثم كيف تكون نهايتها؟ إننا لا نعرف..

في لحظات قليلة يحس الإنسان بعمق وهدوء.. أن هذه الحياة أصبحت لا تساوي.. أو هي بالفعل لا تساوي.. ولكننا ننسى أنها سوف تساوي شيئًا لا نعرفه الآن!

المهم: أن يعرف الناس!

ليس خبرًا أن يتم الطلاق بين الفنانين، ولم يكن خبرًا أن يتزوج اثنان من الفنانين.

فالعلاقات سهلة في الوسط الفني.. من السهل أن تتم الصداقة.. ومن السهل أن تنتهي.. والزواج ليس حادثًا عظيمًا. فقد تم على الشاشة أو على المسرح كثيرًا. ولا يوجد فنان واحد لم يكن عريسًا على الشاشة أو على المسرح، ولا يوجد فنان واحد لم يقف أمام مأذون، ذهابًا وإيابًا..

والزواج في الوسط الفني يتم بسهولة.. فالعمل والاتصال المستمر والإرهاق تجعل الإنسان سهلاً لا يقاوم رغباته في الصداقة أو في الزواج أو في الطلاق . وكثيرًا ما قال الفنان للفنانة: إيه رأيك ما تيجي نعملها؟! ويكون الرد: والله فكرة..

وتتحول الفكرة من كلام إلى تمثيل إلى أفراح إلى خبر تنشره الصحف وتترك مكانًا خاليًا لنشر بقية الخبر وهو الطلاق..

والممثل أحيانًا يندمج في دوره على الشاشة.. فترى واحدًا يبكي من قلبه ويضحك من قلبه.. مع أنه ممثل فقط، لكنه اندمج في دوره فكاد الكذب يصبح حقيقة.

والذي يفعله على الشاشة يفعله في الحياة أيضًا، فيندمج في التعبير عن رغباته فيصبح الكذب حقيقة.. وينسى الفنان أنه ممثل.. وتنسى الفنانة أنها ليست متفرجة وأنها يجب ألا تتأثر بما ترى من كذب.. ولكنها هي أيضًا تحب الكذب.. تحب الكذب على الناس. وتحب كذب الناس عليها.. لأن الفن كله كذب جميل.. فحياتها كذب على المسرح أو على الشاشة..

ويتم الزواج في ظروف فنية، مع أن الحياة نفسها ليست فنًّا، فالحياة على الشاشة لا وجود لها في الواقع.. فالواقع ليس منظمًا ولا جميلاً ولا منطقيًّا ولا مركزًا ولا سريعًا كما نراه على الشاشة.

ولكن الفنان والفنانة يروحان ضحية الكذب الذي يعيشان فيه.. وتجيء الحياة العادية مختلفة عن الفن.. ويتحول الفنان والفنانة إلى متفرجين عاديين ويكتشفان أنهما قد نسيا أنهما ممثلان كاذبان.. وعندما يكتشفان الحقيقة يكرهان الحقيقة.. ويجيء المأذون يحررهما من الصدق المؤلم. ليعودا إلى الكذب الجميل..

والفنان والفنانة ككل الناس مختلفان على الفلوس وعلى الطعام وعلى النساء والرجال.. وعلى الأولاد.. وعلى ساعات النوم وساعات اليقظة.

إن حياة الفنانين الزوجية كئيبة جدًّا لأنها حياة بلا مؤلف ولا مخرج. إنها حياة مرتجلة.. على حسابهما. وليست على حساب المنتج.. حياة بلا وعي.. لأن الاثنين مدمنان للطلاق لأنهما قد أدمنا الزواج بعد ذلك!

اتعب اتعب.. فلن تموت!

ليس التعب هو الذي يقصف العمر وإنما هو الإرهاق! فمن المعروف أن الذي يعمل بانتظام يمرض قليلاً، لأن العمل المنظم هو في نفس الوقت راحة منظمة، وإذا كان هناك نظام في العمل وفي الراحة من العمل، فإن كل وظائف الجسم الإنساني تصبح منظمة أيضًا..

وعمليات الهدم والبناء والطاقة وتبديدها واكتسابها وادخارها كلها عمليات منظمة.. وقد لوحظ أن الذين يعيشون طويلاً هم الذين يعملون دائمًا وأعمالهم منظمة.. لا يهم نوع العمل.. فقد يكون طويل العمر فيلسوفًا أو يكون شحاذًا أو فلاحًا أو حدادًا!

وربما كان ذلك أحد الأسباب في أن عمر المرأة أطول من عمر الرجل.. فحياتها أكثر انتظامًا! أما الذين تنطفئ أعمارهم فجأة أو بسرعة.. فهم كالمصابيح التي لها مشاعل كبيرة متوهجة.. تحترق بسرعة وتتلاشى.. فقد استنفدت كل طاقتها في أقصر وقت، وإن أعمار هؤلاء الناس كأعمار الصواريخ، وليست كأعمار الشموع أو الفوانيس.

ومن أمثلة الإرهاق: أن يعمل الإنسان أسبوعًا متواصلاً بلا راحة، وبعد ذلك يحاول أن يستريح، وأثناء الراحة يعمل أيضًا.. ويتضاعف تعبه ويعجز عن العمل مرة أخرى، ويحاول أن يستأنف نشاطه غير العادي.. وقد

يستعين على النشاط بحبوب منشطة أو بالمنبهات.. أي باستخدام كرابيج من نار يضرب بها أعصابه، ويكون هو العربجي والحصان والكرباج. ولا بد بعد ذلك من أن يتساقط الثلاثة معًا.. مرة بعد مرة!

في عصور الرومانسية في أوروبا كان الشعراء والشبان يموتون في سن مبكرة.. في العشرينات وفي الثلاثينات.. وكان شعارهم: إن الذي تحبه الآلهة يموت شابًا!

وكان هؤلاء الشبان يسرفون في السهر وفي الجوع.. ولا يعالجون أنفسهم إذا مرضوا، لأن النحافة دليل على رهافة الحس ورهافة الحس دليل على القدرة على الحب.. والمحب شاعر بطبعه، والشاعر هو القادر على أن يحب المرأة، وتحبه المرأة.. فمات مئات الألوف من الشبان، لكي تحبهم المرأة.. وعاشت المرأة عمرها الطويل لأنها تتعب وتستريح، ولأنهم يتعبون ولا يستريحون إلا بالموت!

الناس عادة لا ينتظرون!

حدث في أحد المستشفيات أن هجم بعض الناس على غرفة بها اثنان من المرضى.. وخطفوا واحدًا منهما.. مات منهم في الطريق ولم يكن هو الرجل المقصود!

فقد استعجل بعض الورثة نهاية قريب لهم مريض وظن هؤلاء الورثة أن المريض يتمارض وأنه لا يريد أن يعود إلى القرية.. أو أنه يريد أن يبدد أمواله في المستشفى.. وأشيع أنه يريد أن يتزوج إحدى الممرضات.. فقد لاحظوا أن واحدة بالذات تعطف عليه. وأنهم ما من مرة يذهبون إليه إلا وجدوا عنده هذه الممرضة بالذات. ولا يمكن أن تكون هذه العناية الواضحة في ملامحها وشعرها وملابسها، وهذه الورود الكثيرة لوجه الله.. وإنما لوجه هذا الرجل، بل ليس لوجهه. وإنما لجيبه.. لفلوسه التي يريدون أن يستولوا عليها بعد وفاته قبل أن يبددها . ولكن صبرهم قد نفد.. فعلى الرغم من أن الطبيب قد أكد لهم أن حالته سيئة.. أي أن ساعاته الأخيرة قد دنت.. لكن هذه الساعات قد بعدت.. ويبدو أنها لن تجيء!!

فاستعجلوا هذه النهاية..

وبعثوا جماعة من اللصوص.. دخلوا غرفته.. وسرقوا المريض الآخر النائم في سرير مواجه له.. وبعد أيام ألقي القبض على اللصوص الذين أخطأوا في اختيار المريض. والذي مات. واعترفوا بأنهم مكلفون بذلك!!

وألقي القبض على الورثة واللصوص.. وبعد أيام من دخولهم السجن توفي المريض الذي استعجلوا وفاته.. فلو انتظروا عليه بعض الوقت لمات ولكانت لهم كل أمواله.. ولكنهم استعجلوا..

أما هذا المريض فقد كتبت ثروته المحدودة لقريب علم بمرضه.. فزاره مرة واحدة.. واشترى له بعض البرتقال وبعض الحلوى.. وهذا الزائر كان في طريقه إلى بلده أسوان.. وقرر أن يزوره لأن هذا المريض قد أسدى إلى المرحوم والده خدمة متواضعة.

وسافر الزائر إلى أسوان ليجد برقية تطلب إليه ضرورة العودة، وعاد ليكون الوارث الوحيد لعشرة أفدنة وثلاثة بيوت!

هل الإنسان أصله قرد ؟!

من الممكن أن نجد إنسانًا قد أكل خمسة أرغفة ثم يترك لقمة صغيرة! فما معنى ذلك؟ هل معناه أن معدته التي اتسعت لخمسة أرغفة وأشياء أخرى قد ضاقت عن هذه اللقمة؟

هل معناه أنه أكل أكثر مما يجب وفي لحظة تنبه إلى أنه أكل الكثير.. وأنه يجب أن يتوقف عند هذا الحد وكان الحد الضروري هو هذه اللقمة؟ هل معناه سوء التقدير؟!

أي أنه لم يعرف بالضبط مقدار ما يأكل ومقدار ما يترك من الطعام.. ما معنى أن يشتري الإنسان بعشرات الجنيهات مثلاً فاكهة، ثم يناقش البائع مناقشة حادة من أجل أن يقوم بتنزيل قرش أو قرشين.. كيف ينفق هذا المبلغ الكبير. ثم كيف يحرص على توفير هذا المبلغ الصغير؟

ثم كيف يدفع الإنسان بقشيشًا جنيهًا أو خمسة ثم لا يدفع قرشًا واحدًا لمنادي السيارات؟! إنه سوء التقدير.. الذي جعل الإنسان يفسد الأكلة الدسمة بأن يرفض شراء ما يعادل مليمًا من الملح.. وهل هو سوء تقدير خاطئ أعتقد أنه سوء تقدير عام. وأننا جميعًا نفسد أشهى الأطعمة وأروع المشاريع والخطط من أجل شراء بمليم ملح..

ومثلا: إحدى الشركات تعطيك دفتر بونات لتدفعها عند شراء البنزين أو الزيت أو التشحيم.. وهي خدمة عظيمة لكل المستهلكين.. ولكن هذه الدفاتر مصنوعة من ورق هزيل.. ورق يتمزق في يدك وفي يد العامل في أول لقاء بينكما.. إنها نظرية مليم الملح أيضًا.. وفي كل شركة وهيئة ومؤسسة عدد من الناس يتمسكون بمليم الملح أكثر من تمسكهم بالهيئات التي يعملون بها!

ومنذ سنوات نشرت إحدى الصحف أن أجهزة إلكترونية جاءت مع بعثة تعليمية بريطانية إلى مصر، وقد نقلت على ظهور الحمير وفي شوارع القاهرة! ومعنى ذلك أننا تحمسنا لهذه البعثة التعليمية.. وأننا سعداء بالأجهزة الإلكترونية التي أتت بها . وأننا نريد أن نتعلم أو أننا نطلب العلم من كل مكان.

انتهى حماسنا.. وانتهت الوجبة الدسمة ولا بد أن يظهر المؤمنون بفلسفة «مليم الملح» وبدلا من أن ينقلوا هذه الأجهزة على إحدى السيارات الكثيرة الواقفة أمام الهيئات والوزارات نقلوها على عربة كارو.. على ظهر حمار!!

وهذه فضيحة أخلاقية وعلمية.. فضيحة سوء التقدير وسوء التصرف واكتشاف جديد.. فلم نكن نعرف أن هذه الأجهزة الإلكترونية ذات مفعول أكيد إلى هذه الدرجة.. فقد كشفت هذه الأجهزة في اللحظة الأولى من وصولها أن هناك أناسًا عندهم قدرة غريبة على أن يؤكدوا أن الإنسان أصله قرد.. وحيوانات أخرى.

.. وكان موته أعظم

1- العالم المصري د. زاهي حواس فتح ملف الفرعون الصغير توت عنخ آمون بالكلمة والصورة أمام جمهور بالألوف. فهذا الملك الصغير كان مماته أهم كثيرًا من حياته. فلم تكن لحياته أية قيمة تاريخية. وإنما مقبرته والكنوز التي عثر عليها المكتشف الإنجليزي كارتر سنة 1922 هي التي وهبته الحياة حتى اليوم وغدًا.. وقد ذهب زاهي حواس يعرض على الدنيا ماذا وجد في مقبرة الملك توت (18 و 20 و 21 سنة).. وليس في مقبرة توت شيء جديد.. ولكن الجديد هو كيف مات؟ هل قتلته زوجته؟ هل كبير الكهنة، هل قائد الجيش.. هل سقط من فوق عربته الحربية؟ ثم ما هذه العلامة في جبهته؟

(إن العلامة تذكرني أنا بعلامة وجدناها في جبهة أستاذنا عباس العقاد. وقد هالنا المصاب الأليم فلم نتساءل..).

فمنذ الملك توت حتى الرئيس السادات تساقطت دماء كثيرة لعدد من الملوك والزعماء المصريين.. وسوف نفتح الملفات ويعاد التحقيق. أما الملك توت فقد التقط الأطباء لبقاياه ألوف الصور. ولم يصلوا بعد إلى قرار. وإن كان المؤرخون يستبعدون أن تكون زوجته هي التي قتلته. ولا يستبعدون أن يكون الكهنة أو العسكريون. ولم تبق إلا أيام قليلة حتى

نعرف ما الذي أصاب الملك توت وكم كانت سنه وحالته الصحية ومرضه وأمراض عصره أيضًا. وقد لا نصل إلى شيء ويبقى الفرعون الذهبي لغزًا ثلاثين قرنًا أخرى!

وإذا كنا لا نعرف حتى الآن من الذي قتل الرئيس كيندي.. هل هو واحد أو اثنان أو ثلاثة.. شيء عجيب. إنه أقوى رجل لأقوى دولة.. اغتالوه في عز الظهر. ومع ذلك لا يزال موته سرًا. وقبل كيندي اغتيل ثلاثة رؤساء أيضًا هم لنكولن وجارفيلد وماكنيلي..

وقد استبعد الأطباء أن يكون موت الفرعون الصغير مسمومًا كما مات نابليون وستالين وعرفات والمشير عبد الحكيم عامر.

ولا بد أن الذين يبحثون في نهاية عشرات من هؤلاء الكبار سوف يندهشون جدًا لما كتبه المؤرخ الطبري عن مقتل أحد ولدي آدم عليه السلام، فالطبري قد سجل أول جريمة في التاريخ وكأنه صحفي شاطر. فلم يكتف الطبري بتسجيل هذه الجريمة المبكرة. وإنما وصف الحالة النفسية الحزينة لأبينا آدم وقد استبد به الحزن حتى ارتجل قصيدة من الشعر العربي الموزون والمقفي! أي أن لغة أبينا آدم كانت العربية الفصحى.. كيف؟ وأنه كان شاعرًا.. كيف؟ وأن شعره كان سهلا معاصرًا؟! ولم يقل لنا الطبري كيف جاءته هذه القصيدة، وأين قرأها، ومن الذي كتبها فور سماعها، ومن الذي احتفظ بها مليون سنة حتى ألقت بنفسها بين يديه لينشرها دون أن يتساءل كيف ومتى وأين؟ وهو لم يتساءل، ونحن أيضًا . فقد قرأنا وابتسمنا ورفضنا هذه الترهات التاريخية التي كتبها رجل طيب مثل الطبري!

وقد وجهت إلى العالم المصري زاهي حواس عدة أسئلة. وكذلك فعل الإيطاليون..

ومن الغريب أن المكتشف البريطاني هوارد كارتر عندما كشف الغطاء عن جثة الملك توت سجل على نفسه أنه انتزع الغطاء الذهبي للتابوت. ولكن الذي لم يذكره هو أنه حطم الجثة. وتركها سبعة أجزاء أو ثمانية. ولم يقل لنا لماذا؟ ولا عن أي شيء كان يبحث. وأغلب الظن أنه حاول أن يكتشف إن كان القتلة قد تركوا خناجرهم الذهبية إلى جوار جثة الملك اعترافًا بأنهم فعلوا ذلك لأسباب دينية.. فهم لا يؤمنون بما كان يؤمن به الملك توت وأبوه الملك اخناتون ربما. ولا يزال الملك توت يشغل الباحثين والأطباء، ولا تزال علامات استفهام أكثر من علامات التعجب. لقد مات الملك توت صغيرًا جدًا. وبعد شهرين من الوفاة عرضت زوجته نفسها على عدد من الملوك الأجانب تطلب عريسًا. وجاءها العريس قبل أن تجف دماء توت عنخ آمون.. ولم تمت ابتسامته الجميلة من وجهه الذهبي الذي لم تظهر عليه أية علامات للفزع والمفاجأة.

إنها لعنة الفراعنة

2- كانت المحاضرة التي ألقاها العالم المصري د. زاهي حواس إجابة عن كثير من الأسئلة.. إلا أهمها: فقد ولدت مع فتح مقبرة الملك توت عنخ آمون أسطورة أو حقيقة (لعنة الفراعنة).. هذه اللعنة ظهرت على شكل موت غريب لكل من دخل المقبرة أو لمس التابوت أو سرق محتويات المقبرة التي كانت ولا تزال بالألوف. والتي هرِّبت إلى كثير من المتاحف العالمية. أما اللعنة فكانت موتًا مفاجئًا . ويسبق الموت نوع من الحمى والهلوسة والعرق ثم الموت. لقد أصاب عشرين.. ثلاثين من الذين اقتحموا المقبرة وفي مقدمتهم هوارد كارتر الذي فتح المقبرة، والممول البريطاني لورد كارنرفون، وكل الذين حفروا ونبشوا الحرم المقدس للملك توت من العمال المصريين.

وقد شجع على انتشار هذه الخرافة أو الحقيقة أن بعض المقابر ظهرت على مداخلها عبارات تحذر من يتجرأ على سلام وجلال الموت الملكي. كأن يقال: يا داخل هذا المكان الموت لك.. أو لا تتجاوز هذه العتبة وإلا كان موتك محققًا.. أو لا تحاول أن تذهب إلى أبعد وأعمق.. حتى رئيس وزراء بريطانيا توني بلير عندما وجد أنه من الضروري أن يزور مقابر العمال الذين بنوا الهرم أطلعه د. حواس على هذا التحذير، ولكنه كزعيم لحزب العمال رأى أن من الواجب ألا يتجاهل هذه المناسبة السياسية ودخل ووقف وسمع. ونحن ننتظر ماذا ستفعل له لعنة الفراعنة؟

وقيل الكثير جدًا عن لعنة الفراعنة.. قيل إن الباخرة تيتانيك قد غرقت لأن أحد ركابها قام بتهريب مومياء من بريطانيا إلى أمريكا.

وقيل أيضًا إن مثلث برمودة – تلك المنطقة البحرية الشهيرة بموت كل من يقترب منها بحرًا أو جوًا –يقال إن السبب هو اتفاق بين عفاريت الفراعنة وعفاريت هذه الجزر على هلاك كل من يتطاول على هذه الأماكن المقدسة!

ود. زاهي حواس قد روى لنا أنه هو أيضًا رغم جرأته واستخفافه بأسطورة الفراعنة قد أصابه منها شيء كثير، فالجهاز الإلكتروني الحديث الذي أهدته مؤسسة «ناشيونال جيوغرافيك» إلى مصر قد توقف بلا سبب واضح ساعة كاملة! وكما توقف من تلقاء نفسه فقد استأنف التصوير من تلقاء نفسه أيضًا. وفي مكالمة هاتفية عاجلة سمع د. حواس أخته تبكي، فقد مات زوجها! وأعجب من ذلك أيضًا أن هبت عاصفة رملية رعدية ممطرة!! وأغرقت المنطقة كلها. وهذه هي المرة الأولى في التاريخ.. فالمنطقة جافة تمامًا وبلا أمطار من ألوف السنين!

وقبل ذلك عندما ذهبنا نتفرج على معرض آثار توت عنخ آمون في سويسرا تأخرت الطائرة عن موعدها. وتعطلت بنا السيارة طويلاً وانقطع التيار الكهربائي. وكلها حوادث لا تقع في سويسرا بلاد الساعات الدقيقة الانضباط!!

وعندي تجربة شخصية فقد كنت أتناول غدائي مع العالم الأثري كمال الملاخ عندما جاءته مكالمة هاتفية تقول له: إن حمارًا قد نزلت إحدى سيقانه في فتحة في الأرض أمام الهرم الأكبر. وذهبنا نرى. واحترقت سيارتي في الطريق. ولما عاد كمال الملاخ إلى بيته وجد حريقًا في المطبخ. أما الذي كشفه كمال الملاخ في سنة 1958 فهي «مراكب الشمس» التي هزت عالم الآثار الفرعونية. ولا بد أن الوفاة الغامضة المفاجئة لكمال الملاخ كانت لعنة فرعونية. فقد مات وحيدًا. لقد انفردت به الحمى والسخونة والعرق والصراخ، يرحمه الله ويرحمنا من لعنة الفراعنة!

لعنة في المكسيك!

3- في الوقت الذي قام فيه العالم المصري زاهي حواس باستخراج جثة الملك توت وإدخالها أحدث أجهزة للأشعة المقطعية ليعرف كيف مات الفرعون الصغير. كان الإنجليز في المتحف البريطاني يفكرون في تحطيم تحفة تاريخية قد ثبت لديهم بأنها مزورة. وإن صح ذلك فسوف يكون صدمة لملايين المعجبين بها.

أما جثمان الفرعون فقد التقطت له ألوف الصور. والعلماء عاكفون عليه لعلهم يعرفون ماذا حدث منذ 33 قرناً. وهل لا تزال (لعنة الفرعون) نافذة المفعول. ولماذا؟!

أما الذي حدث في المتحف البريطاني فقد أعاد الأثريون الإنجليز النظر إلى جمجمة بالحجم الطبيعي. إنها مصنوعة من الكريستال سليمة تامة، ناعمة باهرة، قد صنعها أهل المكسيك القدامي قبل عصر اكتشاف كولمبوس لأمريكا في آخر القرن الخامس عشر. وقد اكتشفوا هذه الجمجمة في مواقع أثرية. وانتقلت من يد إلى يد حتى وصلت إلى المتحف البريطاني في أواخر القرن التاسع عشر. فقد اقتناها تاجر فرنسي اسمه بوبان، ثم عرضتها، (تيفاني) سلسلة محلات المجوهرات الشهيرة في نيويورك. وكان قد عرضها قبل ذلك على متحف سمثونيان في واشنطن . ثم بيعت واحدة مماثلة لمتحف الإنسان في باريس..

وقد ظلت هذه الجمجمة مغطاة بطبقة من عجينة غريبة. عرفوا فيما بعد أنها معجون الأسنان الذي يستخدمه الأطباء. ثم أمكن غسل الجمجمة ومسحها جيدًا فازدادت بهاء وجمالاً..

ولكن الدراسات المتأنية لهذه الجمجمة في السنوات الأخيرة جعلت العلماء يتشككون في صحتها.. بل قطعوا بأنها مزيفة. أما الأسباب فهي أنه أولاً: لم يثبت أن في المكسيك مناجم للكريستال من الممكن أن تخرج منها كتلة واحدة بهذا الحجم وثانيا: أن هذا الكريستال قد تم طلاؤه بصورة خشنة ومن عادة أبناء المكسيك القدامى أن يكون أسلوبهم ناعمًا في مسح وقطع الصخور.. وثالثًا: لاحظوا أن شكل عمليات المسح والجلاء حول العينين دائري.. وكذلك في الوجنتين. ومعنى ذلك أن الأدوات التي استخدمت كانت عجلات أو تروسًا تتحرك وبشكل دائري وبسرعة ولم يكن هذا معروفًا في المكسيك القديمة. وإنما ظهرت هذه الاختراعات عند الجواهرجية في القرن التاسع عشر.

ولذلك أعلن د. فريستون مدير الأبحاث العلمية بالمتحف البريطاني أن هذا الاكتشاف علمي لا شك فيه. وأنها صدمة كبيرة لعشاق المتحف البريطاني وللشعوب اللاتينية ولكن لا مفر من إعلان ذلك.

بقيت مشكلة خطيرة، هم الذين يقولون إنها خطيرة . وإنها تشبه لعنة الفراعنة. ولكنها لعنة مشروطة، تقول الأسطورة إنه يوجد في العالم 13 جمجمة كريستالية.. عشر منها معروضة في متاحف مختلفة مرصودة ومسجلة ولكن ثلاثًا منها يملكها أشخاص مجهولون. وهم لا يعرفون من بينهم اثنين، أما الثالث فمرة يقال إنه في أستراليا أو يقال في الصين، ومرة يقال في أواسط إفريقيا. ومرة يقال إنه كان ضمن ركاب الباخرة

تيتانيك. وقيل أيضًا أن أحد أسباب غرق الباخرة تيتانيك وجود مومياء فرعونية مهربة!

وتقول الأسطورة إن هذه الجماجم الثلاث عشرة إذا اجتمعت معًا كانت وبالا على الإنسانية وهذه الجماجم تشبه 13 فصلا من كتاب واحد عن تاريخ الإنسانية ومستقبلها . ويقال إنها إذا اجتمعت معًا أضاءت وظهرت عليها كلمات ونبوءات.

وخير للبشرية ألا تجتمع هذه الجماجم معًا لأي سبب!

يقول د. فريستون: إن أحدًا لن يصدقنا ولن يغفر لنا إذا حطمنا هذه الجمجمة المزيفة! فسوف تجيء الملايين تتفرج حتى لو كتبنا تحتها أنها صنعت في ألمانيا في القرن التاسع عشر!

فلا تزال الأسطورة أقوى وأجمل من الحقيقة!

الخنازير والثورة الفرنسية!

4- ومن ثلاثين عامًا ظهر كتاب لباحثة فرنسية. هذه الباحثة استأنفت الحكم في عجائب الثورة الفرنسية 1789 ولعنة الفراعنة أيضًا.

أما كتابها فقد سجلت فيه أثناء دراستها للثورة الفرنسية أنها لاحظت وجود مظاهرات عجيبة غريبة في الريف الفرنسي تهتف وتحتشد وتتفرق من دون اتفاق واضح بين عشرات الفلاحين.. وكأنهم يسيرون بقوى خفية شيطانية ويتجمعون أمام بيت العمدة. ويقفون هناك صامتين. ولا كلمة. وفجأة ودون أن يلاحظ أحد أن هناك زعيمًا أو قائدًا أو عصا سحرية تحركهم، يتفرقون وينتشرون ودون اتفاق على الغرض من هذه المظاهرات أو على مدلول الهتافات. يهتفون في حماس محموم وعرق شديد: تسقط الخنازير.. تسقط تسقط. تعيش الصراصير.. تعيش تعيش.. تسقط الأمطار تسقط تسقط.. اقتلوا الأرانب.. اقتلوها اقتلوها..

ولم يكن هؤلاء الفلاحون رسامي كاريكاتير ولا كانوا أدباء ساخرين.. ولا كانت لهم أهداف واضحة.. وإنما هم تجمعوا وتحركوا واتجهوا بغير هدف.. وكما تجمعوا تفرقوا من دون أن يتفقوا على شيء. وفي أماكن أخرى يتجمع فلاحون وعمال وقساوسة وينظمون خطوطهم.. ويهتفون ويصرخون

ويبكون ويتمرغون على الأرض؟! وبعض المؤرخين الفرنسيين قد وصفوا هذا الهوس بأنه ترحيب محموم بالثورة الفرنسية. وأن جنون الفلاحين يقابله جنون المثقفين في باريس، فمن جنونهم القتل والرغبة الشديدة في الانتقام وإقامة المشانق في كل مكان.. هناك عبارة للأديب إسكندر ديماس الصغير تقول: كأن نهر السين وكل الآبار قد جفت فلم يجد الفرنسيون إلا دماءهم يشربونها!

أما تفسير هذا الذي حدث في الريف الفرنسي فقد اكتشفته هذه الباحثة الطبيبة، تقول إنه تصادف في أيام الثورة أن سقط الجليد والبرد كثيفًا على حقول القمح فأهلكها تمامًا. ولم يجد الفلاحون إلا القمح المخزون في الصوامع.. إنه قمح قديم ولأنه قديم فقد ظهرت عليه فطريات.. هذه الفطريات التي أصابت الناس بالهلوسة والحمى والموت ثم كانت هذه المظاهرات التي لا علاقة لها بالثورة الفرنسية والفرحة بأنها جاءت تقضي على فساد النبلاء والكهنة. وإنما هي أعراض مرض من الأمراض.. تمامًا كالأمراض التي أصابت الذين ملأوا صدورهم بهواء المقابر الفرعونية!!

ومما عثرت عليه الباحثة الفرنسية أيضًا وجود لوحات سريالية لعدد من الفنانين المجهولين، وأن هذه اللوحات العجيبة تشبه تمامًا لوحات الفنانين المعاصرين الذين يتعاطون المخدرات والمهلوسات.. فهذه المهلوسات مثل (ل س د) قد نقلت هؤلاء الفنانين من حالة شعورية واعية إلى غيبوبة لا يمكن بلوغها بالعقل والمنطق وإنما بالغليان والجنون! وقد عرفنا في الشرق على أيام الحشاشين مثل هذه الهلوسات التي دفعت إلى القتل تحت تأثير هذه المنشطات الجنونية والمغيبات الهذيانية.

لقد استطاعت هذه الطبيبة الفرنسية أن تجيب عن أسئلة كثيرة لم تقصدها. فهي قد أجابت على «لعنة الفراعنة» ثم قدمت تفسيرًا للسريالية والدادية والحوشية عند عدد من الشعراء الذين تعاطوا المخدرات والمنبهات والمنومات والمهلوسات.

ولكن بقيت «لعنة الفراعنة» اليوم كما كانت من 83 عامًا عندما انفتحت على الدنيا أروع مقبرة لأصغر ملك.

ولما سألوني في التليفزيون الإيطالي إن كان الذي حدث لي ود. زاهي حواس أخيرًا له تفسير علمي؟ فهززت رأسي وكتفي وأطبقت شفتي. بما معناه لا أعرف. فقد اختفت ساعة يدي وساعة د. زاهي حواس وبحثنا وفتشنا وتعبنا أيامًا ثلاثة وفي الطائرة وجد كل منا ساعته لا في جيبه ولكن في يده!

الفهرس

الكتب التي وضعت أمامها إشارة موجودة لديها

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستاذ
أنيس منصور

(أ) ترجمة ذاتية:

1- في صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
2- عاشوا في حياتي.
3 - إلا قليلاً.
4- طلع البدر علينا.
5- البقية في حياتي.
6 - نحن أولاد الغجر.
7- من نفسي.
8 - حتى أنت يا أنا.
9 - أضواء وضوضاء.
10- كل شيء نسبي.
11- لأول مرة.
12- شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

13- الحائط والدموع.
14- وجع في قلب إسرائيل.
15- الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل).
16- عبد الناصر - المفترى عليه والمفتري علينا.
17- في السياسة (3 أجزاء).
18- الدين والديناميت.
19- لا حرب في أكتوبر ولا سلام.
20- السيدة الأولى.
21- التاريخ أنياب وأظافر.
22- الخالدون مائة - أعظمهم محمد (ﷺ).
23- على رقاب العباد.
24- ديانات أخرى.
25- وكانت الصحة هي الثمن.
26- الغرباء.
27- الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

28- عزيزي فلان.
29- هي وغيرها.
30- بقايا كل شيء.
31- يا من كنت حبيبي.
32- قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

.. للأديب السويسري فريدريش ديرنمات:
33- رومولوس العظيم.
34- زيارة السيدة العجوز.
35- زواج السيد مسيسبي.
36- الشهاب.
37- هي وعشاقها.
.. للأديب السويسري ماكس فريش:
38- أمير الأراضي البور.
39- مشعلو النيران.
.. للأديب الفرنسي جان جيرودو:
40- من أجل سواد عينيها.
.. للأديب الأمريكي آرثر ميللر:
41- بعد السقوط.
.. للأديب الأمريكي تنسي وليامز:
42- فوق الكهف.
.. للأديب الأمريكي يوجين أونيل:
43- الإمبراطور جونس.
.. للأديب الفرنسي يوجين ليونسكو:
44- تعب كلها الحياة.
.. للأديب الفرنسي أداموف:
45- الباب والشباك.
.. للأديب الإسباني أرابال:
46- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

47- الحنان أقوى.
48- من أول نظرة.
49- طريق العذاب.
50- ألوان من الحب.
51- شباب.. شباب.
52- مذكرات شاب غاضب.
53- مذكرات شابة غاضبة.
54- جسمك لا يكذب.
55- الذين هاجروا.
56- غرباء في كل عصر.
57- أظافرها الطويلة.
58- هموم هذا الزمان.

59- زمن الهموم الكبيرة.
60- الحب الذى بيننا.
61- عذاب كل يوم.
62- كيمياء الفضيحة.
63- كل معاني الحب.

(و) دراسات علمية:

64- الذين هبطوا من السماء.
65- الذين عادوا إلى السماء.
66- القوى الخفية.
67- أرواح وأشباح.
68- لعنة الفراعنة.
69- دقات الصحة هي الثمن.

(ز) نقد أدبي:

70- يسقط الحائط الرابع.
71- وداعًا أيها الملل.
72- كرسي على الشمال.
73- ساعات بلا عقارب.
74- مع الآخرين.
75- شيء من الفكر.
76- لو كنت أيوب.
77- يعيش.. يعيش.
78- الوجودية.
79- طريق العذاب.
80- وحدي.. مع الآخرين.
81- ما لا تعلمون.
82- لحظات مسروقة.
83- كتَاب عن كتب.
84- أنتم الناس أيها الشعراء.
85- أيها الموت.. لحظة من فضلك.
86- أوراق على شجر.
87- في تلك السنة.
88- دراسات في الأدب الأمريكي.
89- دراسات في الأدب الألماني.
90- دراسات في الأدب الإيطالي.
91- فلاسفة وجوديون.
92- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

93- حول العالم في 200 يوم.
94- بلاد الله خلق الله.
95- غريب في بلاد غريبة.
96- اليمن ذلك المجهول.
97- أنت في اليابان وبلاد أخرى.
98- أطيب تحياتي من موسكو.
99- أعجب الرحلات في التاريخ.
100- ماذا يريد الشباب؟
101- الرصاص لا يقتل العصافير.

(ط) مسرحيات كوميدية:

102- مدرسة الحب.
103- حلمك يا شيخ علام.
104- مين قتل مين؟
105- جمعية كل وأشكر.
106- الأحياء المجاورة.
107- سلطان زمانه.
108- العبقري.
109- كلام لك يا جارة.
110- فوق الركبة.
111- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
112- يوم بيوم.
113- إنها الأشياء الصغيرة.
114- إلا فاطمة.
115- القلب أبدًا يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

116- حقنة بينج.
117- اتنين.. اتنين.
118- عريس فاطمة.
119- من الذي لا يحب فاطمة؟
120- غاضبون وغاضبات.
121- هي وغيرها.
122- هي وعشاقها.
123- العبقري.
124- القلب أبدًا يدق.
125- يعود الماضي يعود.

(ك) كتب (مقالات):

126- ثم ضاع الطريق.
127- النجوم تولد وتموت.
128- هناك أمل.
129- أحب وأكره.
130- الحيوانات ألطف كثيرًا.
131- مصباح لكل إنسان.
132- أتمنى لك.
133- لعل الموت ينسانا.
134- اقرأ أي شيء.
135- ولكني أتأمل.
136- حتى تعرف نفسك.
137- الحب والفلوس والموت.. وأنا.

138- نحن كذلك !!
139- اللهم إني سائح.
140- كائنات فوق.
141- تعال نفكر معًا.
142- آه لو رأيت !
143- النار على الحدود: لعبة كل العصور.
144- انتهى زمن الفرص الضائعة !
145- هناك فرق.
146- الرئيس قال لي.. وقلت أيضًا - الجزءان الأول والثاني.
147- يا نور النبي.
148- وأنت ما رأيك؟
149- حضارة الإوز والبقر.
150- حلمنا الجميل.
151- ضاع الجيل ضاع.
152- قالوا (الجزءان الأول والثاني).
153- وآخرتها.
154- من أول السطر.
155- أظافرها الطويلة.
156- القلب لا يمتلئ بالذهب.
157- تكلم حتى أراك.
158- الذي خرج ولم يعد.
159- ليلة في بطن الحوت.
160- والله زمان يا حب.
161- أجيال من بعدنا.
162- قلبك يوجعني.

(ل) الترجمات القصصية:

163- رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكي أرفنج والاس.
164- (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.
165- (لو كنت مكاني) للأديب السويسري ماكس فريش.
166- (قصص مورافيا) للأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا.
167- (الجلد) للأديب الإيطالي كورتسيو ملبارته.
168- (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكي جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

169- الفلسفة الوجودية الألمانية - لإميل تسلر.
170- الفلسفة الوجودية الفرنسية - لجان جاك رسو.
171- معنى العدم عند هيدجر وسارتر - لجانيت أردمان.
172- مسرح العبث الفرنسي - لإتيان ماريبو.
173- الفيلسوف الروسي برديائف - لفيكتور لورتسيف.
174- من كيركجور إلى مارسيل - لأنطوان بابيف.
175- سيمون دبوفوار تلميذة رصينة - لفرنسواز روسلان.
176- رسائلها إليه - لفرنسواز روسلان.
177- فاشلون لكن نبلاء - لجان ماري روار.
178- ما الميتافيزيقا؟ - لمارتن هيدجر.
179- الوجودية فلسفة إنسانية - لجان بول سارتر.
180- فلسفة حنا أرنت - تلميذة للفيلسوف الألماني مارتن هيدجر - لآدم برجشتاين.
181- كروتشه فيلسوف الحرية - لإيرابيلا دلورنتس.

